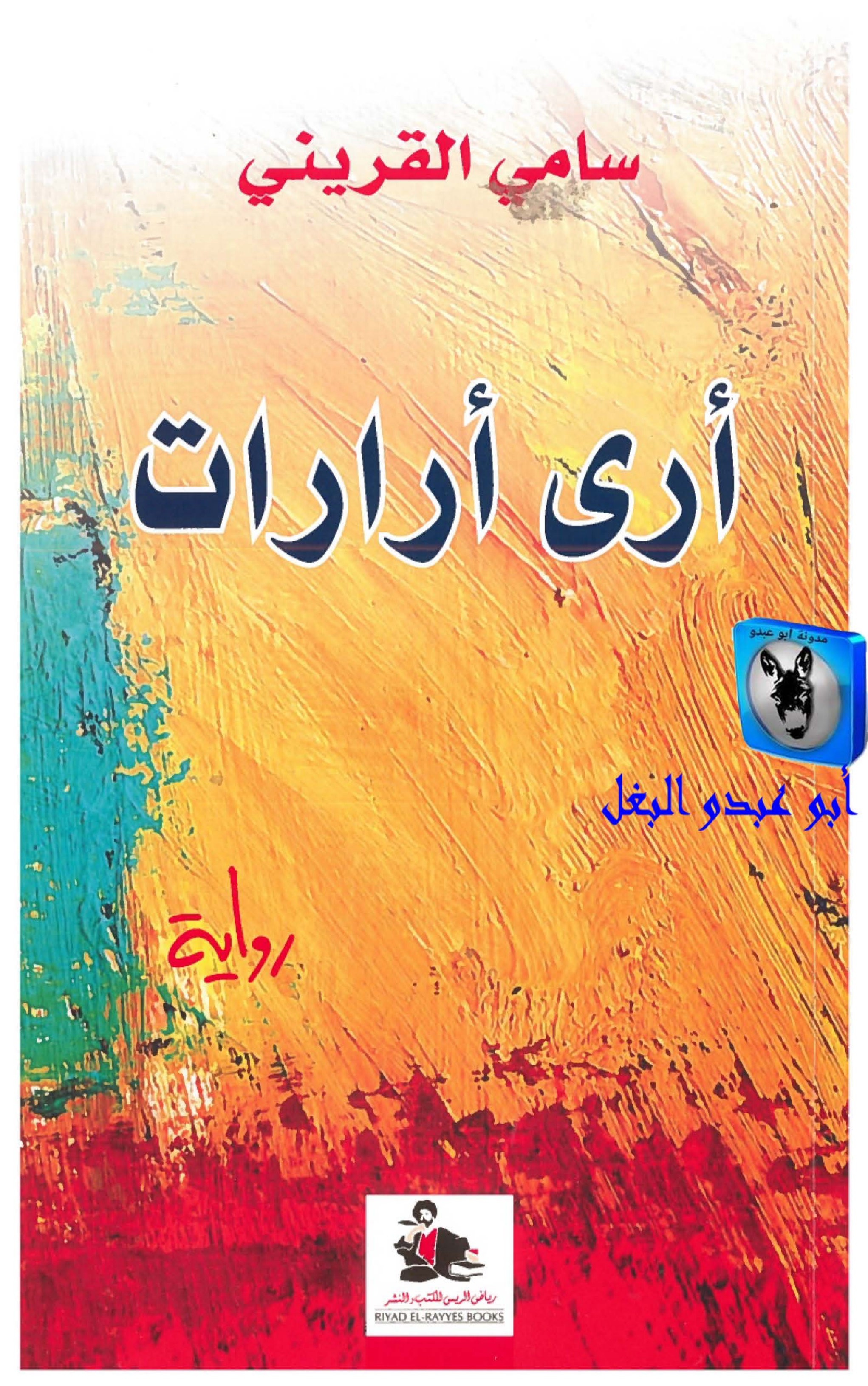

سامي القريني
أرى أرارات
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
رواية
رياض الريس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

أرى أرارات



سامي القريني

أرى أرارات

رواية



I See Ararat

Sami Al-Quraini

Novel

First Published in April 2015

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 978 - 9953 - 21 - 607 - 2

الطبعة الأولى: نيسان (ابريل) ٢٠١٥

المفتاح الأول

لنْ تُلامِسَ كَفُّكَ نَـجْماً في مَجَرَّةِ خَيالِكَ،
إنْ لمْ تَصْنَعْ مِنْ أَلَـمِكَ الـمُقَدَّسِ سُلَّماً يُوصِلُكَ إليه.

المفتاح الثاني

حين لا ترى ظِلَّ وَجْهِكَ عَلَى صَفْحَةِ النَّهْرِ،
فاعْلَمْ أنَّ أحدَكُمَا قَدْ جَفّ.

المفتاح الثالث

قَرَأْنَا في المدارسِ عن الـ BC. وتأمَّلْنَا في الـ AD.
وبقينا جالِسِيْـنَ في الـ WC!



١

لا أريدُ أن أذهب إلى الجحيم جائعاً ووحيداً!

قد أذهب وحيداً كما اعتدت أن أعيش، ولكنني لن أذهب جائعاً بكل تأكيد. هذا ما توصلت إليه بعد تفكير عميق في المسألة المطروحة على طاولة حياتي. وبما أن رصيدي الهاتفي يكفي لإجراء مكالمة سريعة بمطعم «Pizza Hut» الكائن بمحاذاة المصبغة التي تقع مقابل عمارتي، فلا أرى ما يجعلني أتردد في الاتصال، في هذا اليوم، العاشر من شهر سبتمبر/ أيلول كما تؤكد الورقة الصغيرة المطلة من مكانها في الرزنامة على فوضاي، وفي هذه الساعة التي تشير عقاربها الآن إلى الحادية عشرة والنصف ليلاً كما تقول ساعة «دالي» البيضاء ـ ذات الأرقام المتشابكة ـ المعلقة على الحائط خلف التلفزيون. كل الرغبات تنهزم أمام الجوع، هذا ما عرفته وخَبَرْتُهُ خلال هذه الثلاثين المضطربة التي مرت على عجل وعانت داءً أسْمَيْتُه داءَ الالتفات المزمن إلى الوراء، إلى الماضي، إلى الـ(هناك)، على

رغم أنف الـ(هنا). والـ(هُناك) في اعتقادي أنثى، والـ(هُنا) ذكر، ولا أجد ثمة حرجاً من أن يُعقد قرانهما في هذه الحالة على الشريعة الدماغية وسُنَّةِ الحنين المصطفى في الروح. ولكن، كيف سيُلقِّح الـ(هنا) بويضة الـ(هناك) إن كنتُ أصطدم دائماً بحاجز غير مرئي يمنعني من التجلِّي في الفضاءات الفكرية، وأسقط مغشياً عليَّ كلما حركتْ أغصانَ قلبي اليابسةَ رياحُ التوق إلى الرجوع؟ ماذا لو أغمضت عينيَّ وتخيلتُني أسند ظهري إلى جذع نخلة بيت جدي الباسقة؟ ماذا لو سقطتْ في تلك الأثناء تمرة على رأسي وتدحرجتْ فوق طيات قميصي واستقرت بالقرب مني على الرمل، وأنا مستغرق في النشوة، أتراني سأسأل نفسي: لماذا سقطت التمرة إلى الأسفل ولم تسقط إلى الأعلى؟ وهل سأدخل في نقاش محتدم وجدل عقيم مع المرحوم إسحاق نيوتن؟ لا أظن. لأن نيوتن كما يقول التاريخ قد وُلد قبل جيورج فيلهلم فريدرش هيجل بمئة وثمانية وعشرين عاماً، وهذا يعني أننا ـ نيوتن وأنا ـ لن نستفيد من نظرية هيجل الجدلية في التوصل إلى نتيجة ترضي كلا الطرفين. أكاد أؤكد، لو كان نيوتن قد شاهد سقوط التمرة إلى الأسفل بدلاً من التفاحة، لما تساءل حينها عن شيء، ولما تركته التمرة يحار ويضطرب، لأن عمته النخلة ستغمره بدفق من الطمأنينة والحنان، وتجيب عن جميع أسئلته، كما فعلت معي. أليس اكتشاف جاذبية الأرض هو الشرارة الأولى للحرب، والمخطط الأول للسلاح النووي؟

الجاذبية في مفهوم جدي عارف محمد آل عارف، هي البداية، فكل ما في الحياة من وجهة نظره، يسقط إلى الأسفل مادياً، ليمارس ارتداده الطبيعي إلى الأعلى معنوياً. أوراق الشجر، وحبات المطر، والثمر، وحتى الجنين في بطن أمه يتشكل في إطار دائري يُحرِّكه حتى يكون رأسه إلى الأسفل، استعداداً للخروج إلى الأعلى. لقد كان جدي المرحوم عارف ـ الذي عاش قرناً وسبعةَ أعوام (١٨٨١ ـ ١٩٨٨) ـ عارفاً وعرّافاً. يُحكى أنه كان من عشاق «القدو» (النرجيلة/ الشيشة) الذي أقلع عنه في التسعين من عمره. يطيب له تدخين ذلك «القدو» الذي تشرف على تحضيره جدتي فوزية بعد إيابه من المسجد بعد صلاة العصر. كان يجلس يومياً على كرسيه الخشبي الأبيض المفروش بخام السدو السوريّ، وعلى جانبيه مسندان مستطيلان من نفس خام السدو، مشغولان بالقطن المصري بجوار غرفة النوم. لقد اكتشفت مؤخراً أن الوحدة بين مصر وسورية لم تتحقق على أرض الواقع السياسي، إلا بعد امتزاج دخان القدو بالسدو السوري والقطن المصري في بيت جدي. كان يغرق في التدخين كمن ينعم في حلم بهيّ، وهو يشاهد «قرة عينه» جدتي كما كان يطيب له دائماً أن يسمِّيَهَا، ترشُّ الماء في باحة المنزل لتبريد المكان، وتنثر الحبوب للدجاج والطيور المختلفة في الأقفاص. يستمع إلى عمي الأكبر جاسم عندما كان في العاشرة من عمره، وهو يشرح درس الحساب لأخيه الأصغر خالد آل عارف، الذي أصبح في ما بعد والدي. كم كانت تعجبه، بل

وتسحره، طريقة عمتي أمينة في تجديل شعر عمتي الصغرى بسمة. لقد كانت أسرة جدي بالنسبة إليه، تلفازاً قبل وجود التلفاز، ومكتبةً عامرة بالمعرفة والجمال. دروس حساب وعلوم وقواعد هنا، وترتيل قرآن هناك، تصفيف شعر بديع هنا، وحكايات زاخرة بالإثارة والتشويق عن الأساطير هناك. بيته هو مسرحه، أطفاله الممثلون، والأهمُّ من كل ذلك، هو أن كل ما كان يحدث إزاءه كان من إخراج قرة عينه فوزية، إنها الستار لكل ما يدور في الكواليس. أما هو عليه رحمة الله، فقد كان جمهوراً في رجل.

المطِعم ليس بعيداً، وفقاً للقاعدة «النَّوابية» لصاحبها الشاعر مظفر النواب:

«المشربُ ليس بعيداً»!

لذا فإنني لن أتحول الآن إلى إسفنجة «نوَّابية» لأمتصّ جوعي وأشبع من خلال هذا الغوص الذي أمارسه في محيط ذكرياتي. سأنتظر نصف ساعة ريثما تصل بيتزتي السميكة المكونة من الجبن والمشروم والببروني والزيتون الأسود، أو «سوبر سوبريم» بدون البصل والفلفل الأخضر، ولا بأس من إضافة أربعة أرغفة من الثوم بالجبن، وعلبة كوكاكولا. ما أشبه الحياة التي نعيشها على مضض بالسوبر سوبريم!

اللحن الأمازيغي القادم من شقة جارتي الأمازيغية المجاورة،

يبعث الشجن في النفس، ويتغلغل في القلب كما يتغلغل مسمار في لوح خشبي. المقدمة الموسيقية وحدها تختصر بالنسبة إليَّ مجلدات وكتباً كثيرة. آه لو أنني أستطيع أن أغرس سبّابتي في المخيخ بدلاً من البلعوم، لأتقيأ كل الموسيقى التي تصطخب في مغارات جمجمتي.

القضية صعبة ومعقدة جداً، قبل ثلاثة أعوام، في صيف ١٩٩٨، قلت لصديقي العماني تيمور عبد المحسن:

ـ إما أن أكتب سمفونية، أو رواية، أو أختار الانتحار كعمل إبداعي بديل، عمل تراجيديّ ضخم يشغل الناس ويملأ الدنيا، عمل يحمل اسم «عارف خالد آل عارف»، ويا حبذا لو كان صديقي النحات الفرنسي فيليب هنري نوما سيجتهد في نحت تمثال يجسدني في إحدى ساحات المدن الأوروبية، ثم يأتي من ينقش على سطح اللوحة المعدنية الملصقة على قاعدة التمثال الرخامية هذه السطور التعريفية بخط محفور وواضح:

(عارف خالد آل عارف

«١٩٧١ ـ ١٩٩٨»

المنتحر)

أو ربما اكتفى بنقش اسمي الأول ARIF.

ويمكنه أن يضع في الأسفل توقيعه وتاريخ انتهائه من نحت التمثال، إذا كانت لديه الرغبة في ذلك.

ضحك تيمور وهو يرتشف آخر قطرة بقيت في كأسه من النبيذ الإيطالي، ثم قال:

- تزوج إذن قبل انتحارك، لأننا لن نسمح لك بالانتحار قبل إنجاب ولد يرث منك هذا الجنون!

كنا نقتسم مقصورة صغيرة في الدرجة السياحية الثالثة، في إحدى البواخر الأوروبية المنطلقة من ميناء نابولي في إيطاليا إلى ميناء طنجة في المغرب. كان تيمور قد ألحَّ عليَّ كثيراً حينها، وطلب مني أن أرافقه في هذه الرحلة لزيارة المغرب، لأنه مشتاق إلى حبيبته نبيلة التي انقطعت أخبارها منذ شهرين، ولأنه كما يزعم يسعى إلى تهيئة الأوضاع، وترتيب اللقاء الذي يجمعني بشقيقة نبيلة الصغرى فتيحة، البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً. في الواقع، لم أحزم أمتعتي في ذلك اليوم القائظ من شهر أغسطس ولم أتجشم عناء السفر وتعبه اقتناعاً بكلام تيمور عن فتيحة، وتخطيطه المسبق لحب يريد أن يرسمه وفق معاييره وأهوائه الشخصية، السبب الوحيد الذي جعلني أعزم على هذه الرحلة هو التجريب، أردت أن أجرِّب السفر بحراً، بعد أن أتخَمَنِي براً وجواً. وقد يكون هناك سبب آخر غير معلن، هو إعجابي بفيلم تايتانك الذي شاهدته قبل عام من رحلتنا، في العاصمة الفرنسية باريس بصحبة صديقتي جوْيس.

كررتها أمام تيمور، وسأظل أكررها إلى يوم يبعثون. الحب ليس وجبة سريعةً تُطلب من جهاز يستقبل الصوت من الخارج،

لنقله إلى داخل المطعم، ثم نمضي نحن بسياراتنا بعد ذلك إلى شباك استلام الطلبات ودفع النقود. الحب ليس طاولة اجتماعات عقيمة ومشاريع خاسرة، وليس غرفة بِغاء، الحب ليس الكلام العاطفي، إنه حكمة السطحيّ، وتمرُّدُ العمق، إنه التردُّدُ، والتفرُّدُ، والتشدُّدُ في جميع الأمور، إنه الديكتاتورية الديمقراطية، إنه اللون، إنه الرائحة، إنه الهمس. إنه النار التي ـ بكامل وعينا الآدميّ ـ تُـمَسّ. إنه سقوط اللاءات وشهادة ميلاد الـ «نعم»، إنه تسكع «سارتر» بين الوجود والعدم. إنه الشرفة التي تسلَّقَهَا روميو إلى جولييت. إنه سؤال هاملت، وما لم يعرفه الناس عن أفروديت. إنه الهجرة من مكة إلى المدينة. إنه الضجيج في أغوار السكينة. إنه الزاوية التي لم تظهر في الصورة. إنه الصورة التي لم تُلتقط من الزاوية الصحيحة. إنه الرشفة لا الفنجان. إنه الإنسان.

قد يحضر وجه تيمور اليوم كواحد من الذين تركوا أثراً لا بأس به في حياتي. ومن الجائز أيضاً أن تكون حادثته غير المتوقعة هي التي تركت في نفسي هذا الأثر. لقد كان مرحاً، ولم يكن من أولئك الذين إذا التقيتَ بهم مصادفة في سوق أو مقهى، حاولتَ أن تتهرب وتتجنب وابل أسئلتهم عن رقم هاتفك. أشدّ ما كان يزعجني في شخصية تيمور هو عدم إلمامه بالأوضاع السياسية المتردية في الكويت، ومع جهله السياسي، كان يسمي الكويت باريس الخليج. كم كان يؤذيني حين يسترسل في مديحه الذي لا ينقطع. من بين عاداته عندما كان يتعتعه السكر،

أنه كان يسرع في تشغيل أغنية «وطن النهار» لعبد الكريم عبد القادر من خلال وضع شريط الكاسيت الرمادي في مسجلته الصغيرة التي يحملها معه دائماً، وكان في كل مرة يضغط زر الإعادة بعد الكوبليه الأول. وما دارَ في خَلَدِ المسكين أنه سيسقط قتيلاً في مدخل شاليه في طنجة، وأن قلبه الطيب سيحتضن رصاصتين يطلقهما عليه وزير كويتي! لم يكن يزعجني في شخصية وسلوك تيمور سوى تلك النبرة الحادة في ثنائه على الكويت. أما من النواحي الأخرى، فقد كان صديقاً عزيزاً.

حين استقبلَنَا سائق السيارة عبد القادر ـ الذي كان مرافقنا في تلك الرحلة، كما كان شاهداً على الأحداث التي وقعت ـ بعد نزولنا من الباخرة وخروجنا من الميناء، أوصى تيمور السائق أن يأخذنا إلى عنوان بيت نبيلة المدون على ورقة صغيرة أخرجها من الحقيبة الصغيرة التي لفها حول بطنه بعد ركوبنا السيارة. وضع عبد القادر في مسجلة سيارته شريطاً للفنان المغربي عبد الهادي بلخياط وراح يردد معه في طرب واضح بدا عليه: «سيدي حبيب الروح سيدي»، فيما كانت عينا تيمور تطوفان كنورسين رشيقين في المدينة وحول الشاطئ والسوق والبيوت والحارات الضيقة، كادت دقات قلبه تمزق طبلَتَيْ أُذنيّ. أحبَّ تيمور طنجة، عشقَ ماءها وهواءها وترابها، والأهمُّ، هو أنه تُيِّمَ حباً بإحدى أميراتها وأجمل نسائها على حد قوله، نبيلة، أو أم عبد المحسن. وعبد المحسن هو ولدهما الذي لم يُعقد قران

أبويه الدنيويّ لكي يرى النور. دخلت السيارة في شوارع متشابهة تضج بالأطفال، والفتيات العائدات إلى بيوتهن بعد خروجهن من المدرسة. الشمس حارقة في طنجة. توقف عبد القادر قرب دكان صغير وطلب قنينة ماء من الولد الصغير الذي خرج إلينا حافي القدمين. شرب عبد القادر من القنينة البلاستيكية، ثم أدناها من يد تيمور، شرب تيمور ما بقي منها، وترك لي من الماء ما لا يزيد في ارتفاعه عن ثلاثة سنتيمترات. كانت بصمات الأصابع واضحة على الوعاء البلاستيكي، بصمات عبد القادر، وتيمور، والولد الصغير الذي خرج إلينا حافي القدمين، وحدها أصابعي لم تجد بصماتها.

قال عبد القادر:

ـ سأكون في انتظاركما.

وهو يركن سيارته بجوار بيت أحد أصدقائه الذي كان واقفاً ـ بالفنيلة الداخلية وسروال البيجامة ذات الكروهات التي لم تجد ألوانها تناسقاً في ما بينها ـ يتمطى ويتثاءب كمن أفاق بعد ليلة سكر عنيفة، ولا شيء يحتلّ رأسه غير الصداع. نزل من السيارة وهو يدندن الكوبليه الأخير من «سيدي حبيب الروح سيدي» ويشتم ضاحكاً صديقه الواقف. سحبتُ حقيبتي وسرت خلف تيمور الذي بث العشق في قدميه وقود الشوق، فبدا وهو يمشي كأنه يهرول في أولمبياد الولع، حاملاً ميدالية الحب الذهبية. أعجبتُ ببيوت طنجة وأزقتها. في الطريق إلى بيت

نبيلة كانت هناك دكاكين لبيع الفواكه والمرطبات والمكسرات وبعض لوازم المطبخ، مررنا بمكتبة لبيع الكتب القديمة والمخطوطات، حاول تيمور أن يفتح معي موضوعاً ليخرج من ذهني فكرة الدخول إلى المكتبة، وراح يقول:

ـ أتعلم بأن ابن بطوطة مدفون في طنجة.

لم ينتظر إجابتي، وأكمل بعد اجتيازنا المكتبة:

ـ سنزور قبره في وقت لاحق.

وصلنا إلى بيت صغير أبيض، طرق تيمور بابه التركوازيّ.

فجاءه صوت رجل من الداخل:

ـ من؟

ـ أنا تيمور يا عمي.

عرفت من نظرات تيمور وارتباكه أن صاحب الصوت هو والد نبيلة.

فتح الباب بعد ثوانٍ معدودة، وإذا برجل في السبعين من عمره. احتضن تيمور عمه وقبّل جبينه، ثم قدمني إليه بكلمتين:

ـ صديقي عارف.

وهي المرة الأولى التي لم يقفل فيها جملته باللازمة المحببة إلى نفسه، «من الكويت».

وأردف في تقديمه إليّ كأنه يريد من خلال أسلوبه الذي

استخدمه في المزاح أن يزيح حاجز الخجل:

ـ عمي جلال، والد أم عبد المحسن.

صافحته، وقلت له: «تشرفنا»، وقد بدا عليه هو الآخر ارتباك غريب.

لم يطلب منا الدخول واكتفى بتحيتنا عند الباب. تلعثم تيمور في كلامه وهو يقول لعمه:

ـ سنحمل حقائبنا إلى النُّزُل المجاور، ثم نأتي لنشاركك الغداء.

لم يعجبني ما قاله وهو يدعوني ـ على رغم أنفي وأنف عمه ـ لأشاركهما وجبة الغداء، فقاطعته في لطف مصطنع:

ـ وأنا سأذهب إلى مكتبة الكتب القديمة والمخطوطات.

صعقنا رد والد نبيلة وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وقال موجهاً كلماته إلى تيمور:

ـ نبيلة انتهت يا ولدي. ضاعت .. ولم تعد من نصيبك!

أمسك تيمور عمه من ذراعيه النحيلتين وشده إليه غاضباً:

ـ ماذا تقول يا عمي؟ كيف لم تعد نبيلة من نصيبي؟ أخبرني بربّك كيف ضاعت؟ لقد مر شهران على انقطاع اتصالاتنا، ولا أعرف عنها خبراً. تكلَّمْ، أين أجدها؟

قال العم وهو يبعد عن ذراعيه يدي تيمور، مُطرقاً برأسه إلى الأرض:

ـ إنها تعمل في شاليه وزير كويتي!

لا أعلم حتى هذه اللحظة التي أتذكر فيها ما جرى في ذلك اليوم، وكأنه قد حدث قبل دقائق، لماذا صوّب تيمور سهام نظراته إليّ. اخترقَتْني، نفذت في لحمي نظراته التي ما زلت أستحضرها يومياً، هل كان لوقع كلمة «كويتي» دور في تشظّي عينيه؟ أم الصدمة وحدها هي التي فجرت قلبه فتطاير من عينيه بعد تحوله إلى نظرات وحشية كأنها ولدت من حُمَمٍ بركانية متراكمة في الأعماق؟

بعد أن وصلنا إلى النُّزُل القريب من بيت نبيلة، فتح تيمور باب غرفتنا المشتركة، ورمى حقيبة ملابسه على السرير الأول، لم ينطق وهو الثرثار بكلمة واحدة. هكذا اختار لي أن أنام على السرير الثاني بجوار النافذة في غرفتنا المستطيلة من دون الأخذ برأيي، فلم أعترض طبعاً ولم أتبرَّم. رحت أراقب من مكاني حركاته، أخرجت سيجارة من علبة تبغي وغرستها بين شفتيّ، أمرتُ يديَّ بأن تبحثا لي عن ولاعتي في جيبيْ بنطالي، وقد كانت موجودة في الجيب الأيمن، لكنني تظاهرت بأني لم أجدها، ومثلت أمامه دور من لا يحمل معه ما يشعل به سيجارته، لعله ينسى أنني كويتي، ويشفق علي من باب الإنسانية التي تحتاج إلى نَفَسٍ عميق من التبغ، غمزتُ له وحركت إبهامي على طرف سبّابتي كإشارة سريعة تعني أنني أريد ولاعة. أخرجَ علبة الكبريت من حقيبة البطن الصغيرة

ورماها نحوي. أشعلتُ سيجارتي وفتحتُ نافذة الغرفة مستقبلاً هواء طنجة، وبينما هو يقفل عليه باب الحمام، إذ سمعت صوت ماء المغسلة، خمنتُ أنه أراد أن يغسل وجهه، ثم جاءني صوت الدوش. قلت: إنه يريد أن يُسقط عن جسده كل ما تركته حرارة الشمس من بقع على قميصه الكحليّ، وأن يترك للماء أن يمارس مهمته في تحريك الدم داخل أوردته المحتقنة. لم يكن الحمام بالنسبة إلى تيمور بيت راحة فحسب، بل كان مكاناً للاختلاء بالنفس. يبكي ويغني في الحمام، يعشق جميع الحمامات ويذكر مغامراته فيها، الحمام المغربي، والتركي، والبلغاري، والتايلندي، إلى آخر القائمة الطويلة، كما أن فيلم «حمام الملاطيلي» كان من بين أهم الأفلام في تاريخ السينما العربية والعالمية من وجهة نظره.

لفظتْ سيجارتي أنفاسها الأخيرة، فشيعتها إلى المنفضة، حتى وقف الرماد كأنه يعزّي صاحب السيجارة الذي هو أنا، أشعلتُ سيجارة ثانية، لأُفرغَ رماد ذاتي الذي تمتلئ به عروقي. خرج تيمور من الحمام وهو يكمل تجفيف شعره الأجعد بالمنشفة، ارتدى القميص الرمادي الذي أخرجه من حقيبة ملابسه قبل استحمامه، والجينز الأزرق، ثم أدخل قدميه في الحذاء وهو يستند بيده اليسرى إلى الحائط، وتوجه نحو الباب، فتحه وخرج. دفنتُ سيجارتي الثانية قرب مدفن المرحومة شقيقتها الأولى في المنفضة، ووقفت مع الرماد معزياً خيبتي. ما أجملَكِ أيتها الروح في ثورتك.



٢

الطقسُ هنا باردٌ كتحية العلم. والليلُ طويل كأنه درس رياضيات!

الآن والبيتزا في شكلها الدائري إزاء عينيّ، أسمع صوت الرعد، وأبصر وميض البرق، وما من مطر يغسل النوافذ والقلوب. ضوء الأباجورة خافت، والصوت القادم من سمَّاعَتَي ستيريو الغرفة الكبيرتين، يحمل إليّ الحركة الأولى من سمفونية شوبرت الثالثة على هودج شفاف يتمايل على رمال متحركة من النغمات المتلاطمة. كل ما في غرفتي ينتمي إلى الضباب، الضباب من حولي ليس ضباباً كالذي عاشرناه في شتاء ستوكهولم وقضينا معه وقتاً طويلاً في لندن، ضبابي يكشف الأشياء ولا يحجبها، ضبابي ضبابٌ يُعرّي الضبابَ الخارجيَّ ويصقلُ حقيقته، ضبابي متينٌ كحبل، ضبابي هو بابي الأول الذي فتحته ولم أزل أفتش عن المفاتيح التي أفتح فيها أقفال بواباتي الضبابية الأخرى.

الآن والبيتزا حبيبتي، وشوبرت ابن نهاية القرن السابع عشر، وبداية القرن الثامن عشر يجلس على الأريكة القريبة من شباك الشرفة مطلاً على مطلع القرن الحادي والعشرين، مغمضاً عينيه، متأملاً إبداعه في سبك وصياغة ثالثته. أُمسكُ المثلث الأول من البيتزا بأطراف أصابعي. وأتذكر روز/ وردة، حين أمسكتْ في يوم من الأيام بأطراف أناملها الرقيقة مثلث البيتزا وقضمت بأسنانها الطرف الأعلى، فما كان من الجبن الحار إلا أن تمدد وصنع من نعومته جسراً يؤدي إلى شفتيها، ثم مررت بعد مضغ لقمتها المنديل على فمها. سيناريو تلك المرأة في الأكل، ليس كمثله سيناريو.

الظروف، وأنا الذي لم أكن أؤمن بها، هي التي أجبرتني على البحث في صفحة الوظائف الشاغرة عن فرصة للعمل. «مطلوب سائق لـ . . .»، «مطلوب كوافير يجيد الـ . . .»، «مطلوب ميكانيكي، الخبرة لا تقل عن . . .»، «مطلوب شيف لـ . . .»، «مطلوب . . . مطلوب . . . مطلوب» . . أتعبني البحث وأرقني، لماذا لم يكتبوا «نطلب إنساناً، يحمل شهادة الصدق»؟!

الإعلان الوحيد الذي استرعى انتباهي، قفز إليَّ من أسفل الصفحة كقفزة الضفدع، إعلان مربع أصفر، مكتوب عليه باللون الأسود «مطلوب: مهرج/ معالج في مصحة القديسة جان دارك لعلاج سرطان الأطفال في مدينة روان، إقليم نورماندي».

لا أدري كيف رفعت السماعة وطلبت رقم العيادة. سألت موظفة العلاقات العامة عن شروط الوظيفة، فقالت: لم يضع مجلس إدارة المصحة شروطاً لها، لأن المتقدم إليها سيتم تدريبه عليها في دورة تعليمية ستبدأ بعد يومين، وتنتهي بعد عشرين يوماً، يأخذ بعدها المنتسب بطاقة تشبه بطاقة السحب الآلي تمكنه من العمل في جميع العيادات والمستشفيات المتخصصة في علاج سرطان الأطفال حول العالم.

جمعت أشيائي وتركت شقتي، ودعت باريس التي أقمت فيها سبعة أعوام وداعاً تتشقق له الحجارة، ودعت سنوات الدراسة والعمل والجنون والمجون. ودعت معها كل شيء. ركبتُ القطار الذاهب إلى مدينة روان، عاصمة إقليم نورماندي في شمال فرنسا. سكني كان في العمارة التي تقابل المبنى الصحي الكبير الذي تقع فيه مصحة القديسة جان دارك في الأدوار الثلاثة الأخيرة. حملت حقيبتي وجاءت إحدى عاملات النظافة في عمارتي الجديدة لتحمل حقيبتي الثانية والكيسين الصغيرين اللذين جمعت فيهما أكياس المكسرات الصغيرة، الزبيب، والفستق، والجوز، والكاجو، ومجموعة من أصناف متنوعة أخرى. أدخلت الحقيبة ووضعت الكيسين على منضدة الطعام التي تستقبل الزائر قبل غرفة الجلوس، وهمَّت بالخروج، ناديتها وأنا أحمل كيساً يحوي بعض المكسرات:

ـ يا آنسة، أرجو أن تقبلي مني هذا الكيس.

أمسكت به وهي تنظر إلى الأكياس الصغيرة في داخله.

أخرجتْ كيساً واحداً، ومن دون أن تنبِس ببنت شفة، أرجعت الكيس الكبير إلى مكانه على المنضدة، ثم حين وصلت إلى الباب استدارت لتصبح في مواجهتي وقالت:

ـ شكراً أستاذ . . .

قبل أن تغلق الباب، بادرتها قائلاً:

ـ عارف . . .

أرجعت الباب إلى وضعه الأول، وأردفتُ قائلاً:

ـ اسمي عارف.

ـ وأنا أدعى بريجيت.

فزّ قلبي، قلت:

ـ اسمُكِ عذبٌ ينساب كمياه فولفيك، المتحدرة من براكين أوفيرن الفرنسية.

خرجت بريجيت من الشقة مسرعةً في اتجاه النافذة التي تفصل بيني وبين الجار الذي لم أعرف هويته. في بادئ الأمر لم أستطع تفسير خروجها السريع وعودتها بعد ثوانٍ وهي تدنو مني مخفية يديها خلف ظهرها وعلى وجهها ابتسامة رقيقة، لن يجدها من يبحث عنها إلا لدى نساء فرنسا، سألتها مبتسماً:

ـ ماذا تخبئ من سحرٍ يدا بريجيت؟ والسحر كله في عينيها. هل أغمض عينيَّ يا آنسة بريجيت؟

قالت في غنج:

ـ أغمضهما، وابسطْ يديك.

أحببت طريقتنا في التعارف، ففعلت ما طلبت مني.

وضعتْ بين يديَّ المنبسطتين قنينة بلاستيكية. فتحتُ عينيّ، وإذا بها تحجب عني ابتسامتها بأصابع يدها الرشيقة، وتحاول أن تكتم ضحكتها، نظرت إلى القنينة، كانت قنينة ماء من إنتاج مصنع فولفيك. لكن القنينة التي جلبتها بريجيت لم تكن تحمل البصمات التي كنت سأراها بعد ذلك في طنجة.

امتزجت ضحكتها بضحكتي، فأحسستُ بعينيَّ تعانقان عينيها، ووقعت تحت تأثير سرعة وحضور بديهتها، أعجبتني تلقائيتها. كنت أنا السمكة التي شبكتها سنارة الصياد، السنارة روحها، والصياد قلبها. يا لضحكتها الموسيقية التي لا يمكن لرجلٍ عانى ما عانيت في المنفى، أن ينسى رنينها وصداها. كم تمنيت أن يتمكن العلم الحديث من تحقيق رغبتي في دراسة وتشخيص الصوت تحت المجهر. أنا لا أريد أن أرى صاحب الصوت، بل أريد أن أرى الصوت نفسه. ما شكل صوت ماريا كالاس مثلاً؟ أو ما شكل صوت لوتشيانو بافاروتي؟ كيف سيكون شكل صوت نجاة الصغيرة؟ هل سيكون على هيئة

بشرية أم عصفورية؟ من أين جاء الصوت؟ وهل الصوت انفجارٌ بكائيٌّ يخرج من فوهة الصراخ الأول. الصراخ صوت بارد، والهمس صوت دافئ، والقبلة بين العشيقين صوت حار، وبين البارد والدافئ والحار نسب فيزيائي. ما هو الصوت؟ هل هو حالات أم مراحل؟ أم هو مراحل في حالات؟ للبكم صوت، كما أنَّ للصمّ صوتاً يسمعونه أيضاً. لا تهمني سرعته إطلاقاً، لأن تحليل سرعته لن يكشف إلا مجموعة من جوانبه المادية، أما ما أحلم به، فهو أن أصل إلى رؤية «ماديةِ معنويةِ» الصوت. وهذا الحلم في رؤية شكل الصوت، لا في رؤية شكل تردداته هو الذي قادني في الأعوام الثلاثة الأخيرة إلى يريفان عاصمة أرمينيا، حيث أجلس الآن وأبثُّ البيتزا ما يختلج في الصدر من وساوس. سدَّدْتُ إلى بريجيت نظرة بعدما استشعرتُ بقرونِ استشعار حاستي السادسة رغبتَها في البقاء. قلت:

ـ هل تحبين القهوة؟

قالت:

ـ وهل هناك أحد لا يحبها؟ أنا أحب القهوة العربية. لقد جربتها ـ وهي تشير بسبابتها إلى السقف ـ في شقة جارتك الإماراتية في الطابق الرابع.

أما شقتي، فقد كانت في الطابق الثالث. ونحن في أغلب الأحيان كعرب، ومغتربين، نتهرب من العرب/ الرجال، ونحوم حول العرب/ النساء. هذا ديدننا. وعليه جُبِلنا. لقد نسيت الآن

موضوع القهوة العربية، وأخذت دور مُحَقق في غرفة التحقيق. تقمصتُ شخصية ذاك المحقق الظريف الذي جمعتني به الأقدار في أحد أقسام الشرطة في الكويت بعد حادث مروريّ، كنت أنا من رفع القضية، بعدما رفض والد الفتى ـ الذي اجتاز ابنه الإشارة الحمراء وسبَّب الحادث ـ تصليحَ سيارتي في بادئ الأمر، قبل تسجيل القضية ورسم الحادث. سألني المحقق وهو يجلس خلف مكتبه، رافعاً كُمَّيْ دشداشته البيضاء، كأنه يسأل عن جريمة قتل، وكأني كنت القاتل فيها:

ـ متى ينتهي تأمين سيارتك؟

حدَّق في وجهي بعد السؤال.

خرجَ جوابي كصفعة على خده المفلطح:

ـ دفتر السيارة أمامك!

نادى بأعلى صوته الخادم في المخفر:

ـ شركة!

و«شركة» هو الاسم المتفق عليه بين جميع الأفراد والضباط في المخافر، وفي كل المناطق. إذْ لا ينادى العاملُ باسمه الحقيقي في المخافر التزاماً بأعراف الوظيفة، وهذا السلوك وحده عملية سلخ للهوية.

جاء «شركة» المسكين، يحمل على الصينية الصغيرة كوب شاي

وقدح ماء، وضعهما على طاولة المحقق وأخذ معه المنفضة الممتلئة بأعقاب السجائر. غرف المحققين جرداء، مكاتب بنية اللون، ودفاتر كحلية كبيرة.

دفاتر بعض المحققين لا تختلف عن دفاتر الطلبة في المدارس. وأذكر أن دفتري في مادة الفيزياء في المرحلة الثانوية كان كدفتر المحقق. أمسكَ بسماعة هاتف مكتبه السوداء، وحاول الاتصال بوالد الفتى، وإذا بهما ـ الوالد والفتى ـ يدخلان المكتب من دون استئذان. نهض المحقق من مكانه وحيًّا الطرف الثاني، الفتى الذي كان يقود السيارة مستهتراً، ووالده الذي عرفتُ أنه نائب معتَّق من نواب مجلس الأمة. طلب منهما الجلوس وهو يبالغ في الحفاوة بهما، مستخدماً مجموعة من العبارات التي يرددها المجتمع في مثل هذه المناسبات: «أسفرتْ وأنورتْ، هذه الساعة المباركة يا طويل العمر، ماذا تشرب طال عمركَ؟»، والأحرى به أن يقول له: «أظلمتْ وادلهمَّتْ، وطالَ لسانُكَ يا طويل اللسان!». لكنه نادى بصوته الذي ينتمي إلى الحمير:

ـ شركة... يا شركة.

وكأن «شركة» الطيب كان واقفاً خلف باب غرفة التحقيق مباشرة، إذ دخل مسرعاً. طلب منه المحقق أن يأتي بالشاي ودلة القهوة وصحن التمر، فقاطعه النائب المعتَّق قائلاً:

ـ لا يا أبا فيصل، أنعم الله عليك، لقد نجحت في الإقلاع عن

شرب القهوة والشاي، أنت تعرف الضغط ومصائبه.

ردَّ عليه:

ـ أجر وعافية يا طويل العمر. عندنا عصائر طازجة فما رأيك؟

شعرت بأنني أجلس في مقهى أو دكان عصير أو صالة بلياردو، ولست في مخفر تعيس كهذا المخفر، حين طلب له ولولده عصير رمان.

لكن ردّ «شركة» جعلني أبتسم في خبث سافِرٍ ومكشوف وهو يقول هازّاً رأسه على الطريقة الهندية:

ـ بابا، لا يوجد رمّان هنا.

قلت في نفسي:

ـ كيف للرمّان أنْ يَنْبُتَ في بلدٍ قُطِّعتْ على شريطه النفطيّ أوصْالُ كرامة الإنسان؟!

قال النائب:

ـ لا بأس في ذلك، اجلب لنا الماء والتمر.

ولأنني أقدس التمر، تنتفض أحياناً في صدري ثورة خرساء مجنونة حين أرى التمر في متناول أيدي من لا قيمة لهم في الحياة. خذوا الماء، واتركوا التمرَ لنا، لأننا سنحتفظ بسرٍّ الماء، كما تحتفظ نواة التمر بسر النخلة. تحولتْ غرفة التحقيق بعد وصول الماء والتمر، إلى خيمة، وتحول المخفر إلى

صحراء، في صحراء شاسعة امتلأت بالشوارع المزدحمة والجسور، وناطحات السحاب والقبور، اختنقت بالقوانين التي لا تطبق، والسرقات التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، انحدرت إلى قاع الانحدار، وافترستها أنياب الرأسمالية، ثم وُضعتْ في ثلاجة الديمقراطية، فماتت موتاً بطيئاً وتركتْ جثتها جاثمةً على صدورنا أعواماً طويلة، وانتقل إلينا العفن بعد أن تعفنت جثتها. فهل نُلامُ إذا خرجنا من هذا العفن، واستمرت فتوحاتنا في البحث عن وطن؟

المطلوب مني في هذه الجلسة هو التنازل عن القضية، وأنا لا أريد أن أتنازل عن حقي.

التنازل يعني، أن يبقى ملف نجله في وزارة الداخلية نظيفاً. بعد مرور ساعتين من محاولات الأب والمحقق في إقناعي بالتنازل، رأيت وجه «شركة» بعد دخوله الثالث أو الرابع إلى غرفة التحقيق، أحسست بشيء من البشارة في قسمات وجهه، تنازلت عن القضية مقابل ألف دينار. ولم يكن تنازلي حينها إلا لغاية في نفسي، طمحت بها وحققتها فوراً. بعد خروجنا من المخفر، قال النائب:

ـ اتبعني بسيارتك إلى البنك، لكي تستلم المبلغ.

ركبت السيارة التي كنت قد أجرتها بعد يومين من وقوع الحادث، وسرت خلفه إلى البنك القريب من المخفر.

جلست أنتظره في سيارتي بعد وصولنا، ولم أفتح سوى زجاج النافذة اليسرى، جاء مسرعاً وهو يحمل الألف الذي اعتقد أنه اشتراني به لإغلاق ملف القضية. بين تنازلي وعدم نزولي من السيارة غموض لم يفهمه النائب، قال وهو ينحني بقامته ربع انحناءة ليتمكن من تسليمي المبلغ وأنا داخل السيارة:

ـ خذ النقود، وابتعد عن طريق ابني.

بإشارة من يدي قلت له:

ـ خذ أنت المبلغ وعد إلى قصرك الذي شيدته بأموال عهرك السياسي!

فتحت باب السيارة، فتراجع خطوتين إلى الوراء.

أغلقت الباب خلفي وتقدمت نحوه، فابتعد وهو يردد:

ـ مجنون، مجنون . . .

وصل إلى سيارته واستدار قليلاً حين سمعني أقول:

ـ أردت أن أراك متوسلاً بي، يا متسول أصوات المخدوعين من ناخبيك!

ركب سيارته ومضى على عجل، في سرعة أثارت خلفه عاصفة من الغبار، وجعلت الحصى يتطاير على جانبي الطريق، وعلى الواقفين على الرصيف، وكنت أحدهم. . . أحد الواقفين. . . هناك، على رفات الرصيف!

صرت المحقق، وصارت بريجيت الطرف الأول، والإماراتية الطرف الثاني. عرفت اسمها، وعمرها، وتخصصها في الجامعة. ليلى، فتاة في الرابعة والعشرين من عمرها، جاءت من دبي إلى فرنسا لدراسة الطب، جمالها لاتيني، رقيقة المشاعر، ومبدعة في تحضير القهوة العربية كما أكدت بريجيت.

حين ضغطت بريجيت زر المصعد بعد حديثنا عن ليلى، ودبي، وحرارة طقس الخليج، وانتهاء التحقيق معها، كنا نقف عند مدخل شقتي. سألتها لتبديد ثواني انتظار وصول المصعد:

ـ متى ينتهي عملك؟

قالت:

ـ في الساعة السادسة مساءً.

قطع حديثنا توقُّفُ المصعد في الطابق الثالث، كنا واقفَين خارج شقتي، وإذا بليلى الإماراتية تقف وحدها في المصعد، مرتدية بلوزة حمراء وبنطالاً كحلياً، كان شعرها البني مرفوعاً بعناية ومشبوكاً بقلم الرصاص، لقد صدقت بريجيت ولم تبالغ في وصف جمالها.

ـ بونجور بريجيت.

قالت ليلى. حيَّتْها بريجيت وسحبت يدها إلى خارج المصعد. وقفنا نحن الثلاثة قرب درابزين السلّم. تمكنتْ بريجيت من بناء

ذلك الجسر الافتراضي بيني وبين ليلى من خلال التعريف الذي بدا لي مطولاً، ولا سيما حين يأتي من فم فتاة لم تعرف عني شيئاً إلا قبل دقائق قليلة. قلت لتحريك مِجذاف الحوار في بُحيرة الرتابة:

ـ لقد أخبرتني بريجيت عن مذاق قهوتك العربية . . .

ضحكتْ ليلى قبل أن أُتمَّ جملتي، ووجهت كلامها إلى بريجيت وعيناها تفيضان ببريق يتغلغل في أعصابي، ويجعل النار الساكنة في ضلوعي برداً وسلاماً:

ـ عجيب. . . وماذا قلتِ عني؟ هيا أخبريني.

بادرتُ قائلاً:

ـ لقد تحدثتْ عنكِ، ولكنها لم تنصفك كما ينبغي.

حدقت ليلى في عيني بريجيت كطفلة في السادسة من عمرها، كل الطفولة في كل النضج، كل الحرارة في كل الجليد، كل الإغواء في كل العفة، أكملت حديثي:

ـ قالت في وصف جمالك إنك قمر، ولم تقل إنك شمس تهب القمر وجوده.

تحدثت عن إنسانيتك قائلة إنك تكفلت بعلاج أهل قريتها علاجاً مجانياً لمدة شهرين كاملين في عطلتك، ووصفت شعورها بالتقصير نحوك، فهي لو تستطيع أن تُهدِيَكِ عينيها لما توانت لحظة عن ذلك.

ابتسمت ليلى وهي تغمر بريجيت بين ذراعيها وتطبع على جبينها ـ حين نظرت الأخرى إليها ـ قبلة لامست شغاف قلبي.

حركت مجذاف الحوار مرة ثانية، وأردفت:

ـ وقالت أيضاً في وصف قهوتك العربية إنها لذيذة. ولم تقل متى سيستجيب الربّ لي ويحقق حلمي في احتسائها.

قالت ليلى بعد محاولة السيطرة على ضحكتها وهي تضغط زر المصعد الذي صعد فارغاً إلى الطابق الرابع:

ـ بعد نصف ساعة أيها الجار العزيز، سأعد القهوة وأنتظركما في الحديقة.

انغلقَ بابُ المصعد على ليلى وبريجيت، وأَويتُ إلى شقتي.

٣

رُوي عن جدي عارف أنه ذهب في يوم من الأيام إلى المسجد القريب من بيته في منطقة الدسمة لأداء صلاة المغرب، وكان لا يذهب إلى المسجد إلا بعد امتلاء رأسه بدخان «القدو». صلى المغرب، وأخرج سبحته الخضراء من جيبه وراح يسبح اسم ربه الأعلى ويحمده، ثم أذّن وكبّر وصلى صلاة العشاء، وأعاد التسبيح ثانية، بينما هو كذلك، إذ نهض أحد الجالسين في الصف نفسه، دنا منه، وصافحه وهو يتمتم:

ـ حجي، لقد أضفت إلى صلاة المغرب ركعتين فصليتها خمس ركعات، وألغيت ركعة من صلاة العشاء فصليتها ثلاث ركعات. صلاتك غير مقبولة يا حجي.

قال جدي:

ـ ما اسمك يا ولد؟

ردّ عليه «الولد»:

ـ أنا أحمد العامر.

ـ من أبوك؟ ومن جدك؟

ـ أحمد هاني عبد الرحمن العامر.

ـ إذن فأنت حفيد صديقي عبد الرحمن العامر الذي توفي رحمة الله عليه بعد إذاعة خبر استقالة جمال عبد الناصر.

أجابه الحفيد وهو يربِّتُ على كتفِ جدي الذي كان يكره من يضغط على يده في السلام والحوار، أو من يربِّتُ على كتِفِه محاولاً إبداء اللطف الذي يظهره الناس عادة في حضرة كبار السن:

ـ نعم حجي، أنا حفيده الأكبر...

قاطعه جدي:

ـ ظننتك ملاكاً بعثه الله تعالى لتصحيح صلاتي، غريب أنت يا زمن، حفيد عبد الرحمن العامر هبط في آخر الزمان ملاكاً!

ثم اعتدل في جلسته ليواجه الحفيد وهو يواصل سخريته:

ـ ولماذا لم تقل لي: اقرأ، لأقول لك: ما أنا بقارئ!

لم يتمالك حفيد صديق جدي أعصابه، وهو المشهور في منطقتنا بوقاحته، فردّ عليه قائلاً:

ـ يا حجي، احترم شيبك قليلاً، المسافة بينك وبين القبر متر واحد...

أمسك جدي عصاه وانهال عليه ضرباً وشتماً، حتى هرع المصلون لفضِّ الاشتباك والسيطرة على تهور أحمد وطيشه. وسط هذا الجو المشحون، أجمع المصلون على طرد جدي من المسجد لأنه لم يراعِ حرمة المكان حين علا صوته بالشتائم. وألصقوا به مرض ألزهايمر الذي لم يكن قد أصابه، ما أدى إلى اكتئاب جدي، في العقدين الأخيرين من حياته وفقدانه الشعور بالراحة، ولا سيما بعد وفاة قرة عينه، جدتي.

ولقد ولدت في اليوم الذي طُرد فيه جدي من المسجد، أي في السابع من شهر فبراير سنة ١٩٧١. نوتْ أمي الذهاب إلى مستشفى الولادة قبل ولادتي بيومين، بعد أن اشتدت عليها آلام المخاض حين كانت تمشي حافية القدمين على رمل شاطئ البحر وهي تستند إلى جذع أبي. حملها وحملني معها بين يديه وكنت في أيامي الأخيرة في بطنها. أجلسها على المقعد الأمامي في السيارة، ثم أدار المحرك وقاد بسرعة جنونية، كان يحاول اختصار الطرق المؤدية إلى المستشفى من خلال القيادة داخل المناطق السكنية، لكن سائق شاحنة لم يلتزم قانونَ الوقوف عند أحد التقاطعات بين منطقتي الشامية وكيفان، ولم ينتظر ريثما تمر سيارة أبي، فما كان منه إلا أن يصطدم بها ويطحنها تحت عجلات شاحنته الكبيرة. شاحنة هرست أباً في الرابعة والأربعين وأماً في السادسة والثلاثين، وأخرجتني من بطن أمي إلى هذه الدنيا قبل التاريخ المحدد لولادتي وهو التاسع من شهر فبراير، وليس السابع، كما جاء في ملف

والدتي في مستشفى الولادة وتحته توقيع الطبيبة المشرفة وختمها، وتاريخ المراجعة الأخيرة في ٢٨/ ١/ ١٩٧١ .

توقفت مجموعة من السيارات، نزل أصحابها لمد يد العون والمساعدة، وكان من بينهم المهندس نائل القاسم الذي أصابه الذهول عندما سمع صراخ طفل يأتي إليه ويخترق أذنيه من تحت أنقاض السيارة، فركض في اتجاه سيارته ونادى عقيلته القابلة المعروفة آنذاك السيدة شفيقة القاسم أم عمار. كان الجو عاصفاً وممطراً، ولم يشرح لي أحد كيف استطاعت الخالة أم عمار أداء مهمتها على أكمل وجه، من دون الاستعانة بالماء الحار ولوازم الإنجاب الأخرى. وسط أصوات صافرات سيارات الشرطة والإطفاء، وهمهمات البشر، انتُشلتُ من مسرح الموت، ونُقلتُ في سيارة الإسعاف إلى المستشفى الأميري، أو مستشفى «السيّاب» كما كان يسميه جدي، فهو المستشفى ذاته الذي قضى فيه الشاعر بدر شاكر السياب أيامه الأخيرة ومات فيه. في غرفة ما في جناح ما في هذا المستشفى في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٦٤، أي قبل ولادتي بسبعة أعوام، احتضن أبي صديقَهُ الشاعر علي السبتي في ذلك اليوم، وامتزجت مشاعرهما حزناً على رحيل السياب الذي كان صديقهما المقرب، وألفت دموعهما «أنشودةَ مطرٍ» لم تألفها سماؤنا الغريبة، وخليجنا الغريب الذي جلس الغريب إليه يوماً يسرح البصر المحير فيه. في اليوم التالي حمل صديق أبي العم علي السبتي جثمان السياب إلى البصرة في سيارته وشيعه

إلى مثواه الأخير. إذن، فسيارة نقلت السياب من المستشفى إلى بصرته، بصرة أمه وجدته، بصرة شعره وشبابه، بصرة حبه الأول والسابع وما بينهما، وسيارة أخرى نقلتني من بطن أمي / الوطن، إلى المستشفى / المنفى. أخذوني معهم في سيارة الإسعاف بعد انقطاع الأوكسجين عني، وكانت الخالة أم عمار قد سحبت ملفع رأسها وقمطتني به، فيما خلع زوجها المهندس نائل القاسم شماغه وغطى به شعرها في مشهد حضاري وصفته لي أم عمار في ما بعد.

لم أسأل أحداً عن حبلي السري، أين رموه أو في أي بقعة دفنوه، ليست لدي معلومات كافية عن الحبل المادي الوحيد الذي كان يربطني بأمي، لو كان عندي اليوم لحملته معي كتعويذة تنشر في قرارتي الطمأنينة ودفء الأمومة. لا أدري إن كان حبلي السري قد رمي في حاوية قمامة لتقتسمه القطط والفئران، أم جرفته السيول والأمطار إلى البحر، فتحول بعد تحلله إلى ماء مالح، ثم إلى بخار، ثم إلى غيمة لا تزال تظللني كنبيّ. ولدتُ في سيارة تهشَّم زجاجها، واعوج سقفها وحديدها. يؤكد شهود الحادث أن أبي قد فارق الحياة قبل أمي، لأن جسده كان ساكناً والدم يرشح منه كنافورة، ويرى بعضهم الآخر أن سكون جسده ليس دليلاً قاطعاً على وفاته، وأنّه من المحتمل أن يكون قد مات بعد وفاة أمي، لأنه ربما يكون قد مر بغيبوبة قصيرة قبل توقف قلبه. الواقع هو أن ثلاث شهادات صدرت من الدولة تحمل تاريخاً واحداً هو

٧/ ٢/ ١٩٧١ في شهادتَي وفاة أمي وأبي، وفي شهادة ميلادي. ظل جدي محتفظاً بالخبر الذي نشرته إحدى الصحف المحلية بعد ثلاثة أيام من وقوع الحادث تحت وسادته. حمل الخبر المنشور في الصفحة الأخيرة هذا المانشيت المثير: «جاء إلى الدنيا بعد وفاة أمه وأبيه». هل نجوت في تلك الليلة من الموت؟ أم متّ موتاً من نوع آخر؟ لا أظن أن للمصادفة دوراً هنا، وأؤمن كما آمن جدي بالقضاء والقدر. لأن منطق القضاء والقدر، حين أستخلصه من سيناريو ولادتي، أرى أنه منطق مدروس يكاد أن يكون مادياً متحركاً في ثباته، ومعنوياً ثابتاً في تحركه. أما منطق المصادفة، فإنه منطق زئبقي، متذبذب، غامض، وغير واضح حتى في الاشتباه في وضوحه، منطق يغذي الشك، ولا يؤدي إلى يقين.

رقدتُ أسبوعين في المستشفى، وكانت حالتي حرجة جداً، كافح جدي وكان في التسعين من عمره، ومعه عمتي بسمة الأرملة التي لم ترزق أولاداً، في إنقاذ حياتي، نذرتْ نذوراً فوق طاقتها، صلّت، ودعت الرحمن، وغمرتني بطيبة قلبها. إنها عمتي/ «ماما بسمة» التي كنت أشاكسها كثيراً. في يوم من أيام شهر رمضان، كانت عمتي تلفّ في مطبخ بيتنا ورق العنب وهي تغني أغنية لزهور حسين، خرجتُ من غرفتي أحمل كيساً صغيراً جمعت فيه كتب المرحلة الثانوية لإحراقها في الحوش، وإذا بعمتي تناديني:

ـ عيني عارف، إلى أين؟ وما هذا الكيس؟

قلت وأنا أقترب من مكانها حيث كانت تجلس إلى طاولة الطعام في المطبخ:

ـ هذه مجموعة من كتب المدرسة وبعض أشرطة المطربة العراقية لميعة توفيق، قررتُ أن أتخلص منها.

هوت كفُّها اليمنى على صدرها وقالت:

ـ ولماذا سترمي أشرطة لميعة توفيق؟!

أجبتها وأنا أغمز لها بعيني مبتسماً:

ـ كيف لا أرميها وهي تقول «انتِ شلون عمتي؟ بي ما افتهمتي»!

ضحكت عمتي وقرصت خدي، وأنا أحتضنها بين ذراعي وأقبّل خديها وجبينها، بعدما غلبتني بإجابتها:

ـ لميعة توفيق قالت: «عمتي». . . وأنت لم تقل: «عمتي» في حياتك، ماذا حدث لأتحول من «ماماتك بسمة» إلى «عمتك بسمة». . . يبدو أن امتحانك الأخير في المدرسة قد أثر على مخك.

ثم استدركت:

ـ اللهم احفظ حبيبي عارف بعينك التي لا تنام. يا رب العالمين.

في حديقة عمارتنا، جلست على أحد المقاعد الخشبية، أشرب قهوة ليلى العربية. كانت بريجيت تتنقل أمامنا كفراشة وهي تسقي الزرع. أما قهوة ليلى فلا بأس بها، لم يكن ينقصها في رأيي سوى القليل من المسمار والهال، لتتمكن من استيطان القلب والذهن وضمان حق عودتي إليها. ولا أنكر أنني بالغت كثيراً بوصف إعجابي بها والتغني بمذاقها الذي لم يكن بالنسبة إليَّ أكثر من جيد. أحياناً نضطر نحن الرجال إلى إظهار نصف الحقيقة وإخفاء النصف الثاني، ولا سيما إذا كنا نريد الفوز بالحقائق الكبرى. في الرابعة عصراً، وفي مدينة روان عاصمة إقليم نورماندي، في حديقة عمارتي التي سأقضي فيها أياماً لا تُنسى، أجلس في يومي الأول بجوار طبيبة إماراتية، كنت كمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً. كأن شيئاً مجهول الماهية انبثق كنبع من رأسي وراح يجرّ أسماله نحو مصبّ الفؤاد. أهو الحنين إلى اللغة العربية؟ أم هو العطش إلى الدفء المفتقد؟ وعلى أيهما يشنُّ العطش غاراته في هذه المرة، أعَلى الروح، أم على الجسد؟ كأن سيلاً من أحاسيس ابتلعني، أو كأن صخرة كبيرة تدحرجت من قمة جبلٍ وسقطت على رأس طفل كان يجمع في سلته التفاح ولآلئ السماء، ليفرغ السلة بعد امتلائها في حضن أمه التي كانت تنتظر إيابه قرب موقد محشوٍّ بحطب أيامها. سقط الطفل، وكتمت صراخه الصخرة، فمات تحتها، وماتت أمه. وبدَّلَت القرية أهلَها، بأهل آخرين، كما يُبدِّل المرء ملابسه. لكن السكان الذين تعاقبوا على القرية ظلوا يرددون

قصة الطفل، ويقصون سيرة بطولته وشجاعته على أبنائهم إذا قام أحد الأبناء بأمر يستحق التقدير، كانوا يُقْسمون بالصخرة وما تحتها، وكان ذكرها يحضر في أحاديثهم كسلاح تهديد يستخدمه الآباء لتقويم سلوك الأبناء. مرت الأيام، والشهور، والسنوات، والقرون، وتحركت الصخرة عن موضعها بضعة أمتار بعد إعصار فتك بالجبل وأشجاره، وأقصى الليل عن نجومه وأقماره، فجاء الصباح، وأشرقت الشمس على القرية وأهلها. خرج الأطفال مسرعين بعد أن لاحظوا من مكان بعيد تحرُّكَ الصخرة. تسلقوا الجبل الأول ومروا في منعطفات ووديان وكهوف وأنفاق قادتهم إلى الجبل الثاني أو عرش الحلم كما أطلقت عليه العجائز. كان عدد الأطفال يتجاوز الخمسين، إلاّ أن التعب غربلهم الواحد تلو الآخر، إلى أن لم يبقَ منهم سوى سبعة أطفال، وكان توقهم ثامنهم. حتى إذا شارفت الشمس على المغيب، وصلوا إلى المكان الذي استقرت فيه الصخرة، ارتقاها أحدهم فرأى خلفها بقعة تتماوج فيها الألوان، أحس بعينيه تبصران ما حوله بنظام D3. تسمر في مكانه، وحاول النزول، فسقط على ركبتيه، تأوه قليلاً، ثم نهض وأخذ يمشي متثاقلاً ليرى المكان الذي طالما تمنى الوصول إليه. أدرك وهو يدنو من البقعة أن جسده تعافى، وأن الجرح العميق في ركبته اليمنى قد اندمل، ولم يعد له أثر، وكان كلما اقترب من البقعة أحس بقوة مغناطيسية تشده إليها. حاول الأطفال الستة الآخرون تسلق الصخرة دون جدوى،

أقلقهم اختفاء صاحبهم، نادوه بأعلى أصواتهم، فلم يجب نداءاتهم لأنه لم يسمعها. تفرق الأطفال الستة في رجوعهم، أربعة تاهوا، واثنان فقط عادا إلى القرية ورويا للسكان ما وقع لهما مع الأصدقاء في رحلتهم. إذن، فإنّ طفلاً واحداً من أصل سبعة أطفال تمكن من اكتشاف السر. وهكذا، فالإنسان لا يُؤتى الحكمة إلا بعد اجتياز تلك المنعطفات والوديان والكهوف، والأهم من ذلك كله استناداً إلى قصة الطفل هو تسلق الصخرة. إن استطعت أن تتسلقها وسقطت وحيداً، فلا تقلق، حكمتك مرهمك، والحياة مغرمك. ليس مهماً أن تصل المجموعة كلها إلى تلك النقطة، لأن صناع الحضارة كانوا أفراداً في محيط لم يعترف بهم، الشعراء أفراد، والفلاسفة أفراد، والفنانون أفراد، والتاريخ الذي قرأناهُ كَتَبَهُ أفراد، وزورتْهُ جماعات! جماعة تكتب، ثم تأتي جماعة ثانية لتشطب ما كتبته الأولى وتضيف ما تشاء. ملغمون نحن بالأكاذيب والأباطيل والتُّرَّهَات، ومقتنعون بأننا خير أمة أخرجت للناس. ليلى طبيبة تسعى إلى تحقيق طموحاتها والاستقرار في فرنسا، وأنا سأعمل معالجاً في المصحة القريبة من مسكني، ولا أدري إن كنت سأحط رحالي في فرنسا أم في غيرها من الدول. دار الحديث بيننا حول تطور الطب في الولايات المتحدة وفرنسا، تشعبنا في مواضيع مختلفة، حدثتها عن نفسي، وحدثتني عن نفسها، وحده الارتياح فتح قلبينا، ولا شك في أن القرب الجغرافي بين الإمارات والكويت أسهم كثيراً في إلغاء الحواجز التي كانت

بيننا. العادات المشتركة بين أهل الخليج، والأحداث السياسية في المنطقة، وأحلام المواطنين البسطاء، كل تلك الأشياء، جعلت من حوارنا وجبة كاملة الدسم.

ذهبت في الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين أحمل معي صورة من جواز سفري، وصورة من شهادتي الدراسية الصادرة من أكاديمية الفنون في باريس، وصورة من البحث الذي عرضت فيه رؤيتي لتمثال المفكر للنحات رودان، وشريط فيديو يضم المقابلة التي أجرتها معي الإعلامية الفرنسية صوفيا بيراد في برنامجها الأسبوعي حول موضوع تمثال المفكر. عبأت استمارة الاشتراك بدورة تدريب المعالجين، قبل بدء المحاضرة الأولى بنصف ساعة. طلبت مني السكرتيرة بعد التوقيع على الاستمارة، أن أرافقها إلى قاعة المحاضرة النظرية الأولى، دخلتُ القاعة وكانت مزودة بشاشتين كبيرتين، ولوحات إرشادية معلقة على الجدران المطلية باللون الزهري، اخترت طاولة أمامية وجلست على الكرسي ممسكاً بيدي قلمي الجاف، دخل خمسة أشخاص، شابان وثلاث فتيات، ثم دخلت بعدهم مباشرة البروفيسورة سينتيا كوبير المشرفة على تدريبنا. كانت مدام كوبير في الستين من عمرها، قضت أربعين عاماً في دراسة وعلاج وتشخيص حالات السرطان لدى الأطفال، ثم حققت حلمها في تأسيس هذه العيادة قبل عامين، وكان شريكها في مشروعها الإنساني الدكتور النيجيري ساموِيل بوب، الذي منحته السلطة الجواز الفرنسي، وفرشت لأحلامه السجادة

الحمراء، وأهدته بيتين في باريس ونيس. مدة محاضرتنا النظرية الأولى ساعة وعشرون دقيقة، نأخذ بعدها استراحة قصيرةً تكفي لشرب فنجان من القهوة أو أكل تفاحة في كافتيريا المصحة، ثم تبدأ المحاضرة الثانية في التاسعة والنصف، وهي محاضرة عملية نطبق فيها ما تعلمناه في المحاضرة الأولى مع الأطفال، لكن برنامج يومنا الأول اقتصر على التعارف. كنت العربي الوحيد، بين شابين: إدوارد وشون من الولايات المتحدة الأميركية، وثلاث فتيات: كريستي من بولندا، وساشا من الصين، ونيكول من أستراليا. كانت البولندية كريستي أجملهن. حاولت من خلال التعريف عن نفسي أن أتحدث عن اهتماماتي، فذكرت من بين ما ذكرت أنني أحب الموسيقى الكلاسيكية، وأقدر شوبان، وأن هذا التقدير هو الذي أخذني في يوم من الأيام إلى وارسو لأرى تمثال شوبان الشهير في حديقة وارسو العامة وأزور بيته الذي ولد فيه في قرية ريفية قريبة من العاصمة، والتفتُّ إلى كريستي الجالسة عن يميني وأنا ألفظ «وارسو» بالبولندية:

ـ أعني وارسوفا.

ابتسمت كريستي وهي تقول بالفرنسية:

ـ أنا من مواليد وارسوفا.

في الاستراحة، كانت كريستي تجلس إزائي. رحت أسترق النظر إلى شعرها الأشقر وعينيها الخضراوين، إلى فمها

الدقيق وشفتيها المكتنزتين بتاريخ الكرز. انتبهت بغتة إلى يديها المستقرتين على الطاولة التي تفصل بيننا، أحسست بدمي يتسرب مني ويمتزج بطلاء أظافرها الأحمر، خامرني شعور خلال حديثنا القصير عن شوبان والعاصمة البولندية وارسوفا، وصعوبة الفوز بعمل في مدن فرنسا، بأني صرت أسمع صوت دمي في حوار يديها وأصابعها مع فنجان قهوتها. بيننا على الطاولة الصغيرة شمعة بيضاء، وكوب شاي لي، وفنجان قهوة لها. قالت إنها تقطن مع والدتها وأخيها الأصغر هانز في العمارة المجاورة، وعرفت أنها تقيم في الطابق الثاني، والعمارة التي تعنيها هي عمارتي نفسها. أنا الآن رهين مثلث أنثوي جبار. بريجيت الفرنسية، وليلى الإماراتية، وكريستي البولندية. بين أيديهن تركت قلبي ونزلت أركض في الشوارع بين مثلث الإناث، ومثلث البيتزا الذي سقط من يدي الآن.

في المحاضرة الثانية، أخذتنا مدام كوبير في جولة داخل أقسام العيادة، وعندما دخلنا مكتبة العيادة، ألقيت نظرة سريعة على رفوفها، فشدتني الكتب، وجدت مجموعة من دواوين الشعر، وقصص الأطفال، وكتب الفلسفة، والمجلدات الفنية التي كان من بينها مجلد ضخم يضم لوحات رائد المدرسة الانطباعية بيير أوجست رينوار الكاملة. وفي زاوية أخرى من المكتبة وضعت رفوف لحمل أشرطة الفيديو، أفلام كرتونية، وأفلام وثائقية، وأوبرات، ومسرحيات متنوعة لشكسبير وبيير كورني وموليير

وراسين وغيرهم، وإلى جانبها مجموعة لا بأس بها من الأسطوانات الموسيقية. قالت مدام كوبير وهي تشير بيدها إلى الكتب والأشرطة والأسطوانات:

ـ هذه هي طريقتنا في العلاج. بالفن نحاصر المرض، ونوجه إرادة المريض في الاتجاه الصحيح.

قضيت في هذه الدورة عشرين يوماً، تعلمت الكثير، وأفدت من خبرة مدام كوبير والدكتور ساموبل بوب في فهم حالة المريض قبل علاجه. قارنت بين عناوين الكتب الموجودة في هذه المصحة، وبين الكتب والمنشورات المنتشرة في مستوصفات ومستشفيات الكويت. وقعت عيناي هنا على مؤلفات برشت وبيكيت وريلكه، ووقعت عيناي هناك على عناوين مفزعة كهذه العناوين: «الغرب مصاص الدماء» و«الحجاب قبل الحساب» و«عذاب القبر» وجميع هذه الكتب أو الكتيبات لمؤلفين مجهولين لا أعرف ولا يعرف غيري عنهم شيئاً. أوضح لنا الدكتور بوب في محاضرة ألقاها في الأسبوع الثاني من دورتنا أن حاجتنا إلى المريض في أغلب الأحيان تكون أكبر من حاجته إلينا كمعالجين، لأن المعالج في عيادتنا يعالج داءين على الأقل في كل مريض، الداء الأول هو يأس المريض، والداء الثاني هو السرطان. إذ لا يمكن للطبيب أو المعالج أن يقضي على المرض إن لم يعطه المريض تأشيرة الدخول إلى حالته النفسية. وأكد في المحاضرة نفسها على أن

الطبيب الناجح لا يصنعه إلا المريض المتفائل، وأيدت كلامه مدام كوبير التي كانت جالسة معنا في تلك المحاضرة. عرض لنا في محاضرته الثانية التي كان عنوانها (كيف تقتل اليأس) مجموعة من الطرق والأساليب والفنون المستخدمة في علاج مرضى السرطان من الناحية النفسية قبل وضعهم تحت الأجهزة الطبية. تمنيت لو أني كنت مطلعاً على هذه الأمور قبل خروجي من الكويت، وقبل وفاة عمتي بسمة بسرطان الكبد. أدركت متأخراً أننا أضعنا من العمر أجمل السنوات في دراسة وحفظ ما لا ينفعنا في الحياة، وأدركت أيضاً أن التعليم الحقيقي لم يكن له وجود على أرض واقعنا. شعرت بعد انتهاء الدورة بأني إنسان آخر، إنسان يجيد قراءة عيون الناس ويتقن قياس انفعالاتهم في المقاهي والأسواق والأماكن العامة، أعطتني المصحة بالإضافة إلى البطاقة الصغيرة وشهادة التقدير عمراً فوق عمري. تم تدريبنا على أنماط التهريج في استخدامها كوسيلة علاج، تمكنت كما تمكن زملائي في الدورة من وضع المكياج وارتداء الأزياء من دون الرجوع إلى المساعد مسيو شارل الذي أشرف على تجهيزنا في الدورة التدريبية. شدد بوب على ضرورة تقمص أدوارنا الجديدة وإعطائها الحيوية التي تبهر الطفل المريض وتلامس خياله. كان علينا أن نخلق للأطفال المرضى عالماً لا وجود للشر فيه، عالماً يشبه نقاءهم، ويحاكي براءتهم. لم نتدرب على تقمص الشخصيات الكرتونية المعروفة التي تستخدمها بعض العيادات المتخصصة الأخرى كميكي

ماوس، أو توم وجيري، لأن هذه الشخصيات التي احتلت جزءاً لا يستهان به من ذاكرة الطفل لن تقدم لنا فائدة، ولن تجاريَ منهجنا الأكاديمي في وضع بوصلة حديثة داخل ذاكرة الطفل التي ولدت معه. نحن نعتمد في علاجنا مهارةَ اختراق ذهن الطفل والتحكم فيه، ثم نسعى إلى تبديل ذاكرته القديمة بذاكرة جديدة مسلحة بالجمال. الجمالُ وحده في مقدوره أن يستأصل جميع الأورام الخبيثة. كنا في هذا العمل نعالج أنفسنا من خلال علاج الأطفال. لا أخفي أني كنت أمارس نوعاً من أنواع التصالح مع نفسي في كل مرة أقفل فيها باب شقتي وأهبط على عتبات السلم المؤدية إلى باب الخروج مهرولاً إلى عملي في ساعات الصباح الأولى. كنت أستنشق لغة الهواء وأتهجأ أبجديته كميت فتح تابوته بعد أن صحا من موته القصير، أمرُّ بعينيَّ على طلبة المدارس، وعمال النظافة والبناء، على الكلاب التي أشمئز منها، والمشاة وهم يمارسون بعض التمارين الرياضية، ورجال الأعمال، والسكارى العائدين إلى منازلهم بعد أن لفظتهم الحانات والنوادي الليلية، كأعمى أفاق من عماه الطويل، أسمع الأشياء، وأحس بها، أتآلف مع اختلافها وأتفرق في ائتلافها، أترقب شيئاً أجهله، أنطلق منه إلى كنهه، وأمارس حول مجرته المحتشدة بالأسئلة دوراني، أصغي إلى كل صوت مهما كان وقعه خافتاً وبعيداً. كنت في غربتي أخبئ في أعماقي مُجتمَعاً كاملاً، أنا الغريب في مجتمعي الذي ولدت فيه. كل ما عشته بدأ يتجلى أمامي كمسرحية في

ثلاثة فصول، الفصل الواحد فيها مدته عشرة أعوام. الأيام التي وعيت فيها، والأحداث التي تعاقبت على سنواتي كفصول السنة الأربعة. من قال إن الطفل لا يتذكر من حياته شيئاً قبل بلوغه سن الثالثة؟ لقد خدعونا في دراساتهم، إذ لا يحق لهم مهما نهلوا من العلم ومهما توسعوا في اكتشافاتهم العلمية، أن يتدخلوا في طفولتنا وفي ما نتذكره وما لا نتذكره، لأنهم هم الذين وضعوا لذاكرة الإنسان بفضل علومهم المفخخة تاريخ البداية والنهاية، ومن بعد ذلك استُخدمَتْ آدميتنا مثل سلعة تجارية رخيصة، وحين غلّفوا هذه الذاكرة بما توصلت إليه طموحاتهم في التجريب والتخريب، ألصقوا عليها تاريخ انتهاء صلاحيتها، وأدخلوا صاحب الذاكرة/الإنسان في نفق أسْمَوْهُ بعد تنفيذه ألزهايمر.

ونحن لأننا مع الأسف الشديد لا نختلف كثيراً عن فئران تجاربهم، نجحوا هم في إلقاء القبض على عقولنا بامتياز مع مرتبة الشرف. إنه الشرف الذي جاهدنا وقضينا عمرنا نفكر كيف يراق على جوانبه الدم، كي يسلم من الأذى. لقد أراق الإنسان إنسانيته كاملةً في عصرنا هذا مقابل لا شي، بعد نفاد الدم والشرف. لقد قتلَ الإنسانُ الإنسانَ بإرادته، لقد تكالبَ الإنسانُ على الإنسان، وجارَ الإنسان على الإنسان، واستولى الإنسان على الإنسان قبل الاستيلاء على الأرض أو الرقعات الجغرافية التي وصفوها لنا بالأوطان، لقد عذَّبَ الإنسان الإنسان، وسرق الإنسان الرغيف من يد الإنسان، لقد دخل

الإنسان في حرب مع الإنسان قبل الشيطان، ولم يقع كل ذلك إلا لأن الإنسان لم يتصالح مع نفسه كإنسان، ولم يتخذ قراراً صارماً لبناء الجسر الذي يوصله إلى الضفة الأخرى من ذاته. لماذا ينبغي عليَّ أن أصدق كل ما يأتي من خلف المحيط بوصفه علماً؟ لماذا ينبغي لي أن أردد ما قاله كارل ماركس أمام من يسمون أنفسهم بالمثقفين والتنويريين والمناضلين، حتى وإن لم أكن مقتنعاً بفكره أو بفكرهم، لكي أجد مكاني بينهم، ولا مكان لي بينهم في واقع الأمر؟ ولماذا أستبدل لحية ماركس بلحية رجل دين إسلامي لأردد شيئاً من مقولاته وأحكامه أمام شريحة كبيرة من الذين يسمون أنفسهم برجال الدين؟ وأنا الذي لم أؤمن بهذه التسمية إطلاقاً، ولا أرى أن الدين في حاجة إلى رجال يُجَعْجِعُون باسمه، وسبب رفضي هو أن الدين لم يكن في يوم من الأيام لقيطاً عند باب مسجد. إن مسمى «رجل دين» وحده بات يشعرني بالغثيان الكلي، وأصبح كلما حاولت أن أغضَّ عنه الطرف يلاحقني. رفضته كمسمى، لأن الذين رسموا لهذا الرجل صورة موحدة تظهر للمشاهد عبر التلفزيون، واختاروا له طبقة صوتية حادة لا يميزها عن سائر الطبقات الصوتية حين تخرج من حناجر الإذاعات إلا نشازها الذي يفرغ الفزع والجزع والاضطراب والاكتئاب في الروح والبدن، أبدعوا في تخديرنا، وكبلونا بسلاسلهم. هم الذين جندوا رجالاً للدين، وأعطوهم ألقاباً ورتباً لا تختلف في مضمونها السياسي والاجتماعي عن الرتب العسكرية، ثم نشروا فكرَين متناقضين،

بين يمين ويسار، نتج منهما بعد امتزاجهما في الخلاط السياسي، يمين متطرف ويسار متطرف. لم يتركوا للفطرة في نضجها أن تلجأ في الإنسان إلى الدين، كما تلجأ الفطرة ذاتها في بداية نمو الإنسان إلى صدر أمه. بين نموٍّ يصعد نحو نضج يؤدي بصاحبه في نهاية المطاف إلى الهاوية، وعجزٍ يبتكر لنفسه نضجاً لا يتكئ على عقل أو منطق أو قناعة، يسقط الإنسان من شجرة الإنسانية كورقة تحملها الريح إلى قرية مجاورة أو مدينة جديدة لتمارس تحللها الطبيعي إلى مادة أخرى، أو تستسلم للأمطار عندما تجرفها مع الأوراق المتناثرة الأخرى إلى مصارف مجاري المياه لتختفي في باطن الأرض. إذ لا يمكن للورقة مهما حاولت بعد سقوطها التراجيدي أن تحدد لنفسها مساراً أو نجداً، إلا إذا خرجت الشجرة من عبوديتها، وآمنت بأوراقها وأغصانها، وتمردت على الفصول المتربصة بها، والأشواك المحيقة بها من كل جانب. وأنّى لها القيام بذلك، إذا كانت التربة قد وقعت تحت تأثير التقسيم والترسيم والتسميم ولم تفكر يوماً بالتصميم؟ المصيبة هي أن البذور التي غرسوها في هذه التربة لم تُعطَ الفرصة لتنشئ في ما بينها جذوراً، فانقلب الحصاد على الرماد، وأكلت الطيرُ من رؤوس العباد. ومن هنا بدأت مشكلة الجذور، تجذرت أنياب الموت في أوصال الشجرة قبل تجذُّرِ جذورها. قد يحق لنا أن نتساءل ونجيب في الوقت نفسه، أو لا نجيب، لأن الأسئلة العظيمة لا تنتظر إجابات. يكفي أن نقول لماذا. إن المرء تتكشف قيمته

الجوهرية من وراء أسئلته، كما يتكشف الجبل العظيم من وراء السحاب، كأني أحاول أن أضع جملة عريضة بصيغة الأمر، اسأل لأعرف من أنت. لا تجهد نفسك في توجيه سؤال إلي، اسأل عن شيء قد يعني لي شيئاً، وقد لا يعني لي أو لك شيئاً على الإطلاق. ليس مهماً أن تجيب عن السؤال، بل اسأل على السؤال وعنه. لماذا لم نرَ في بلادنا أشجاراً بقيت تربتها محتفظة بها على مدى ألف عام أو خمسة قرون أو أقل من ذلك؟ في بلادنا التي أصبح اقتلاع الإنسان فيها أيسر من اقتلاع الشجر، لن نلوم القدر، ولن نقف طويلاً تحت سماء مرَّ غريباً بها حتى المطر. في بلادنا التي ابتلعت الإنسان، وجَلَدَتْهُ طويلاً قبل عملية بَلْعِهِ بسياط الطائفية، لن نتساءل كثيراً، ولن نقدم أوراق استقالاتنا من انتماءاتنا الفكرية. ويبقى السؤال مفتوحاً، ويستمر البحث عن شجرة عمرها ألف عام، عن شجرة اقتلعت، أو عن شجرة ماتت واقفة، أو عن شجرة صدر قرار نفيها، فهامت تبحث عن نفسها خارج الأرض بعد نفيها وتهجيرها من باطن الأرض.

رأيت من يعملون هنا وهناك، رأيت من أطلقت عليهم الحكومات التي باعت ضميرها وعلقت إنسانيتها للبيع في سوق النخاسة مسمى الوافدين. رأيت الوافدين وعاشرتهم، ثم صادقتهم. نعم، لقد عرفت أصناف الوافدين، فالوافد القادم من أوروبا والولايات المتحدة هو وافد من الدرجة الأولى وله امتيازات لا يحلم بها المواطن العادي الذي يقتات بالفتات.

المبعوثون البريطانيون في الكويت على سبيل المثال، كانوا أهم بكثير من بعض المواطنين في حقبة كانت فيها الكويت تحت القبضة البريطانية. يتدرج سلم الوافدين في بلدي من عامل النظافة، ويصعد إلى العاملين في المقاهي والمطاعم، ثم يصل إلى الإداريين في المؤسسات، والمعلمين في المدارس والجامعات، وينتهي بالسفراء، فالسفراء على رأس هرم الوافدين، أو سلم الوافدين. لقد رأيت بعض الدول اللقيطة تعطي للإنسان صفات أخرى ومسميات لم يرد ذكرها في قواميس الإنسانية، مسميات خالية حتى من الكياسة واللباقة والفطنة، كمقيم بصورة غير قانونية، وهذه الصفة بالتحديد، حملتها فئة مضطهدة كبيرة تشكل تقريباً ربع سكان بلدي، الكويت.

حدثني أحد الأصدقاء المهاجرين إلى أستراليا في مكالمة هاتفية عن معاناته قبل خروجه من الكويت. كان قبل هجرته يعمل معي في الجيش، وكان يظن بعد استشهاد والده وأخيه في حرب الخليج الثانية أن الدولة ستمنحهم الجنسية، وحين خاب أمله وأمل إخوته، هاجر الأول إلى بريطانيا، والثاني إلى السويد، والثالث إلى أميركا، والرابع إلى البرازيل، والخامس إلى اليابان، وهو إلى أستراليا، وبقيت أمهم أم الشهيد «البدون»، وحرم الشهيد «البدون» بدون أبنائها! يا لسخرية القدر، من كان يتصور أن إمارة، أصغر من حجم خنصر القدم

على الخريطة، سوف توزع أبناء أسرة واحدة مضطهدة في منطقة تسمى «تيماء» إلى قارات العالم، ثم تسمع أنين الأم، وتدير ظهرها! كم أنت مرٌّ أيها الوجع، كم أنت مرٌّ، وكم هو سخينٌ دمع أم الشهيدين اللذين قدما دمهما للوطن، مقابل لا شيء!

كان الدكتور ساموئيل بوب يقول دائماً:

ـ أعتقوا الطفل الذي أخرستموه في داخلكم. لن تنجحوا في علاج الطفل إلا في استحضار طفلكم، ولن تنجحوا في علاج كبار السن إلا في استحضار الطفل نفسه، عالجوا أمراضكم بالطفولة، فإنها أصدق مرحلة في حياة الإنسان. والصدق مفتاح العلاج.

كنت حين أجلس في حديقة عمارتنا مع بريجيت وليلى وكريستي التي انضمت إلى جلساتنا المسائية، أعيد سرد محاضرتنا الصباحية وسط إصغاء بريجيت وليلى، واهتمام كريستي الذي بدا واضحاً بي، لا بالمحاضرة. هكذا كنت أمارس طفولتي على أكمل وجه.

لقد هيأت لنفسي عالماً يشبهني. زرعت نبتتين في الشرفة ورعيتهما، نمتا، ونموت معهما، أحسست بالمسؤولية التي وقعت على عاتقي تجاههما، لا من خلال الالتزام بمواعيد الماء في ساعات الصباح الأولى وقبل غروب الشمس فحسب، بل من الناحية النفسية والاجتماعية أيضاً، احتلَّ الاهتمام

بتربيتهما وتقويم سلوكهما كل تفكيري، شغلني وملأ وقتي، حتى بدأت أشعر مع مرور الأيام بالغيرة عليهما كلما دنت العصافير من شرفتي وراحت تداعب فروعهما المتشابكة وتغرد في جذل واضح، يتصاعد غيظي، أنتفض حين أكون مستلقياً على الأريكة في الصالة، أهرع إلى باب الشرفة الزجاجي أفتحه، وأُخرج رأسي كمن عثرت عيناه على سارق، أنظر إلى اليمين بحثاً عن زقزقة عصفور شقي بجوار النبتة اليمنى، ثم أحاول أن أُبعِدَهُ عن ممتلكاتي بتلويحة واحدة من يدي، أدير بعدها رأسي إلى الناحية اليسرى من الشرفة حيث تستقر النبتة الأصغر عمراً من شقيقتها، وبالقرب منها يتكئ عصفور آخر على معطفي المعلق على حبل الغسيل، أستشيط غضباً وأحاول جاهداً أن أحتفظ بهدوئي، فلا أخرج من الشرفة بجسدي لأن الطقس في أغلب الأحيان يكون بارداً، وحده رأسي الذي يبقى يدور حول نفسه، مرة جهة اليمين، وأخرى جهة اليسار، كأني ناظر مدرسة يتربص بالتلاميذ في طابور الصباح. هذا هو عالمي الذي يشبهني حقاً، صنعته كما شاءت تقلباتي المزاجية، ولم أعرف لتلك الغيرة على النبات سبباً في كتب علم النفس التي قرأتها. لو كان سيجموند فرويد يجلس الآن في صالتي على الأريكة الحمراء ويشاهد التلفزيون، أو يبحث عن حساب صديقه فريدرش نيتشه في «البالتوك» أو برامج الدردشة الأخرى من خلال جهاز الكومبيوتر، لوصلتني قهقهته وهو يُحلِّلُ شخصيتي قائلاً:

ـ مشكلتك يا صديقي، أنك تكبت في أعماقك مشكلة جنسية لا تريد أن تُفصح عنها إزائي، وهذه المشكلة قد تؤدي بك في يوم من الأيام إلى الفصام، لتصل في النهاية إلى الجنون.

لن أناقشه طويلاً في تحليله الذي سيتوصل إليه، فهذا شأنه الخاص، ولكنني سأتجرأ قليلاً، وأنتزع من يده السيجار الكوبيّ الثمين، وأمرر له لفافة محشوة بالحشيش المغربي الفاخر من صنف الملك الحسن الثاني، الذي لم تكن تحلم به جدته، وأقول له وأنا أغمز له بطرف عيني اليمنى مُستعيناً بالقاموس المصري:

ـ «ميّة مسا يا معلّم فرويد»!

٤

لم يكنْ جدي يصلّي صلاة الجماعة في المسجد، وكان يردد دائماً:

ـ كيف لي أنْ أُصَلِّيَ مع الجماعة، وأنا أَؤُمُّ جماعةً في داخلي؟!

بوصفي إنساناً، أعرف أن حياتي جرَّة مليئة بالذكريات. جرة لم يكسرها أحد، ولم تتسلل إلى لمسها يد. جرة مدفونة في أغواري السحيقة منذ زمن بعيد جداً. منذ أن كنت لا شيء، كانت الجرَّة معي، وما كنت في يوم من الأيام لا شيء. لأنني حتى وأنا في لاشَيْئِيَّتِيْ، شيءٌ في مرحلة الشيئية، إذن، فاللاشيءُ شيءٌ في حد ذاته، لأنه وجود حيٌّ ومستقل ينتمي إلى نفسه أولاً، ويثور على نفسه ثانياً، وينتفض رافعاً شعاراته ضد نفسه لإصلاح نفسه ثالثاً. وجود كامل وليس عدماً. وللشيئية مراحل، لكنها تختلف عن مراحل نمو الإنسان

وتطوره، فهي لا تنتهي بالشيخوخة كما ينتهي هو إنْ قُدِّرَ له الوصول إلى أرذل العمر، ولا تبدأ باكتشاف فطرتها كما يبدأ هو بعد ولادته مباشرة. الشيئية تخلقُ فطرتَهَا الخاصة، تَهدمُ من قبل أن تَبني، لتَبنيَ ما تريد، أو لتَبنيَ ما لا يُهدمُ بعد اكتمال البناء. أي أنها لا تخضع لفطرة خارجية كُتبتْ لها، ولا تستسلم لسلطة مهما بلغت سطوتها. وفي غموضِها هذا، وضوحٌ لمن يتأمل تكوينَهَا، ويُكمل تلوينَها، ثم يحسن تَدوينَها. لقد دوَّنتُ في دفاتر كثيرة أحرقتها قبل خروجي من الكويت يومياتي، إذ كنت أسجِّلُ كُلَّ مساء قبل النوم، كلَّ ما كان يمرُّ بي من مشاهد خلال اليوم، فلم أكن أُنقِّح ما كنت أسجله على الورق، وأنا في غمرة القلق. كما أنني لم أشطب شيئاً من البوح الذي سهرت على كتابته رَدَحاً من الزمن في ساعات الأرق. إنَّ في الحذف الخارجي تزويراً لما في الباطن، وأنا لا أستحسن ولا أحبذ خداع نفسي. لماذا إذن ينبغي عليَّ أن أشطب؟ ولماذا أعيد صياغة كلامي المكتوب، ما دمت لا أسمح لقارئ غيري مهما كان عزيزاً ومقرباً من روحي وذائقتي بقراءة ما في اليوميات؟ أعلم بأنّ الحمل ثقيل، كما أعلم بأنَّ للجرَّةِ التي عشت محتفظاً بها طيلة هذه الأعوام فَصْلاً يشبه فصل الخريف، فَصلاً يُسقط الأشياءَ كُلَّها، والأسماءَ كُلَّها، والحنينَ كُلَّهُ، والسهرَ كُلَّهُ، والجنونَ كُلَّهُ، والشَّكَّ كُلَّه. لقد آن للجرَّة أن تُخرج ما في جوفها من قصص وأساطير، من نور ودياجير، آنَ لها أن تُعليَ الهامشَ في فضاء المتن، وأن تستغنيَ بما لديها من

كشف ورؤى، عن المراجع والتفاسير. كتبت في مراهقتي، وأذكر أن ما كتبته في ذلك المساء الذي ارتفعت فيه نسبة الرطوبة، قد أملاه عليّ عقلي وقلبي في لحظة صفاء بينهما، بعد مشاهدة فيلم وثائقي عن الحرب العراقية الإيرانية، فجاءت هذه الجملة:

«ليت الأرض تدور، وتدور، وتدور، حتى يُسقِطَها دورانُها».

ولم أكمل، لأنني حين وضعت النقطة بعد انتهائي من كتابة الجملة في آخر السطر، تبين لي أن المعنى سيأتي بعد النقطة. ولن يكون للمعنى أيُّ معنى إذا أردت أن أسرف في وصفه واستنطاقه في السطر الثاني. المعاني الكبيرة لا تُدَوَّنُ بل تُروى، لتُرويَ الأجيال من معينها. لقد أردت أن أحتال على قارئيَ الافتراضيِّ حين وضعت تلك النقطة ولم أكتب بعدها ما كان يتعارك في قلمي. أردت أن أختبر صبره وخسائره، قهره ومشاعره، أن أرهقَهُ قليلاً، وأعذِّبَهُ كثيراً. فإن تمكنت من القبض عليه متلبساً بالخيال، انقضضتُ عليه واستدرجته وأدخلته في متاهاتي. لقد أردت أن أراوغه مراوغة لاعبي كرة القدم، أن أمنح ذهني على سبيل المثال قدمين جبارتين كقدمي مارادونا، أترك القارئ يتبعني من وسط الملعب حتى نهايته، وأسمح له بأن يشنّ عليّ جفافه وغيومه، دفاعه وهجومه، لئلا أسجل هدفي في مرمى خياله. وأسجل الهدف في النهاية، وأرفع الكأس، ثم أضع الكأس بين يدي قارئي، وأقول له: شكراً.

في اليوم الثالث من عزاء جدي، كنت أجلس بجوار طلال الراهي ابن عمتي أمينة الذي يكبرني بأربعة أعوام. وطلال عسكري في الجيش برتبة رقيب أول، ويعمل في القوة البحرية. طرح عليّ ونحن في مجلس العزاء فكرة الالتحاق بالجيش، محاولاً إغرائي بإيجابيات العمل كعسكري:

ـ إنها فرصة لا تعوض أبداً يا عارف. راتب شهري كبير، ومكافآت مالية لن تجدها في الوظائف الأخرى، بالإضافة إلى الترقيات المنتظمة، فأنت حين تشدُّ الخيط الأول ليتمَّ توظيفك برتبة وكيل عريف في هذا العام، ستصبح عريفاً بعد ثلاثة أعوام، ثم رقيباً، وتترقى إلى رقيب أول وهكذا دَوالَيك. هل هناك أجمل من هذا العرض الذي أقدمه لك الآن؟ فكّرْ في الأمر جيداً قبل أن تتسرع في رفضك، ألا تريد أن ترافقني إلى روسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا في الصيف المقبل؟

تملكتني رغبة عنيفة احتدمت كالأتون في صفعه وأنا أنظر إلى سحنته الفارغة من كل المعاني الإنسانية، في أثناء استرساله في الحديث عن جمال الروسيات والبولنديات والتشيكيات وحرارتهن في الحب، وعن أساليبهن الإباحية في الفراش، لكني كتمت انفعالي، وحبست جاهداً الدموع التي كانت تجري في أعماقي حزناً على فقدان جدي. أتذكر تماماً كيف نهضت من مكاني وخرجت حينها من مجلس العزاء، وطلبت من أحد أقربائنا المعزين وكان يقف بمفرده قرب باب بيتنا الخارجي

المطل على الحديقة وهو يدخن، أن يناولني سيجارة من علبة تبغه التي لمحت لونها الأحمر في جيب دشداشته البيضاء، كانت تلك السيجارة الأولى التي أدخنها في حياتي، مارلبورو أحمر. لم أدخن ولم أكتشف التدخين كما يكتشفه المبتدئون عادة بنفخ الدخان، ومحاولة كتمه بعد ذلك أو شفطه، ومن ثَمَّ السعال، بل كنت أتنفسه وأمجُّه مجًّاً كأني مدخن عريق محترف. تركت عينيَّ تعزيان بالدمع والنظرات الصامتة تلك النخلة الواقفة، النخلة التي زرعها جدي ورعاها في يوم ميلادي. لم أكن أشك في أنها مصابة بالحزن مثلي على جدي، إن سعفها راكد لا يحركه الهواء الخفيف، وإن تحرك على حين غرة فإن حركته هادئة وبطيئة لا تُرى ولا تُحس، كأن النخلة شلت بغتة، أكاد أرى صفرة غريبة تتمدد على أطراف سعفها، صفرة تشبه الصدأ، شملتني التساؤلات، هل تصدأ الأشجار كما تصدأ المعادن؟ إن كان قد مات جدي فلا أريد لهذه النخلة أن تموت. تمنيت ساعتها وأنا أستند إلى السور متفحصاً سيكولوجية النخلة أن أقتلعها من تربتها وأغرسها في جسدي بدلاً من أن أتركها وحيدة في الحديقة، وإذا كانت أمنيتي ضرباً من ضروب المحال، فليتها تقتلعني هي بنفسها وتغرسني فيها، تصهرني في جذعها وصلابتها، تطحنني في طلعها وكربها، حتى إذا آتت أُكُلَها أسرعتُ أتسلقها لأحصدَ عمري منها. لم يكن ميراث جدي المالي كبيراً مقارنة بغيره من أفراد عائلتنا، إذ لم يكن ميراثه المالي كميراثه المعنوي الذي

كان لعمتي بسمة ولي منه النصيب الأكبر بعد استحواذي عليه، وانفرادي به، ولا سيما أن عمتي بسمة كانت تعيش أيامها الأخيرة، فقد توفيت بعد وفاة جدي بعشرة شهور فقط. تم توزيع الميراث بعد مرور أسبوع على وفاته بسهولة ويسر، فلم تكن العائلة في حاجة إلى الرجوع إلى محامٍ أو مستشار قانوني لحل وتسوية المسألة. وربما كان هذا هو السبب الذي دفعني إلى الاتصال بابن عمتي طلال، لأخبره بنيتي في الالتحاق بالدورة القادمة في الجيش. شئت أم أبيت، ضحكت أم بكيت، دنوت أم نأيت، لا بد لي من أن أستوعب الدرس الذي أنا فيه، لا بد لي من إيجاد عمل يجعلني أثق بنفسي وقدرتي على مواجهة الحياة التي بدأت تكشِّر عن أنيابها، وتبتلع المحيطين بي، الواحد تلو الآخر. لقد آن لي أن أختار الآن، وفي أقرب وقت ممكن، لأنني لم أعد صغيراً بعد اليوم، وأشهد أني ما كنت صغيراً حتى في طفولتي، أجل إنه وقت الاختيار، وها أنذا أختار. أختار لأن القادم مجهول بالنسبة إليّ، ولأن المجهول يفزع الإنسان الذي يعيش وحيداً مثلي. حدثت الترتيبات بعدها ببضعة أشهر والتحقت بدفعة يناير ١٩٨٩ . وكانت عمتي بسمة ترقد في جناح عمومي في مستشفى الصباح بعد تدهور حالتها الصحية وانتشار السرطان في دمها. كنت أخرج في الإجازة الأسبوعية من دورتي في الجيش وأقضي يومي الخميس والجمعة بجوارها في المستشفى، أمسك يديها وأقبلهما بحرارة، ثم أُمَرِّرُ يَدَيَّ على

رأسها ووجنتيها الشاحبتين، وأنا أرتل سورة يس التي تحبها وبعض السور القصار التي أحفظها، كنت أراها تبكي وهي تصغي إليَّ وأنا أقرأ الآيات الأخيرة من سورة يس، ولا سيما عند تلاوة هاتين الآيتين: (أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. . . وضرب لنا مثلاً ونسيَ خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم) فأمسح دموعها، وأعدل وضعية وسادتها، وأرفع السرير قليلاً لأتمكن من احتضان جسدها المهزول الذي أضناه المرض فأصبح كالخرقة البالية، وكأن عظامها في طريقها للتحول إلى رميم، ثم أغمس طرف منديل ورقي في قدح الماء وأنعش به وجهها. ولكن، ماذا أفعل إزاء هذه الأنبوبة المطاطية المزعجة المغروسة في أنفها للتغذية؟ لم تكن عمتي بسمة تتكلم لأن جلطتها الرابعة أفقدتها النطق، وشَلَّت نصفَها الأيمن. ولا أعلم إن كانت تتألم أم أنها تجتهد في كتم أنينها لئلا تمزق قلبي. كنت أرى في عينيها خوفها عليَّ، وكنت في الوقت نفسه أراوغ وأحاول أن أطمئنها على مستقبلي، وأرجوها أن تنهض وتعود معي إلى البيت الذي بات موحشاً ومقفراً بعد غيابها عنه وعني. عانيت كثيراً في الأيام القاسية التي عشـتها مع بقية زملاء الدفعة في المعسكر وخامرني خوفان: خوف على حياة عمتي، وخوف من قادم أجهله. كنت أُحَدِّثُ نفسي وأنا أستلقي على سريري الحديدي في العنبر رقم ٢ بعد انتهائنا من التمارين الرياضية والعسكرية، والتدريبات على حمل السلاح، والركض في الميدان، وتنظيف

دورات المياه، والإهانات والشتائم التي كنا نتلقاها من المدرب المسؤول عن تدريبنا صاحب العقد النفسية التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ومن ضابط الدفعة المصاب بجنون العظمة، ذاك الذي كان يردد يومياً جملته الشهيرة في استعدادنا الصباحي:

ـ إن كنتم تتحدثون عن الكرامة، فلا كرامة هنا، ينبغي على كلّ من يفكر في الانضمام إلى الجيش، أن يُلقي كرامته في حاوية القمامة الخارجية قبل دخوله إلى المعسكر. أتعرفون الحاوية الزرقاء هناك؟ أعني تلك القريبة من البوابة الرئيسة، لقد وضعناها خارج المبنى لكي يرمي كل واحد منكم كرامته فيها. إنَّ التطور الهائل الذي نعيشه في عصرنا هذا بات يُحَوِّلُ القمامة ويعيد تدويرها إلى نوع جيد من أنواع السِّماد. ألا تريدون أن تتبرعوا بكرامتكم لتطوير نوعية السِّماد المحلي وزيادة إنتاجه؟!

قاطعته وأنا في الصف الخلفي الثاني من وراء الزملاء الواقفين في الصف الأمامي قائلاً:

ـ لقد صدق المسيح حين قال: «لا كرامةَ لنبيٍّ في وطنه»!

تسمَّرَ في مكانه فجأة، والتفت ناحية اليمين حيث كنا نقف وقفة الاستعداد بعد برهة قصيرة، كأنه أرادني أن أكمل كلامي من دون أن يقاطعني، ليتلذذ هو بعد ذلك بالقبض على المجرم في نظره، الذي هو أنا. وواصل نهيقه:

ـ أين الحمار الذي ظن أنه آدميّ ليخاطبني أنا... أنا النقيب

مساعد الزميني بهذا الأسلوب الوقح؟ أخبروني، تكلموا، من منكم دعت عليه أمه اليوم بالويل والثُّبور؟

تقدم إلى أحد الواقفين في الصف الأمامي وشده من سترته:

ـ أنت؟

ارتجف الأول بين يديه وهو يغمغم خائفاً:

ـ لست أنا سيدي.

صفع الثاني على رقبته بظاهر يده اليسرى:

ـ أنت؟

أجابه وهو ينظر إلى الأسفل:

ـ لم أقل شيئاً، سيدي.

سأل الثالث وهو ينظر إلى الصف الخلفي:

ـ لا بد أنه أنت، أليس كذلك؟

أسرع يقول:

ـ أقسم بالله العظيم سيدي أني لم أنطق بحرف.

ثم مشى بضع خطوات ليواجه الشخص الواقف إزائي وهو ينظر إليّ:

ـ ألست أنت؟

غَمغم قائلاً:

ـ كلا سيدي لست أنا.

أردف يقول وهو يوجه نظراته إليَّ كأنه يسألني:

ـ هل أنت متأكد؟

قال بنفس النبرة:

ـ متأكد سيدي.

ولما انتهى من استجواب الصف الأمامي المكون من عشرة أشخاص، انتقل إلى الصف الخلفي وشرع ينبح ويكيل لنا الشتائم والألفاظ النابية. الحدث الأهم في ذلك اليوم، هو أن زملاء الدفعة لم يشيروا إليَّ ولم يقولوا شيئاً، بل ظلوا صامتين، وكأنَّ ما قلته كان تعبيراً صادقاً عن مشاعرهم وعمّا يختلج في صدورهم. أهملني الضابط لأنه كان يعرف منذ البداية أنني أنا الذي قاطعته، لكنه فضَّلَ أن يتجاهلني بأسلوبه الذكي، لكي يتدرج في تعذيبي نفسياً. أدركت أن الجيش وكرٌ لممارسة العبودية، وأن الوطن الذي أقسمنا أن نفتديَهُ بأرواحنا قد تحول إلى مرض جرثومي معدٍ. لقد اشتد حنق الضابط حين تفوهت بمقولة المسيح المأثورة، وراح يشزرني ويصبُّ نظراته عليَّ مبتدئاً برأسي حتى حذائي الذي كنت أتمنى في تلك الآونة أن أخلعه وأهشِّم بكعبه الصلب جمجمته. وقف إزائي مشمئزاً متقززاً من تعليقي على كلامه، والغضب يتطاير من عينيه

الناتئتين الجاحظتين اللتين كانتا تكشفان كل قذارته الداخلية وقال:

ـ ماذا قال المسيح؟

أعدت المقولة «لا كرامة لنبيّ في وطنه»، وأنا أهزُّ رأسي عند كلمة نبي.

ضحك بصوت مرتفع واسترسل يقول:

ـ عجيب، وماذا تقول أنت؟ أم أنت تردد مقولات الآخرين فقط؟

أجبته وأنا أنظر مبتسماً نصف ابتسامة إلى نجوم رتبته على كتفيه:

ـ لم يكن انضمامنا إلى الجيش، وأنا هنا أتحدث عن نفسي...

قاطعني وهو يقول بسخرية:

ـ أحسنت يا بطل، حدثني عن نفسك، ليس هناك أجمل من أن يتحدث المرء عن نفسه، هيا حدثني عن نفسك وعن فلسفتك، أريد أن أنهل من معين علمك.

تنهدت ثم قلت:

ـ إن العبودية التي يمارسها ويطبقها بعض الضباط المرضى على الجنود الجدد في الجيش، لن تقدم شيئاً لهذا الوطن، لأنها

سوف تصنع وطناً هشاً في مستقبل الأيام، وطناً مختَرَقاً من الداخل لا من الخارج، وإذا استمر هذا الأمر طويلاً، فسنكون في حاجة ماسة إلى التغيير والإصلاح ومواجهة الظلم والاستبداد من خلال تأسيس جيش قوي، جيش يدافع عن المواطن المدني الحر بعقلية حرة. كيف سنحمي الوطن وكرامة المواطنين إن كنا غير قادرين على الدفاع عن كرامتنا كعاملين في معسكر الجيش؟

التفت الضابط إلى الزملاء وقال:

ـ هل تؤيدون كلامه؟

لم ينبس أحد منهم ببنت شفة، فصرخ حتى ملأ صدى صوته الميدان:

ـ أجيبوني، هل تؤيدون كلام هذا الحمار؟

حرك الواقف عن يميني رأسه رافضاً ما قلته، وكذلك فعل الثاني والثالث والرابع، ودار الضابط بين الصفين وهو يوجه إلى الزملاء السؤال نفسه. بالطبع، لم يؤيد كلامي أحد منهم. ثم جلس على كرسيه تحت الشمسية وناداني، وحين وقفت إزاءه أمرني بممارسة تمرين الضغط خمسين مرة على أسفلت الميدان، بشرط أن أكور قبضتي، بحيث يكون ظاهر أصابعي على نتوءات الأسفلت الموجعة. مارست التمرين وهو يعدُّ ويخطئ في العدِّ ويكركر بصوت عالٍ وقبيح كأنه يشاهد

مسرحية كوميدية. وعندما توقفت عن أداء التمرين للمرة الأخيرة، بدا الدم واضحاً على ظاهر أصابع يديّ. تمَّ بعدها تنفيذ قرار الضابط بسجني عسكرياً، ومنعي من الخروج في الإجازات طيلة الشهر الأخير من الدورة التدريبية لأعرف أن الله حق، على حد تعبيره. كنت أقضي يومي الخميس والجمعة في زنزانة انفرادية مظلمة، ويطلق على الزنزانة الانفرادية في الجيش والسجن المركزي في الكويت اسم «الصاجة». لم يكن في تلك الصاجة التي قضيت فيها ثمانية أيام متقطعة من عمري سوى شباك مربع صغير في أعلاها يطل على ميدان التدريب، وحمام عربي، ومغسلة، وفراش أرضي يشبه الحصير. أما بالنسبة إلى الجنديين المسؤولين عن مراقبتي فلم يسمحا لي بالخروج من الصاجة إطلاقاً. كنت أنتظر شروق شمس يوم السبت، كاللاهث من شدة العطش في الصحراء، أنتظر الجندي الذي يفتح باب الصاجة الحديدي لأعود إلى العنبر أو الميدان، إلى مكان أرى فيه سماء الله التي حجبوها عني كما أريد. أخبرني في ليلة من الليالي طارق العياف زميلي في الدفعة أنه قصَّ على عمه هشام العياف العقيد في الجيش ما دار بيني وبين النقيب مساعد الزميني في ذلك اليوم وطلب منه أن يساعدني ويطلق سراحي في الإجازة، لكنه لم يفعل شيئاً. كنت أغمض عينيّ وأتظاهر بالنوم حين أكون مع بقية الزملاء في العنبر، أسرح في تساؤلاتي، وأفكر في عمتي الراقدة في المستشفى بين الحياة والموت، ما الذي سأفقده في الأيام الآتية؟ وما الذي لم أفقده

بعد؟ لقد فقدت جدي وها أنا أمشي في نفق مظلم وضيق يؤدي إلى فقدان عمتي، ومن قبلهما فقدت أمي وأبي. من لي في هذه الدنيا بعدك يا عمتي؟ لقد مرَّ الشهر الأول، ومرَّ بعده الثاني والثالث، وها هو الشهر الرابع يمشي الهوينى على استحياء فلا يكاد يمر، كأنه يكرر نفسه، أو كأنه عام كامل تلخص في هيئة شهر، الأيام متشابهة هنا، والله عز وجل يداولها بين الناس.

جاء يوم التخرج، وجاءت معه الحرية، وهلَّت مع الحرية المصائب، ونضج على نار المصائب قلبي. لم يكن أحد في انتظاري حين خرجت من بوابة المبنى، فما كان من طارق حينها إلا أن يطلب من أخيه عماد الذي كان في استقباله أن يوصلاني إلى بيتي في طريقهما إلى بيتهما. رحب عماد بالفكرة، وقبل أن أتخذ مكاني في مقعد سيارته الخلفي، استأذنته أن يوصلني إلى مستشفى الصباح القريب من معسكر الجيش، ويمضي هو مع أخيه إلى بيتهما. وعندما وصلنا، شكرتهما بعدما أنزلاني عند باب المستشفى الرئيسي، ثم توجهت مسرعاً إلى الجناح العمومي في الطابق الثاني مستخدماً السلالم في الصعود بدلاً من المصاعد الممتلئة بالبشر. ركضت في ممر الجناح في اتجاه الغرفة الرابعة التي ترقد فيها عمتي، وحين سحبت ستارة السرير الأول، فوجئت بامرأة لا أعرفها ترقد على سرير عمتي، تبدو كأنها في غيبوبة. أغلقت الستارة، وخمّنتُ أنها ربما نُقلت إلى غرفة خاصة. سرت بخطى بطيئة

إلى منتصف الجناح وسألت الممرضة الجالسة خلف مكتب استعلامات الجناح إن كانت تعرف رقم الغرفة التي نقلت إليها عمتي. سألتني:

ـ ما اسمها؟

قلت وأنا أقرأ أسماء النساء المكتوبة على اللوحة المعلقة على الجدار:

ـ بسمة عارف محمد آل عارف.

ثم أردفتُ قائلاً:

ـ كانت ترقد في الغرفة رقم ٤.

أخرجت الممرضة من درج المكتب كشفاً يتكون من مجموعة من الأوراق، وراحت تقرأ الأسماء بسبابتها وهي تتصفح الأوراق ثم قالت:

ـ بسمة عارف محمد آل عارف. وجدتها. إنها كما أسلفت قبل قليل ترقد في الغرفة رقم ٤.

ـ لكني لم أجدها!

ـ من المحتمل أنها في غرفة الأشعة.

ثم استدركت قائلة:

ـ أمهلني دقيقة من فضلك، سأجري اتصالاً سريعاً بإدارة المستشفى لأتأكد إن كانت قد نقلت إلى غرفة خاصة، أم لا تزال هنا.

انتظرتها ريثما تجري الاتصال بالإدارة. وعندما أعطت الموظف اسم عمتي الكامل، كتبت على ورقة صغيرة بعد أن جاءها الجواب من الطرف الآخر على الخط بعض الأرقام، ظننت أنها سجلت رقم الطابق ورقم الجناح ورقم الغرفة، ووضعت سماعة الهاتف، ثم قالت وهي تخفض رأسها:

ـ عظم الله لك الأجر، لقد توفيت قبل أربعة أسابيع تقريباً.

ونظرتْ إلى الورقة، لتقرأ ما سجلته:

ـ في الرابع من مارس.

في طريق عودتي إلى البيت كنت مشتاقاً إلى نخلتنا، فهي التي ستحتويني وتنجيني من الغمِّ المتربص بي، وحدها التي بقيت بعد رحيل من رحلوا. ركبت الحافلة التي انطلقت من المحطة القريبة من المستشفى، ووصلت البيت بعد خمس وأربعين دقيقة، وكانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف بعد العصر، لكني حين دخلت الحديقة لم أجد النخلة، خُيِّلَ إليَّ حينها أن البيت الذي جئته ملهوفاً وظامئاً بعد شهر طويل من العذاب في معسكر الجيش إلى دفئه الوارف ليس بيتي، وأن الحديقة التي أقف فيها غريبة وموحشة، كأني لم أرتع ولم ألعب ولم أقضِ سنوات طفولتي وشبابي في هذا المكان. صرخت، وذرفت من الدموع ما يكفي لولادة نهر. كانت عمتي أمينة أم طلال تقيم في تلك الأثناء في بيت العائلة بعد أن خلا من جدي وعمتي بسمة، وما كنت أعلم بوجودها إلا بعدما فتحت الباب

واستقبلتني عندما كنت واقفاً على أطلال ذكرياتي في الحديقة. احتضنتني وشاركتني البكاء وهي تربت على ظهري وتقول:

ـ الحمد لله على سلامتك يا عارف، ومبارك تخرجك. لقد حاول طلال أن يخرجك من سجنك العسكري، لكنهم أخبروه بصعوبة تحقيق مطلبه، ورفضوا الإفراج عنك حتى بعد تقديم شهادة وفاة المرحومة عمتك بسمة. قال لي إنه سيحضر حفل تخرجكم، ويأتي بك إلى هنا، ولكن يبدو أنه وصل إليك متأخراً فلم يجدك.

لم أكن مهتماً بما قالته عمتي أمينة وهي تكفكف دموعي وتبذل جهدها في مواساتي، قاطعتها قائلاً بصوت مخنوق:

ـ من منكم اقتلع النخلة يا عمتي؟

اضطربت وهي تقول:

ـ لقد اشتراها تاجر نخيل من الأحساء.

قلت والغضب يعصف بي:

ـ من الذي أعطاكم الحق في بيع ما ليس لكم؟

أجابت وهي تمسح دموعي، وأنا أبعد عن وجهي يديها اللتين كنت أشعر بعدم انتمائي إليهما:

ـ النخلة جزء من ميراث جدك رحمة الله عليه يا عارف، ونصيبك منها في الحفظ والصون، تعال معي لنكمل حديثنا داخل المنزل.

تلبستني نوبة هذيان وأنا أسألها:

ـ وهل تظنين أن المال سيعوضني عنها؟ تباً لكم ولأطماعكم!

هبت في وجهي قائلة:

ـ لا يصح أبداً أن تخاطبني بهذا الأسلوب، لا تنسَ أني عمتك. لقد قلت لك إن نصيبك منها محفوظ. ما الذي تريده الآن؟

تدفق هذياني:

ـ نصيبي منها هو وجودها في حديقة البيت، نصيبي منها أن أجلس تحت ظلال سعفها، وأمرح في كنفها وأجني تمرها ورطبها. نصيبي منها أن أبثها شكواي التي لن أجد بعد اقتلاعها وبعد رحيل جدي وعمتي من أبثه ما بي. لقد زرعها جدي في يوم مولدي وأوصاني بأن أعتنيَ بها بعد أن ينتقل هو إلى الحياة الأخرى، وها أنتم تبيعونها من دون وجه حق لرجل غريب. ما الذي دفعكم وجعلكم تقتلعونها من جذورها بمنتهى السهولة؟ إنكم بفعلتكم هذه لم تمزقوا قلبي فحسب، بل فرقتم شمل العصافير التي اتخذت من سعف النخلة موئلاً لها. ألم تفكروا في كل هذا، أم أعمت عيونكم دنانير ذلك الرجل الغريب؟

كررت عمتي أمينة موالها السابق:

ـ جدك يا عارف هو أبي. وأنا المسؤولة الوحيدة بعد وفاة عمتك بسمة عن التصرف بهذا الميراث، لا شيء يستدعي كل

هذا الغضب، لقد بعت النخلة ولم أبع البيت، ما خطبك؟!

قلت واليأس يبري أعصابي:

ـ وما قيمة البيت إن لم تكن في حديقته النخلة التي كبرت معي وكبرت بجوارها؟

ابتسمتْ ابتسامةً صفراء وهي تعلق:

ـ أراك تسرف في المبالغة كثيراً.

وحده الألم المخبوء تحت لساني تكلم قائلاً:

ـ أنتِ لست عمتي بعد اليوم!

قالت:

ـ من أين أتيت بهذه القسوة يا عارف؟

أجبتها بجرأة:

ـ قد أكون ورثتها منك!

هوت كفُّها على وجهي، ثم أدارت ظهرها في انفعال واضح واتجهت إلى المنزل. رفع المؤذن الشيخ حمزة أذان المغرب في اللحظة التي انصرفت فيها عمتي من الحديقة. شعرت بتكبيرة الأذان تهمي كالقطر ثم كالغيث تنهمر، أحسستها تأتي في الوقت المناسب لترفعني وتظللني بالرحمة، وما وجدت إلى تفسير ذلك الشعور سبيلاً. بدأ إحساسي بالصوت يكبر،

وأصبحت أراه بعد سماعه حين أمعن في تخيله وتحليله. كل الأصوات التي صرت أسمعها في ما بعد باتت تأخذ أشكالاً مرئية بعد وصولها إليّ، كأنّ أذنيّ كانتا تقومان بهضم الصوت وتحويله إلى صيغة مرئية. استرسل المؤذن في ألفاظ الأذان، وللمرة الأولى وجدت نفسي وأنا في الحديقة الخاوية على عروشها بعد اقتلاع النخلة، أعرب عبارة (الله أكبر) إعراباً لغوياً، فأقول: إن لفظ الجلالة، مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، وأكبر، خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة. ثم يخطر في بالي وأنا أردد بيت بشار بن برد: «يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة / والأذن تعشق قبل العين أحيانا»، أن أعرب الأذان إعراباً نفسياً لأراه بعينيّ، أو بعبارة أخرى لكي أتمكن من رؤية شكل عبارة (الله أكبر)، والسؤال الذي كان يراودني دائماً هو: هل سأرى الله؟ لقد عانيت وكابدت في سبيل ذلك من المشقة والصعوبة والترحال كثيراً. فلم أخنع ولم أذعن لظروف حياتي الاجتماعية التي كانت من الضيق بحيث جعلتني أعتزل الأهل والأصدقاء. قررت أن أكمل دراستي المسائية لنيل الشهادة الثانوية ونجحت في قراري. فلم أشعر بالفراغ في العامين ١٩٨٩ و ١٩٩٠، لأنني كنت أعمل في الصباح حتى الظهر، وأدرس في المساء، إلى أن جاء اليوم الذي اجتزت فيه الاختبارات النهائية ونلت الشهادة الثانوية بمعدل ٨٨٪. فقمت بعدها بتقديم شهادتي إلى الإدارة لألتحق بدورة الضباط التي كان من المفترض أن تبدأ في منتصف شهر

سبتمبر سنة ١٩٩٠، لكن الثاني من أغسطس في السنة نفسها قلب جميع الموازين، وجَمَّدَني برتبة وكيل عريف إلى أجل غير مسمى. ولأنني لم أتمكن من الدفاع عن وطني كفرد من أفراد الجيش إلا بعد صدور الأوامر من القيادة العليا، قمت بتقديم استقالتي في شهر أكتوبر، أي بعد مرور شهرين على أحداث المسلسل الأميركي ـ العراقي، وتم رفضها حتى بعد التنازل عن مستحقاتي القليلة، بحجة أن البلد يمر بأزمة، وأن تقديم الاستقالة في مثل هذه الأوضاع السياسية المضطربة يعد خيانة كبرى. صبرت شهرين، ثم أعدت تقديمها للمرة الثانية في شهر ديسمبر، ورُفِضَت. ولئلا يلومني أحد على سكوتي، فكرت أن أكتب مقالة أحلِّل فيها وضع البلد من وجهة نظري، وأشرح فيها ما حدث وما سوف يحدث في المستقبل. ما زلت أذكر كيف اخترت لمقالتي عنوانها قبل كتابة سطورها الأولى. «الغزو الأميركي الغاشم». كان هذا هو العنوان. وقد كتبتها في ليلة الميلاد، في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٩٠. قلت فيها:

«بارد هو الذعر، وبارد هو الإعلام الحكومي، وباردة هي اليد التي تمتد إليك في ظلام الحصار لتحجب عن عينيك النور، وتمنعك من استنشاق هواء الحرية والدفاع عن وطنك المعلق في ساحة القتال كمن ينتظر لحظة الإعدام. أيها المواطن الشريف، باردة هي الدروب التي تقطعها وحيداً، حتى وإن كانت الشمس تشعل بحرارتها الأديم من تحت قدميك. قيل لنا

قبل أربعة أشهر إننا نعيش غزواً عراقياً غاشماً، ونحن لا نزال نسأل عن السبب الذي جعل الجيش متذبذباً في إصدار الأوامر المتعلقة بالدفاع عن تراب هذا الوطن. فما الفائدة من تحريك بعض قيادات الجيش في الحدود الشمالية وتصوير الدبابات والطائرات الحربية المقاتلة من دون جدوى بعد سيطرة الجيش العراقي الكاملة على الكويت منذ الثاني من أغسطس، وتشتيت القيادات الأخرى، وحبس الأفراد المجندين في الإدارات المختلفة لاحتساء الشاي وتدخين السجائر وقراءة منشورات المقاومة؟ إننا حتى هذه اللحظة لم نقرأ بياناً واحداً ينادي بوحدة الصف، ولم نرَ خطة مدروسة لتشكيل اتحاد وطني عسكري يجمع تحت مظلته القوى الثلاث، البرية والبحرية والجوية لتأمين أمن وسلامة المواطن قبل الأرض. فكأن الذين أمرونا بتخدير أسلحتنا أرادونا أن نتأقلم وننسى الدماء التي سفكت. نحن كأفراد في الجيش لا نعلم إلى متى سيستمر هذا الوضع المسمى بالغزو، وإلى متى سنبقى نعيش هذا التأقلم الذي فرض علينا بالإكراه، وإن لم نكن نعلم ونحن في الجيش، فأنّى للمواطن البسيط المقاوم أن يعلم وهو المختبئ في قبو منزله؟ وهل سيتحول الغزو الأميركي ـ الذي اتخذ من العراق غطاءً له ـ بعد انتهائه من خلال فرض العقوبات الاقتصادية على العراق إلى حصار سياسي واقتصادي واجتماعي يستهدف العراق بصفته البلد الذي قام بتنفيذ المشروع الأميركي؟ يتحدثون هنا عن إمكانية تدخل قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأميركية

لفضّ الاشتباكات بين الطرفين وتحرير البلاد، ويرفضون في الوقت نفسه تدخل الجيش الكويتي لتسوية الأمور وتصفية الحسابات بين بلدين عربيين. فمن الذي يُصدر الأوامر بعد غياب السلطة، ومن الذي يتلقاها؟ الأمر الغريب هو أن تكون على خط النار، ولا يُسمح لك بحمل السلاح! التاريخ ليس غبياً ليعيد أحداثه كما يظن البعض، إنه يطور أدواته ليصل إلى الغاية. وفي حالتنا السياسية نقول إن الأداة الجديدة التي لا نعرف عنها شيئاً هي الوسيلة، والغاية هي الكويت، والكويت هي النفط. قبل نصف قرن من الزمان، أسس الملك غازي بن فيصل الأول في قصر الزهور الذي شيده والده إذاعة خاصة به لنشر أيديولوجيته الفكرية، وراح ينادي عبر أثير تلك الإذاعة بتحرير الكويت من بريطانيا، لكنه تُوفي قبل أن يسعى إلى تنفيذ ما كان يطمح إليه وكانت وفاته غامضة كوفاة أبيه الملك فيصل الأول في العاصمة السويسرية بيرن. قامت بريطانيا بعد وفاة الملكين الأب والابن بتجديد فكرها الاغتيالي من خلال القتل من الداخل لا من الخارج، أي أن تشرف هي بنفسها على الجريمة ثم تسدل الستار عليها، كما حدث في ثورة ١٤ تموز عندما تم التخلص من الملك فيصل الثاني وخاله عبد الإله ـ الذي لم يشفع له ميله السياسي إلى بريطانيا ـ وبقية أفراد الأسرة المالكة. وتم اتهام الشيوعيين كالعادة بتدبيرها وارتكابها!».

تدرجت في المقالة محللاً الأوضاع السياسية بين العراق والكويت، وصولاً إلى صدام حسين. كما تحدثت أيضاً عن

سيناريوهات الغرب التوسعية في مطلع القرن العشرين، وفي منتصفه، وفي نهايته.

كما ذكرت في المقالة أيضاً، ما حدث معي شخصياً في سنة ١٩٩٠، في اليوم السادس من شهر أغسطس، أي في اليوم الخامس، أو في الحلقة الخامسة من المسلسل الأميركي الذي استمر سبعة أشهر، المسلسل الذي سمّاه الجمهور الكويتي «الغزو العراقي الغاشم» وأطلقت عليه الجماهير العربية في الصحف ووسائل الإعلام المتنوعة اسم «حرب الخليج الثانية» وسمّته الولايات المتحدة الأميركية عاصفة الصحراء. ذهبت في ذلك اليوم من تلك السنة إلى العمل، وكان يوماً قائظاً، تجاوزت درجة حرارة الطقس معدلها الطبيعي وشارفت على الخمسين درجة مئوية، كل شيء كان يغلي حينها، العيون ذات النظرات الخائفة، والقلوب التي من فرط الغَمِّ واجفة، اجتزت البوابة الخارجية سيراً على الأقدام بعد أن ركنت سيارتي في المواقف المخصصة لنا نحن الأفراد في الجيش، رأيت وأنا في طريقي خمسة ضباط يقفون عند باب الإدارة، حييتهم بالتحية العسكرية، ولم أنتظر أن يردوا عليَّ بأحسن منها، ثم دخلت. سرت في الممر الضيق متجهاً إلى الحجرة التي كنا نجتمع فيها قبل الثاني من أغسطس، لمحت عند مكتب الاستقبال في صدر الإدارة زميلي رقيب أول منصور الظافر غارقاً في تسجيل بعض السطور كعادته في دفتر الأحوال، وبجواره يقف العامل في إدارتنا رعد عمّاش حاملاً الصينية الفارغة بعد تقديم الشاي

لمنصور. كان أبو عماش الذي تم توظيفه في إدارتنا قبل التحاقي بالجيش بأربعة أعوام، في سنة ١٩٨٥ ، خبيراً بتحضير الشاي العراقي، ولا أبالغ حين أقول إن رشفة واحدة من شايه لقادرة على ضبط وترتيب ملفات الرأس كما ينبغي. لقد صدق منصور الظافر حين وجه كلامه إلى رعد عماش قبل هروبه وانكشاف أمره بيوم واحد:

ـ لقد غزوتنا بشايك يا أبا عماش من قبل أن يفكر صدام حسين بالغزو!

لم يكن أبو عماش «شايشياً» أو «جايجياً» مبدعاً فحسب، بل كانت عنده خامة صوتية تؤهله لأداء مجموعة كبيرة من أغاني الريف لداخل حسن وناصر حكيم وغيرهما من مطربي الريف العراقي. هو الذي شرح لي في يوم من الأيام قصيدة «المجرشة»، وهي قصيدة من بين قصائد عامية كثيرة قرأها علي وشرحها. ولأن جدي كان قد علمني كيف ألتزم كلمةَ «عمي» في مخاطبة من يكبرني بالسن، فقد فاز أبو عماش، أو «العم أبو عماش/العم رعد» كما كنت أبتدئ النداء باسمه دائماً، بلقب العم، كما فاز باحترامي وتقديري. في الكويت، لا يُطلق لقب «العم» إلا على أصحاب الأرصدة المتضخمة في البنوك السويسرية! فإذا مات أحد هؤلاء الأعمام من علية القوْم انبرت صحف النفاق الاجتماعي تضيف كلمة (العم) قبل اسم الشخص المتوفى.

وفي الثاني من أغسطس هرب الأعمام من الكويت، وتركوها ـ يا لهْفَ نفسي عليها ـ وحيدة! والحق أنني لم أكن لأصبر على عملي في الجيش الكويتي لو لم يكن العم العراقي أبو عماش موجوداً في إدارتنا. كان مثقفاً فريداً من نوعه، يتحدث عن الريف والمدينة، ثم عن سيد درويش وتأثره بعثمان الموصلي، هو الذي أطلعني على نظريات العالم العراقي عبد الجبار عبد الله في معرفة الزلازل، وحكى لي عن ميسان مسقط رأسه، وهو الذي أهداني ديوان المكَيَّر للشاعر العراقي الذي أحببته زامل سعيد فتاح، وشرح لي ما استعصى عليَّ فهمه. كان العراق ألفَهُ وياءَهُ، والمثير في شخصيته أن ثقافته الواسعة كانت مريبة بعض الشيء، إذ كيف لرجل مثله أن يمتلك هذا القدر العالي من الثقافة والحضور والمعلومات العامة ولا يجد لنفسه وظيفة تليق بمستواه. حاول العقيد سالم جدعان مدير إدارتنا أن يطرده من العمل ويقطع رزقه، إلا أن تدخلات كثيرة من مسؤولين كبار حالت دون ذلك، ولا أدري إن كان أولئك المسؤولون من صنف «الأعمام»، أم من صنف آخر!

لقد ضاعت ثقتي برعد عماش في اليوم السادس من شهر أغسطس، اليوم الذي استشهد فيه صديقي ضيدان فلاح الذي سقط على أرضية المكتب مقتولاً برصاصة من مسدس أخرجه «الخائن العميل» رعد عماش الذي اكتشفنا خيانته ولم نتمكن من الدفاع عن صاحبنا.

في ذلك اليوم، لوح لي وكيل ضابط أول سليمان راجح بيده وهو يشرب الماء بالقرب من باب المطبخ الصغير، وقال إن ضابط القسم قد طلب منهم الانتقال إلى الحجرة الثانية في نهاية الممر لحضور الاجتماع. كانت الساعات تمر بطيئة، وكأن الزمن قد أصيب بشلل مفاجئ. لم أكن أدري ما إذا كان لدي أمل أسدد به فواتير اليأس في تلك الحالة أم ليس لدي، لقد فتشت عن السعادة في بلدي فلم أقف لها على أثر، وها أنا اليوم أرى وطني يطل مغرورق العينين، مصلوم الأذنين، منطفئ الملامح، يتبدى لي كشبح، لا لون له، ولا طعم له، ولا رائحة له، ولا وجود لي على أرضه. تحول قلبي في صباح ذلك اليوم إلى سرادق ضيق، كأنه سرادق عزاء، إلا أنه لم يكن مكتظاً بالمعزين، بل بالوساوس والظنون. كنت أحدِّثُ سليمان راجح عن رغبتي في حمل السلاح والدفاع عن الوطن. وكان يقول:

ـ احتفظ بأحلامك لنفسك يا عارف، وعشها في خلواتك إن كنت تريد أن تعيشها. فلا تصرح بها لأحد، ولا تصدقها كثيراً. لا تصدق أحلامك يا صديقي، هل تعقل كلامي هذا؟ أم أنك أوصدت أبوابك كلها وأقسمت أن تصمَّ أُذنيك عن نصائح زملائك في العمل، واستأثرت برأيك كعادتك؟ إنَّ في الأحلام واقعاً لا يخبئ وجهه أبداً، إنَّ فيها مرارة قد تفتك بك إن لم تستفيظ من غفلتك.

ـ عجباً، تخاطبني كأنك وليُّ أمري، أو كأنك لم تكن شاهداً

على تراجع بعض الضباط من منطقة الحدود قبل يومين. تخاطبني كأني مصاب بالهذيان. أين الأحلام التي رجوتني قبل قليل أن أعيشها بمفردي، أو في خلواتي على حد تعبيرك؟ أليست الكويت دارك كما هي داري؟ ألم ترَ دمها بعينيك كما رأيته بعينيّ؟ ألم تسمع صوتها وهي تستنجد بنا؟ ألم تشعر بالندم لأنك في سلك الجيش ولا تستطيع أن تدافع عن وطنك كما تدافع المقاومة المدنية الحرة الشريفة؟

ـ نحن هنا ننتظر الأوامر وننفذها فقط. هذا هو الجيش.

ـ وهل تطلب مني أن أنتظر أمراً من الضابط للدفاع عن وطني، لماذا أُمنع من الانضمام إلى صفوف المقاومة الشعبية؟ لماذا ينضم غيري من العسكريين ولا أنضم أنا؟ هل أبدو لك بلا يد؟ أو بلا عينين؟ أو بلا ساق أو بلا قدم؟

في تلك الأثناء، ونحن نتحدث عن الوطن والجيش والخيانة، سمعنا صوت إطلاق نار. خرجنا من المكتب وركضنا إلى باب الإدارة، رأينا عماش يخرج مسرعاً ومرتبكاً من الحجرة الأولى التي سنجتمع فيها، ناداه سليمان راجح وركض خلفه منصور الظافر:

ـ عماش، عماش، ماذا جرى؟

نظرت إلى الحجرة الأولى، فوجدت ضيدان غارقاً بدمه على الأرض. كان دمه على الحائط والأريكة والطاولة. سمعته يقول

بصوت متقطع:

ـ جا...س...و...س

اقتربت منه محاولاً مساعدته:

ـ ماذا قلت؟

كررها كأنه يتهجأ الكلمة.

ـ جا...س...و...س

بلى سمعته، وسألته فوراً لأتأكد من صحة ما سمعت:

ـ جاسوس؟

ثم قلت مستفهماً:

ـ من الجاسوس؟

قال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

ـ عماش.

انتفضت، وصرخت قائلاً:

ـ عماش؟ رعد عماش؟

هزّ رأسه وقال نعم بإغماضة من عينيه، ثم رأيت سبابته ترتفع، وشفتيه ترتعشان بنطق الشهادة. لقد أكمل ضيدان تشهده وأسلم الروح إلى بارئها.

خرجت مسرعاً من الغرفة وأنا أحمل بيدي مسدسي، وحين اجتزت باب الإدارة وضعت يدي اليسرى لأسند بها يدي اليمنى التي تحمل المسدس، كنت مستعداً لإطلاق النار، لكن صوتاً جاءني من الخلف:

ـ ارمِ مسدسك يا عارف وارفع يديك، وإلا أطلقتُ عليك النار!

كنت أرى الجاسوس، رعد عماش، يركض هارباً وفي يده المسدس الذي أردى به ضيدان قتيلاً، كنت أُصوّب مسدسي نحوه وأحسّ في الوقت نفسه بمسدس الضابط على مؤخرة رأسي. لم أنفذ أمره مباشرة وهو يأمرني:

ـ ارمِ سلاحك يا عارف قبل أن تموت!

رميت المسدس بعد ثوانٍ قليلة، ورميت مع المسدس ثقتي بالبلد!

هل كنت سأموت حينها لو أنني أطلقت رصاصة لأقتل بها خائناً؟

هل كنت سأموت شهيداً؟

وهل سقوط عماش قتيلاً يعني انتهاء الخيانة؟

السؤال الأهم: هل يستحق المسلسل الأميركي أن أموت من أجله شهيداً؟

حين رميت السلاح، اشتريت روحي. وأصبحتْ روحي بعد كل الذي مر بي، أغلى لديَّ من الوطن.

في مطلع سنة ١٩٩١ دُعيت إلى حضور أمسية شعرية خاصة في شقة الأستاذ محمد موارنة، الذي كان يعمل محرراً في إحدى الصحف الكويتية التي توقف إصدارها في فترة الحرب. قرأ الشعراء المشاركون قصائدهم السياسية، ودار الحوار بعد الأمسية حول دوافع الحرب ومشكلة الشرق الأوسط، طلب مني صديقي الذي وجه إليّ الدعوة يوسف نجيب، وكان من بين الشعراء المشاركين في الأمسية، أن أقرأ مقالتي التي سمعها مني في السيارة حين كنا في طريقنا إلى الشقة. أخرجتها من معطفي وقرأتها كاملة. رأيت الأستاذ محمد موارنة ينهض من مكانه ويصافحني وهو يقول:

ـ سأحاول أن أنشر هذه المقالة في الكويت، وإن منعت من النشر لبعض الأسباب، سأرسلها بنفسي عبر الفاكس إلى مكتب عبد الهادي علوان لتنشر في صحيفته التي تصدر من لندن.

أوضحت له وضعي الوظيفي قائلاً:

ـ الأمر ليس سهلاً يا أستاذ محمد، سأحتاج إلى كتاب رسمي يحمل توقيع وختم الضابط للسماح لي بنشر المقالة داخل الكويت، فأنا لا أزال عسكرياً، ولم تقبل استقالتي من الجيش حتى الآن بعد تقديمها للمرة العاشرة.

ربَّتَ على كتفي وقال:

ـ لا تقلق يا بني، ما دمت ستستقيل من الجيش بعد الحرب، فلا تخشَ شيئاً، كل العواصف تنحني أمام القلم الحر، وتبقى الكلمة الصادقة نابضة كما لو أنها قلب يتدفق بالحياة. انتظر من فضلك، سأهديك مجموعة من الكتب التي يجب عليك أن تقرأها.

غاب برهة في الغرفة التي خصصها للمكتبة، وعاد يحمل مجموعة من الكتب. نظرت إلى عناوينها بعد أن قدّمها إليّ، فكان من بينها، رواية الأم لمكسيم غوركي، ورواية «موت إيفان إيليتش» لليف تولستوي اللتان سبق لي أن قرأتهما عندما كنت طالباً في المرحلة الثانوية. حملت معي من بين الكتب التي جاء بها، رواية تاس مخولة أن تصرح ليوليان سيميونوف، وديوان سقط الزند ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وديوان أبي تمام، وكتاب النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد للدكتور عاطف العراقي، ومختارات من قصائد فريدرش شلر، وكتاب شوبنهاور للدكتور عبد الرحمن بدوي، وكتاب عرق لجبرا إبراهيم جبرا، وكتاب قصيدة وصورة للدكتور عبد الغفار مكاوي، وكتاب ما العمل لفلاديمير لينين، وأغنيات المنفى لناظم حكمت، وقصيدة غيمة في سروال لفلاديمير ماياكوفسكي، والمسرحية الشعرية مأساة جيفارا لمعين بسيسو. خرجت من شقته في تلك الليلة والزهو يغمرني، فقد تمكنت أخيراً من إيصال صوتي إلى فئة واعية تقدِّر الكلمة وتحترم الفكر. هاتفني بعدها بثلاثة أسابيع الصديق يوسف نجيب وقال

إن الأستاذ محمد موارنة قد وفى بوعده ونشر مقالتي في صحيفة عبد الهادي علوان الصادرة من لندن. حاصرتني السعادة من كل جانب حين سمعت الخبر، وطلبت منه أن نزور موارنة لأقدم له الشكر. التقينا في الشقة للمرة الثانية، محمد موارنة، ويوسف نجيب، وأنا. قال موارنة في تلك الجلسة بعد أن حدثني عن إعجاب عبد الهادي علوان بمقالتي:

ـ ينبغي عليك أن تسافر في أقرب وقت ممكن، فالمقالة التي نشرت تحمل اسمك الحقيقي، وقد تتعرض بسببها للضرر في عملك، إذا قُدِّرَ لهم أن يطلعوا عليها.

بادرته قائلاً:

ـ إن فكرة الهجرة تراودني منذ عامين يا أستاذ محمد، ولكنني لم أجد البوصلة التي أستعين بها في رحلتي.

قاطعني بحركة من يده وهو يحشو غليونه بالتبغ:

ـ ستذهب إلى الأردن ومنها إلى فرنسا أو بريطانيا، وسيستقبلك عبد الهادي علوان في بيته في عمّان أحسن استقبال ريثما تستقر أمورك هناك.

وحين لاحظ دهشتي أكمل كلامه:

ـ سيصل عبد الهادي إلى عمّان في غضون أسبوعين، وسيمكث فيها أربعة أشهر.

قلت مستفهماً:

ـ وماذا سأفعل إن لم أجد عملاً، كيف سأعيش؟

أجابني واثقاً:

ـ ستكون لك زاوية أسبوعية في صحيفته مقابل مبلغ يسد احتياجاتك.

أفتى يوسف نجيب وهو يحمل فنجان القهوة:

ـ إنها فكرة عظيمة يا عارف.

ختم موارنة كلامه بجملة منطقية:

ـ اغتنم الفرصة قبل فوات الأوان يا ولدي، إن لم تختر لك وطناً وأنت في هذه السن، فستقضي عمرك غريباً في وطنك، خذها نصيحة من رجل على مشارف السبعين، أنت تعيش في بلد لا يُعوَّلُ عليه!

تم التوقيع على ورقة استقالتي من الجيش بعد التحرير. وكان السيد عبد الهادي علوان قد تكفل بحجز تذكرة سفر لي من مطار الدمام إلى عمّان قبل التحرير بثلاثة أسابيع تقريباً، وهكذا خرجت من الكويت إلى الدمام، ومن ثَمَّ إلى عمّان. أقمت في فيلا علوان في طابق منعزل هيَّأه للضيوف، كان يتكون من غرفتين ومطبخ وحمامين وشرفة تطل على حديقة الفيلا. كنت أنجز في الأسبوع الواحد مقالين في الأدب والسياسة، ولا

أهمل بالطبع دروس اللغة الفرنسية. نشأت بيني وبين نضال ابنة عبد الهادي علاقة طيبة، أفدت منها كثيراً، فقد كان لها الفضل الكبير في سرعة إتقاني اللغة الفرنسية في فترة وجيزة لم تتجاوز الشهرين. كنا نترجم معاً الأغاني الفرنسية الكلاسيكية والحديثة، وكانت تطلب مني في بعض الأحيان أن أختار خبراً أو مقالة من إحدى الجرائد الفرنسية لتقوم هي باختباري في القراءة. ثم تفتح موضوعاً للنقاش. فما كان من المواضيع التي دارت بيننا إلا أن تتعدد، وتتجدد. ففي كل مرة كنا نفتح عشرة مواضيع في الجلسة الواحدة. تمنيت أن أحبها، أن أكتب في عينيها غزلاً، أو أن أرسم لها صورة، وأخبئها بين دفتي كتاب، وأضع في الكتاب وردة، وأنقش اسمها في الهوامش، أن أجعل من هامشها متناً في حياتي. أردت أن أعيش معها مراهقة ودعتها قبل عام واحد من دون أن ألوثها. إن لم أعشْ طيشَ المراهقة وتلوُّثَها الآن فمتى سأعيشهما؟ أردت أن أكتوي بنار غيرتها عليَّ من صديقاتها، عالية، وهند، ولينة، عندما كنَّ يزرنها ويطلبن مني أن أشاركهن نزهتهن في المقاهي ودور السينما. لكن الواقع مُرٌّ، لأني لم أجد لمشكلتي حلاً، إذ كيف يمكن لي أن أحبهنَّ حباً واحداً، أحببت في كل فتاة جزءاً باطنياً وآخر ظاهرياً. أحببت براءة لينة ورنين ضحكتها، أحببت الغرور في شخصية هند وتفتح نهديها، أحببت رجاحة عقل عالية وثقافة ساقيها، حيث كانت تختار من الجوارب النايلونية القادمة من باريس وميلانو ما يفتح في نفسي أبواب الجهاد في سبيل

اللمس. أحببت طيبة قلب نضال وطراوة روحها، كنت أشعر بأني أجلس تحت نبع ماء عذب فرات يتحدر من قمة جبل حين تكون بجواري. كن يصغرنني بعام واحد. أردت أن أقبض على النار والهواء والماء والنايلون، في الوقت ذاته!

قلت، تمنيت، إذ لم يتحقق شيء مما تمنيته على الإطلاق. على الرغم من أن مواصفات نضال الخارجية كانت جيدة من وجهة نظري، كان يعجبني شعرها الأسود الطويل، كما كانت تجتذبني نعومتها الدسمة كحليب النوق. تمنيت أيضاً في إحدى الليالي وأنا في شقة الضيوف عندما كنت أكتب مقالة بعنوان «القضاء على القضاء»، تدور حول ورقة الخيانة التي تحمل توقيع وختم الملك عبد العزيز آل سعود في بيع فلسطين والمكتوبة بخط يده، وقد ربطت بين حادثة إعدام الأميرة مشاعل بنت فهد بن محمد آل سعود في ساحة لاصطفاف السيارات، وبين الورقة التي ظهرت وانتشرت بين الناس قبيل مقتلها. وتساءلت في المقالة نفسها عما إذا كان للأميرة دور في إظهار تلك الورقة، ليتم التخلص منها دون محاكمة! أردت حينها وأنا في غمرة انشغالي بالمقالة أن أسرح بالتفكير في نضال، لكنني لم أستطع، ولم تستطع هي أيضاً أن تفتن بي، كنت أعلم بأنها كانت معجبة بي، بتمردي وخروجي من بلدي، بما أطمح به وأصبو إليه. في الشهر الثالث من إقامتي في الفيلا، طلب مني عبد الهادي أن أكتب مقالة أدافع فيها عن الدول التي سمّتهم الكويت في تلك الفترة دول الضد، وأن

أشير إلى أسماء بعض السياسيين وأمتدح فئة منهم. لم يكن الأمر في حاجة إلى لبيب ليفهم، لأن كلام عبد الهادي في ذلك المساء ـ وهو يترأس مائدة الطعام الطويلة الزاخرة بجميع أصناف الطعام التي تكفي لسدِّ جوع قرية فلسطينية بأسرها ـ لم يكن إشارة، بل كان توجيهاً. جلسنا لتناول وجبة العشاء نحن الأربعة، عبد الهادي ومدام سعاد وابنتهما نضال وأنا، تحدثت الأم عن شوقها إلى ابنها عهدي الذي يدرس القانون في جامعة أوكسفورد، وذكره الأب قائلاً:

ـ سيأتي حاملاً الشهادة من تلك الجامعة التي ورث الدراسة فيها أباً عن جد.

وعقبت نضال وهي تمسك ملعقتها:

ـ إيه يا عهدي، كم كنت تفرح يا حبيبي حين ترى الفريكة مع الدجاج على طاولة الطعام.

سألني عبد الهادي:

ـ ماذا ستدرس في باريس يا عارف؟

أجبته وأنا أضع المنديل على الطاولة:

ـ لقد اخترت دراسة الفنون الجميلة، لذا سأسافر بعد أسبوعين لامتحان القبول.

قالت سعاد التي بدأ يتلاشى ـ مع نظراتها الماجنة إليّ ـ لقب مدام علوان:

ـ أنت فنان.

لقد كانت هي الفنانة في وقاحتها، وانفلات أخلاقها، حين تركت قدمها تتسلل من تحت طاولة الطعام وتتدرج في الصعود من ساقي وتحط بعد صعود وهبوط متناسقين على ركبتي اليمنى. خشيت منَ أن يبدو على قسمات وجهي ما يثير استغراب عبد الهادي ونضال، فلم أثر عاصفة في المكان ولم أتحول إلى إعصار. أغوتني حركتها، فاستسلمت. ولا أدري إن كان طلب عبد الهادي عندما أملى عليَّ ما في رأسه من أفكار لأكتب المقالة التي تعبِّر عن رأيه، من بين الأسباب التي دفعتني إلى الانتقام منه عبر قضم تفاحته، أم جوعي إلى التجربة هو الذي قام بتخديري آنذاك واستسلامي لمجونها. كانت سعاد تكبرني بربع قرن، فهي في الخامسة والأربعين من عمرها. شقراء، مهتمة بجمالها وأناقتها، أما صوتها الغليظ فقد كان النقطة السوداء في صفحة أنوثتها، لقد كانت تدخن ـ حسبما قالت ـ خمس علب سجائر في اليوم الواحد، بالإضافة إلى الشيشة التي تدخنها في حديقة الفيلا بمشاركة صديقاتها سيدات المجتمع الأردني. أظن أنّ من الصعب على الرجل أن يعشق امرأة يخرج من صوتها أبو بكر سالم وهو يردد بطبقة صوته الساحرة وقراره الغليظ: «ما يهزك ريح يا مركب هوانا»!

لقد هزَّ مركبَنَا المجون، فتمايلنا فوق أمواج الرغبة عاريين إلا من خاتم جدي الذي أضعه في خنصر يدي اليمنى، وخلخالها، عاريين من كل شيء إلا من عطشها ورغبتي في أن تبتلعني بزلزالها. وقع ما وقع، وندمت في البداية، ثم ازداد ندمي في

النهاية. ولم يتغير شيء، فقررت أن أخرج من دائرة الندم بعد خروجي من الأردن ووصولي إلى مطار شارل ديغول، باريس.

نجحت في امتحان اللغة الفرنسية، وشرحت لعميد الأكاديمية رغبتي في دراسة تاريخ الفنون الجميلة، وسألته عن السبب الذي يجعلني أرسم في الامتحان الأول جزءاً من طبيعة صامتة إن كنت لا أجيد الرسم، ثم بينت له أني أتذوق الفنون التشكيلية بشكل عام، وأقدس النحت بشكل خاص. ظل العميد الدكتور غوستاف بول يردد بعد سنوات أمام الدفعات الطلابية الجديدة أنه قبل طالباً ـ هو أنا ـ لإعجابه بإجابة عن سؤال وجهه إليّ في ذلك اليوم قائلاً:

ـ لماذا تقدس النحت بالتحديد؟

أجبته وأعجبت بإجابتي في ما بعد، ربما لأن الإجابة كانت أول وأبلغ جملة أسجلها في دفتر يومياتي باللغة الفرنسية، قلت وأنا ما زلت حينها أحبو على عتبات اللغة الجديدة:

ـ أقدس النحت، لأنني أسمع في بعض التماثيل أصواتاً تُحدِّثُ نفسي.

ابتسم وسأل في خبث طيب:

ـ وما هي لغة التماثيل؟

أطلقَ سؤالُهُ خَيْلَ خيالي في رأسي بلا رَسَن، فقلت:

ـ ستقول عني إنني مجنون إن أخبرتك بأني لم أتعلم من لغة التماثيل سوى حرفين حتى الآن، وأحلم بأن يأتي اليوم الذي أتمكن فيه من فتح باب أبجدية تلك اللغة بمفاتيحي.

قال وهو يحاصرني بابتسامته التي ارتسمت على شفتيه في بداية حوارنا، ثم باغتني بسؤال كنت أتمنى أن أجيب عنه باللغة العربية لأستطرد فيه كما أشاء:

ـ وهل اللغة الصوتية التي تسمعها متداولة على سطح الكرة الأرضية؟

فتحت في غرفة رأسي قاموس اللغة الفرنسية ووضعته على تجاويف مخي، ورحت أفتش عن الكلمات المناسبة وأنا أعلم بأني مقبول للدراسة في الأكاديمية منذ الإجابة الأولى، لقد كان ينصت بعقله وقلبه وروحه، فلم يكن من الفئة التي عناها أحمد شوقي والتي تكثر في البلاد العربية، حين قال في بُردته «ورُبَّ منتصتٍ والقلبُ في صَمَمِ». قلت:

ـ وما الكرة الأرضية في هذا الكون إلا كنقطة حرف i في اللغات الأجنبية، أو كنقطة حرف النون في اللغة العربية، وما خط حرف الـ i المستقيم إلا العصا الأولى التي قادت الأوركسترا، تلك هي عصا المايسترو، وما نصف دائرة حرف النون إلا دار الأوبرا التي هي الحياة بكل ما فيها. هكذا تلتقي اللغات والحضارات، وهكذا يتضح لنا جزء بسيط من الحقيقة. اسمح لي دكتور بأن أقول، إنها فلسفتي الوجودية الخاصة.

قدَّمَ إليَّ ورقة وقلماً وهو يجلس خلف مكتبه الذي أجلس أنا إزاءه وطلب مني أن أكتب حرف النون على الورقة وهو يشير بالقلم، حملت القلم الرصاص وكتبت حرف النون بخط كبير، ثم أدرت الورقة ليرى الحرف من منظوره الصحيح، لوى عنقه، ثم أبعد الورقة وقرَّبَها، وهو يحملها ويميلها يميناً وشمالاً كأنه أراد أن يضع الحرف تحت أشعة الشمس المتسللة من نافذة حجرة مكتبه الجانبية. بدا لي كأولئك الذين يجتهدون في قراءة الخواتم المشغولة بالأحجار الكريمة حين يرفعونها ويسردون قصصاً وأساطير من مأثورنا الاجتماعي وموروثنا التبعي عن عالم الجن. بدا لي أيضاً كتاجر مجوهرات يتفحص عقداً أو حلقاً أو قطعة ألماس. قال بعد ثوانٍ من تأمل الحرف:

ـ إني أرى في حرف النون رشاقة وانسيابية، ألا توافقني.

قلت وأنا أتلفت حولي كأني أريد أن أرمي في بئره سراً:

ـ دكتور، إني أرى حرفَ النون ثدياً.

وهمست غامزاً:

ـ والنقطةُ. . . حلمة.

نهض ومدَّ يده ليصافحني وهو يقول:

ـ أنت منذ هذه اللحظة صديقي، قبل أن تكون طالباً في هذه الأكاديمية، أفهمت؟

تمنيت أن أحتضنه من شدة الفرح، وأنا أحييه وأقبض على يده وأشكر ترحيبه بي، لقد كنت أصافح العلم والثقافة والإبداع والإنسانية السامية. خرجت من المعهد في ذلك اليوم وأنا أرقص منتشياً في شوارع باريس. الفرنسيون ـ كما هو معروف عنهم ـ عنيفون في الفرح، كالألمان تماماً، فلم أبْدُ لبعض الأجانب ـ الأوروبيين منهم بخاصة ـ مريباً، في الوقت نفسه كنت أبدو لبعض المارة كمن فقد عقله. كنت حين أرى عيوناً تشزرني باستغراب، أخمّن أن أصحابها عرب، ويصدق حدسي وتخميني. إذا كان الفرنسيون والألمان عنيفين في الفرح، فنحن ـ العرب ـ عنيفون في التعاسة والبؤس والنكد. وقفتُ على الجسر، كانت باريس هي الجنة، ونهر السين يجري من تحتها وتحتي، نظرت إلى السماء، ناديت أمي وأبي وجدي، تحدرت على خدي مع الرذاذ الباريسي المفاجئ دموعي، وأنا أحاول أن أتخيل كيف ستكون فرحة عمتي حين تتلقى نبأ قبولي في الأكاديمية. استحضرت صورتها وهي تطعمني بملعقة صغيرة تلك الحلاوة الطحينية التي كانت رائحتها الشهية تحملني إلى السماء، استحضرت ملمس يدها وأصابعها وهي تطعمني الكليجة أو الخنفروش، الحلويات التي لم أجد في العالم أصنافاً أخرى تنافسها مهما تعددت أنواع الدونتس، والتشيز كيك، والبان كيك وغيرها. بعد النصف الأول من السنة الدراسية الأولى في الأكاديمية، بدأت أتأخر في كتابة المقالات وتسليمها إلى جريدة عبد الهادي علوان الصادرة من لندن،

وحين تضعضع مصدر الدخل الوحيد، الذي لولاه لما تمكنت من دفع أجرة السكن، وفواتير الدراسة للفصلين الأول والثاني، قدمت إدارة الأكاديمية عرضاً يتيح للطلبة أن يعملوا في مجموعة من متاحف باريس، إن كانت لديهم الرغبة في ذلك. عبأت الاستمارة ووضعت علامة x أمام الخيار السادس ـ متحف فيكتور هوجو ـ من ضمن الخيارات المطروحة.

Maison de Balzac?
Musée d'Art Moderne de la Ville de Paris?
Musée Bourdelle?
Musée de la Vie Romantique?
Musée Zadkine?
Maison de Victor Hugo

X
Musée Galliera?
Petit Palais?
Musée Cognacq-Jay?
Musée Jean Moulin?
Musée Cernuschi?

أجل، خاب أملي عندما لم أجد متحف رودان من ضمن قائمة المتاحف. وقد لاحظ الدكتور غوستاف بول شعوري بالانكسار، فسألني بعدما جمع الأوراق:

ـ عارف، هل تريد أن تقول شيئاً؟

نظرت إليه وقلت:

ـ لا شيء دكتور.

وجه إليّ سؤالاً آخر:

ـ هل اخترت أن تعمل في أحد المتاحف؟

ـ نعم.

ـ وعلى أي متحف وقع اختيارك؟

ـ فيكتور هوجو.

ـ لماذا لم تختر متحف بلزاك؟

ـ لا أعرف عن بلزاك سوى أنه كاتب فرنسي، فلم أقرأ له كتاباً من قبل لأختار العمل في متحفه.

ابتسم وهو يصغي إلى جوابي، ثم قال:

ـ هل تقبل العمل في متحف رودان؟

فتحت عينيّ غير مصدق ما قاله، أخرستني فرحتي، فكرر سؤاله مبتسماً، والطيبة تفيض من عينيه:

ـ ما رأيك؟ هل تقبل العمل أم لا؟

قلت له:

ـ أتسمح لي بأن أتصرف كما يطيب لي أمام الجميع.

ضحك ضحكة أعرفها جيداً وقال:

ـ أنت صديقي يا عارف، فقل ما تريد.

نهضت من مكاني في مدرج قاعة محاضرة النحت حيث كنت أجلس في الصفوف الأخيرة، وكان هو يقف في الأسفل، ركضت إليه، حتى إذا أصبحت إزاءه مباشرة نظرت إليه، وقفزت أحتضنه وأقول له:

ـ دكتور غوستاف، أنت إنسان عظيم، شكراً لأنك فرشت السجادة الحمراء لأحلامي وسمحت لي بالعمل في المكان الذي أحبه.

حياني وربَّتَ على كتفي وهو يقول:

ـ أنت تستحق الأفضل دائماً يا عارف. وفرنسا تُقَدِّرُ العقول.



٥

ظهراً، توجهتُ بعد استلام بذلتي من المصبغة إلى شقتي الأرمينية، لقد أردت أن تكون البيتزا وجبة غدائي، ولكنني فضلت تأجيلها إلى العشاء. اشتريت هذه البذلة من باريس قبل خمسة أعوام، وارتديتها للمرة الأولى لحضور حفلة موسيقية لعازفة البيانو الجزائرية البلجيكية عائشة، المولودة في مدينة بسكرة في جنوب الجزائر. أقيمت الحفلة في صالة صغيرة في فندق فولتير المطل على هرم اللوفر الزجاجي ونهر السَّيْـنْ العظيم. دعتني إلى الحفلة زميلتي روزيندا، إحدى الموظفات في متحف رودان. حين خرجنا، روزيندا وأنا من مقهى فولتير القريب من الفندق الذي يحمل الاسم نفسه بعد تناولنا القهوة، رافقنا المطر إلى صالة الاستقبال في الفندق بعد أن كان قد بللنا معاً، وترك على معطف بذلتي الكحلية آثار قطراته المتدافعة، امتزجت حبات المطر بنسيج المعطف، فبدا من بعيد كأنه معطف كحلي مطرز بدوائر كحلية صغيرة يبرز لونها الكحلي

بدرجة أغمق بقليل من لون المعطف، أحببت منظري من المنظور الذي رآني فيه المدعوون إلى الحفل الموسيقي.
جلستُ بجوار روزيندا في الصف الثاني، وكانت تجلس عن يميني فتاة جميلة تضع بين ركبتيها اللتين كشفتهما لعينيّ تنورتها المشاغبة الحمراء الضيقة دفتراً صغيراً، تناسق لون الدفتر الأبيض مع لون كعبها الأبيض العالي ذي الخيوط الجلدية الدقيقة البيضاء التي تحيط بقدميها، كعب أبيض احتضن عشر أصابع طليت أظفارها باللون الأحمر اللمّاع، وفازت سبابة قدمها اليمنى بخاتم فضي رقيق. كانت قدما تلك الفتاة جوقَتَين رشيقَتَين تدوران في صمت تغمره نغمات البيانو بتوقيع عائشة، ورنة الخلخال المتقطعة حول بياض كاحل يكاد ينسكب ماءً زلالاً من شدة رقته. وصفتها من الأسفل، لأنني لم أتمكن من تَلَمُّسِ الجزء الأعلى بعينيَّ الجائعتين إلى رؤية ملامح وجهها.
لاحظت أن خلخالها عربي الصياغة، بدا لي كتلك الخلاخيل التي تزدحم بها دكاكين خان الخليلي في القاهرة، خمنت أنها ربما زارت مصر. إنني أعرف كيف أحلل شخصية المرأة من خلال تفحص خلخالها الذي ترتديه. وقد تتلمذت في هذا العلم على يد صديقتي المغربية رحاب التي كنت سألتقيها بعد ذلك في رحلتي إلى المغرب مع تيمور. لكنني في هذه الحفلة الموسيقية لم أكن أعرف شيئاً عن تحليل شخصية المرأة من خلال النظر إلى خلخالها. انتهت الحفلة بعد عزف متواصل استمر ساعة كاملة على البيانو، ولم تنتهِ حفلة مشاعري

المتأججة ورغبتي في النظر إلى وجه الفتاة، صاحبة الخلخال والخاتم. نهضتْ روزيندا ووجهتْ كلامها إليّ قائلة:

ـ سأهنئ عائشة، وأعود إليك.

كانت روزيندا امرأة فرنسية في منتصف الأربعين، ترفع شعرها الأشعث في أغلب الأحيان، ولا تعترف بأي نوع من أنواع الأكسسوارات النسائية. كانت شيوعيةَ الإطلالة والمصير. لم تكن كالنساء اللائي يقفن إزاء المرآة ساعات طويلة للاهتمام بمظهرن، والاعتناء بزينتهن. لم أرَ للحمرة أثراً على شفتيها، ولم أرَ في حقيبتها التي تحملها قلم كحل، أو مرآة صغيرة، أو شيئاً من المستلزمات التي تحملها المرأة عادة في الحقيبة. كانت ترتدي حذاءً رسمياً أسود في المتحف التزاماً بقواعد العمل، وتستبدله بحذاء رياضي رجالي الشكل في جميع مشاويرها الأخرى، حتى وإن قادها المشوار إلى دار الأوبرا على سبيل المثال. كانت تدافع بحماسة شديدة عن العلاقة الفكرية التي كانت تربط بين سارتر وسيمون دي بوفوار. عاشت تحلم برجل كسارتر، ولم يأت فارس أحلامها المنتظر، بحثتْ كثيراً عن سارترها المفقود ولم تجده. لم تُخْفِ إعجابها بي وببعض أفكاري، إلا أنها صارحتني في إحدى الجلسات التي جمعتني بها في حانة باريسية أنيقة، بعد احتسائها نصف زجاجة من الويسكي بنفورها من سلامة عيني. قالت لي بعد أن تعتعها السكر إلى الدرجة التي بدأت تتمايل فيها بشكل واضح على كرسي البار الخشبي الأخضر:

ـ أنا يا عارف، لا أتخيل نفسي أنثى، إلا في فراش رجل أَحْوَل!

قلت في نفسي:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

حين ذهبت روزيندا لتهنئة عائشة بعد انتهاء الحفل وتوقف تصفيق الجمهور، التفتُّ إلى صاحبة الخلخال وقلت بعدما شربتْ عيناي جمالَها:

ـ هل لي أنْ أُهَنِّئَ نفسي بجمالك يا آنسة...؟

نظرت إليّ وقالت، كأنها كانت تحتفظ بالرد من قبل أن أطرح تعليقي:

ـ أشكر لطفك.

قلت وأنا أغوص في عينيها:

ـ أنا أعلم بأنك فرنسية، لكنني أرى فيك خيطاً رفيعاً يسحب روحي وعقلي وقلبي وجميع جوارحي صعوداً إلى الحضارة المصرية القديمة.

بدت عليها الدهشة وهي تقول:

ـ وكيف علمت بذلك؟

ساد بيننا صمت فصيح، وفسيح، في قاعة الفندق الضيقة، ثم راحت تكمل كلامها:

ـ لقد صدقت في حدسك يا . . .

قلت :

ـ عارف .

فقالت وهي تبادر في مدِّ يدها لمصافحتي :

ـ فرصة سعيدة يا عارف، اسمي جوْيس وأنا من مدينة مرساي/ مرسيليا في الجنوب . هل أنت مصري؟

أجبتها قائلاً :

ـ أنا مصري، عراقي، شآمي، مغربي، يمني، عربي .

لكنها لم تستوعب ما قلته حين وضعت دفترها الصغير في حقيبتها واستعدت للقيام وهي تقول :

ـ أنا Egyptologist متخصصة في تاريخ مصر القديم، وقد عدت قبل ثلاثة أسابيع من رحلة رائعة إلى مصر ومدنها الساحرة . قضيت خمسة أيام في القاهرة، وأربعة أيام في شرم الشيخ، وثلاثة أيام بين أسوان والأقصر .

وتنهدت قبل النطق بجملتها الأخيرة :

ـ آه كم أتمنى أن أعيش في مصر .

أجل، لقد صدق حدسي كما أخبرتني، ونجح خلخالها المصري في إيصالي إلى سرها ومضمونها وجوهرها . لم نفترق

قبل أن أدعوها إلى كافيه دو فلور لاستكمال حديثنا المشوِّق عن مصر وتاريخها في الغد، إن كان يسمح وقتها. رحبت جوْيس بالدعوة وقالت إنها ستأتي في الساعة الثالثة والنصف عصراً.

مدت روزيندا يدها ملوحة لي من بعيد بعد انصراف جوْيس، كأنها كانت تقول لعازفة البيانو عائشة:

ـ انظري . . . إنه الواقف هناك.

دنوت منهما، وهنأت عائشة بعبارات الثناء على عزفها وإحساسها الرفيع واختياراتها الموسيقية الجميلة والذكية. ثم طلبت منها أن تقبل دعوتنا لتناول البيتزا ذات الطعم اللذيذ، البيتزا التي تجعل المرء ينسى اسمه وتاريخ ولادته بعد تناول أول مثلث منها، في مطعم ريجوليتو الإيطالي في الحيِّ اللاتيني. المطعم الذي تم إغلاقه بعد سبعة أشهر من افتتاحه بعد إفلاس صاحبه المهندس المعماري أنتونيو جارديلي الذي كان يقيم في غرفة في الطابق الثاني في فندق لوتيسيا. قبلتْ عائشة الدعوة، فانتظرناها في صالة الاستقبال الرئيسة في الفندق. تجولنا بين الأثاث القديم، أمعنت النظر في الصور الفوتوغرافية المعلقة على الجدران بالأبيض والأسود. شاهدت مجموعة كبيرة من الصور المبروزة لريتشرد فاجنر وكلود مونيه وأوسكار وايلد وبودلير وغيرهم من الشعراء والكتاب والفنانين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. عرفت بعد سؤالي أحد الموظفين، أن الأشخاص الذين عُلقت

صورهم، كانوا قد أقاموا في هذا الفندق، ومن بينهم كان بودلير الذي أقام عامين كاملين في غرفة تقع في الطابق الخامس. خرجنا بعد وصول عائشة إلى الشارع، وسرنا في اتجاه الحي اللاتيني بعد توقف المطر. وكنت أتمنى أن يستمر المطر في الهطول لنجتمع نحن الثلاثة تحت مظلة عائشة. من الضروري أن أشير هنا، إلى أن اجتماع أي رجل بامرأة تحت مظلة، أو في تلفريك، في استطاعته أن يحدد شكل علاقتهما ومصيرها، ويظهر جوانبها الخفية. يكتشف الرجل في حالة التصاقه بالمرأة تحت المظلة، أنوثتها وشعورها بالأمان وحاجتها إليه. أما في التلفريك، فإنه يستطيع أن يقيس اضطرابها، وشعورها بالخوف، وحاجتها إليه أيضاً. فإن لم تشتعل أنوثتها وحاجتها إليه تحت المظلة، ولم تخفْ أو تضطرب في التلفريك، فالأجدر به أن يفكر كثيراً قبل الغوص في بحر العلاقة، لأن خوف المرأة يشكل نصف أنوثتها، وروزيندا لا تخاف، ولا تحمل أي مظلة!

أما عائشة، عازفة البيانو، الجزائرية البلجيكية السمراء، فتحمل مظلة في ليلة باريسية بلا مطر. جلستْ روزيندا في المطعم عن يميني، وإزائي اتخذت عائشة مقعدها. كان بريق عينيها السوداوين كثيفاً. أما شعرها الأسود الناعم المنسدل على كتفيها، فقد كان كبرواز متحرك لملامح وجهها ذي البشرة الصافية. حاجباها اللذان لم ترهقهما بالملاقط، ولم تسرف كثيراً في حفهما وتغيير هويتهما، أعطياها نكهة غجرية،

والحمرة الطبيعية الخفيفة في وجنتيها، زاد درجةَ حُمرتِها حياؤُها. أما شفتاها، فماذا أقول في شفتيها؟ لست أدري. كل ما في وجهها نشر في فضاءات قلبي مفعول جمالها. تلاطمت في أعماقي أمواج الغربة والرغبة في آن واحد، عشت فيضاناً عاطفياً كأني في إعصار مع نفسي. كان عطشها إلى استخدام اللغة العربية في الحوار واضحاً. تحدثتْ عن حنينها إلى مسقط رأسها «بسكرة»، في جنوب الجزائر، ثم ذكرتْ النخل والتمر. تلألأ البريق بعدما اغرورقت عيناها قليلاً، وظهر كأنه مشهد سينمائي لانعكاس النجوم على النهر. كأن عينيها قد اغرورقتا بالبريق لا بالدموع. والإنسان في نوبات الحنين، لا يجيد التحدث والاسترسال في البوح إلا بلغته الأم، مهما تعددت اللغات التي يتقنها. لأن الحنين طواف حول بؤرة البداية، حول المكان الأول، والزمان الأول، والحضن الأول، والحرف الأول من أبجدية وجوده. الحنين وحده يستدرج الإنسان إلى أصله وينطلق به نحو مستقبله، إنه ضرب من ضروب العبادة، وطقس من طقوس التجلي، وفصل يلخص فصول كتاب العمر. الحنين، هو أعظم شعور مذكر في هذه الحياة. ولو لم يكن الحنين، لما كانت الذاكرة، ولو لم تكن الذاكرة، لما كان هناك بشر على سطح الكرة الأرضية. لم يكن الحنين عبر تاريخه الإنساني الطويل مع الإنسان مفرداً في اللغة، أو منفرداً في الحياة. الحنين جمع في مفرده، ينهمر كالمطر من ذاكرة المخ نزولاً إلى القلب، وأحياناً يتفجر كالبركان من ذاكرة القلب

صعوداً إلى المخ. ليس للحنين مكان ثابت يتيح للإنسان فرصة السيطرة عليه والتحكم فيه. فإذا تفجر الحنين من ذاكرتين كذاكرة المخ والقلب، لا يعني ذلك أن مصدره من هذين المكانين فحسب، لأن للأذن ذاكرة تحنُّ إلى سماع صوت معين من بين الأصوات التي تعرفها، وللسان ذاكرة تحنُّ إلى مذاق شراب أو أكل تناوله، وإلى حديث دار بينه وبين أحد أصدقائه أو أفراد أسرته أو غيرهم من عامة الناس، وللأنف ذاكرة تحنُّ إلى استنشاق هواء مكان ما، أو عطر ما. أما ذاكرة الروح فهي الذاكرة التي وُجدت في الإنسان قبل خروجه من بطن أمه، وربما قبل تشكله المادي كجنين في رحمها. لقد كان حديثي المقتضب عن أسرتي الصغيرة، وبيت جدي، وعمتي بسمة، وحلاوة تمر نخلتنا، هو المحركُ لحنين عائشة إلى «بسكرة» وشمسها ونخيلها. وكان ملل روزيندا من الحديث في الجلسة واضحاً. قالت بعد انتهائنا من أكل البيتزا:

ـ هل نمضي؟

التقت نظرات عائشة الصامتة بنظراتي وتشارَكْنا ابتسامة خفيفة. طلبتُ بعدها الفاتورة من نادل المطعم الموهوب في العزف على آلة الترومبيت، ودفعت الحساب، وأطفأت سيجارتي التي كنت قد أشعلتها بعد سؤال روزيندا المفاجئ الذي جاء في غير أوانه كالصاعقة ودفعنا إلى الرحيل، وأطلَقَنا كالغربان الجائعة ننعب في فلوات المستحيل. كأن كل شعرة في جسدي

المحتشد باللهيب قد وقفت تعلن عصيانها، وكأن الفترة الزمنية القصيرة التي ارتشفناها معاً من كأس المصادفة المدبرة لم تكن ساعةً واحدة، بل سنوات من الحب والقهر والانتظار والفرح والدموع، وكأن انفصالنا المقدَّر قد أدى بنا في نهاية الدرب من قبل أن نلتفت، إلى نقطة نحتضن فيها اتصالنا. بين انفصالها عني واتصالي بها جسر مرصوف بالعثرات وموكّل بالغموض في فراغ التأويل. ذهب كل واحد منا بعد خروجنا من المطعم إلى منزله سيراً على الأقدام، في ليلة كان مطرها حبيس الغيمات. في ليلة لم يكن مطرها يهمي كعادته كل مساء في هذه الساعة، على الشوارع والأشجار والسيارات والبيوت والتماثيل والكنائس ومظلات المقاهي الخارجية وبعض المارة، بل كان يهمي على قلبين متفقين ومشتركين في تقديس التمر، وعلى عقلين لم تُذهِبْهُمَا زجاجات الخمر، وعلى ذاتين التقتا في الغربة، وعلى وجهين أيبستهما برودة الغياب عن وطنيهما، وعلى ظلين لم يجدا صراطاً مستقيماً إلا على المكاره والمتاهات والركض على الأشواك وراء سراب يقترب ابتعاداً، وعلى اسمين وحَّدَهما حرف «العين» في اللغة العربية (عائشة ـ عارف)، وحرف A في اللغات الأخرى، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية وغيرها من لغات العالم. وكانت تلك الجلسة هي الجلسة الوحيدة التي رأيت فيها عائشة، وما زلت أتذكر جيداً كيف كانت عبارة «فرصة سعيدة» صادقة حين نطقت بها قبل فراقنا الأبدي. لأول مرة أشعر بأني تهجأتها حرفاً حرفاً، وجزءاً

جزءاً، لكي أحسّ بحقيقة معناها وحرارة موسيقاها. كنت أرغب في أن أصرخ بأعلى ما في صوتي من العشق والهوى والوجد والجوى واللوعة والهيام في ليل باريس قائلاً: فرصة سعيدة، لأخبر العابرين والنائمين والمترنحين في الأحياء الباريسية من شدة السكر في العشق بأمر سعادتي. لم تكن الفرصة بالنسبة إليّ في تلك الليلة سعيدة فحسب، بل تركتني أعود إلى شقتي وأدير أكرة الباب وأدخل منتشياً كأن كل ذرة في داخلي ترقص على إيقاع ذكرى عشائنا الأخير. تركت على غير عادتي باب الشقة مفتوحاً، وفتحت نافذة الصالة، كأني كنت أنتظر قدوم عائشة مع الهواء، أو مع شروق الشمس في موكب تزفه زقزقة العصافير وألوان السماء المنعكسة على زجاج النافذة المفتوحة، تخيلت أن دقات قلبي ستوقظها من نومها إن كانت قد نامت، وتدلها على مكان سكني. نمت في الساعة الرابعة والنصف فجراً على الأريكة ببذلتي الكحلية من دون أن أخلع أي قطعة، وصحوت ظهراً بعد ثماني ساعات تقريباً على رنين الهاتف الأرضي. رفعت السماعة وإذا به صوت روزيندا ينفذ من أسلاك السماعة ويمسك برقبتي. كانت تبكي وتصرخ بكلمات أخرسها النشيج، طلبت منها أن تهدأ قليلاً، لكني سمعت في أثناء كلامي السريع اسم عائشة، وأنها قد جاءت وأغلقت باب شقتي بعد زيارتها الخاطفة حين كنت نائماً، توقفتُ عن الكلام لأسمعها، لكنها أغلقت السماعة بلا وداع أو اتفاق على موعد. تسمرت واقفاً في مكاني أنظر إلى الباب

الموصد، والنافذة المقفلة. من الذي زارني؟ هل هي روزيندا أم عائشة، لم أفهم ما قالته لي؟ إذا كانت روزيندا هي التي أوصدت الباب ومضت مسرعة إلى شقتها، فلماذا فعلت ذلك؟ وإذا كانت عائشة هي التي زارتني ومنعها حياؤها من إيقاظي من النوم، فلأي أمر جاءت، ومن الذي أرشدها إلى مكاني؟ أهو الهواء؟ أم هو شروق الشمس؟ أم هي زقزقة العصافير؟ أم هي ألوان السماء المنعكسة على نافذتي كما كنت أتوهم؟ ما الذي يجري من حولي، وما الذي يدور حول محور تساؤلاتي؟ ولأي مستقر ستجري شمس هذا النهار المريب؟ ما من مجيب.
رششتُ وجهي بالماء وبللتُ شعري قليلاً، أرجعته بيديّ إلى الوراء وأنا أدهنه بمسحوق الليمون المرطب، غسلت يدي من بقايا المسحوق، وعزمت على أن أذهب إلى شقة روزيندا في الضاحية الشمالية من باريس ليطمئن قلبي، وحين وصلت إلى هناك، ارتقيت السلالم الطويلة إلى شقتها في الطابق الثالث، والتقطت أنفاسي بعد ثوانٍ من اللهاث، وضغطت على زر الجرس، كنت أسمع صدى الجرس يتردد في أنحاء الشقة ويتسلل إليّ من فتحة قفل الباب. طرقت الباب بعد انقطاع صوت الجرس وصداه، فلم يفتحه أحد، ولم أسمع في الداخل صوتاً حين ألصقت أذني اليمنى بالباب. فكرت في أن أسأل عنها زميلاتي الموظفات أو زملائي الموظفين في متحف رودان، ولكن شيئاً لم يتغير، فلا أحد يعرف عن روزيندا خبراً. كل ما جنيته في مشوار ذهابي إلى مكان عملها ومشوار

إيابي للمرة الثانية إلى الضاحية الشمالية هو المزيد من القلق عليها. توجهت إلى كافيه دو فلور بعد تناول شوربة عدس ساخنة وصحن سلطة مكونة من الذرة والخيار والبقدونس والطماطم في المطعم القريب من العمارة التي تقطن فيها روزيندا. كنت قد صعدت للمرة الثانية إلى شقة روزيندا وطرقت الباب قبل مغادرتي المكان من دون جدوى. وصلت إلى الكافيه في الساعة الثالثة عصراً، ووصلت بعدي بعشرين دقيقة صاحبة الخلخال، جوْيس. جلست بجواري، وكان خلخالها في هذه المرة ذهبياً تتدلى منه خرزة زرقاء ناعمة. لم يفُتْهَا أن تضع على كتفيها شالاً أزرق، لتكتمل عندها رباعية الأزرق. الخرزة المتدلية الزرقاء، والشال الأزرق، والتنورة القصيرة الزرقاء، والعينان الزرقاوان. كأنها أسطوانة ظلت تدور على جرامافون حواسّي. كانت تفتح ثلاثة أزرار من قميصها الحريري الأبيض، في الوقت الذي وجّه فيه إليّ الزر الذهبي الثالث المفتوح دعوة رسمية لحضور كرنفال النمش الموزع على جلدها بعناية، والذي سيقام على مسرح النهدين. ليت الدعوة حينذاك كانت تسمح لي باصطحاب يديّ وأصابعي. قصصتُ على جوْيس ما حدث لي بالتفصيل بعد انصرافنا من الحفلة الموسيقية، شرحتُ لها قلقي على صديقتي روزيندا، وتساءلت عن سبب بكائها في المكالمة القصيرة، وغيابها عن العمل، واختفائها، ثم ذكرتُ اسم عائشة. فقاطعتني جوْيس قائلة:

ـ يا لها من مسكينة! من كان يتصور أن طليقها المجنون سوف يقتلها بعد عودتها من حفلتها الموسيقية مباشرة رمياً بالرصاص!

سقط فنجان القهوة من يدي على الطاولة وانسكبت بقايا القهوة على بذلتي، وكاد يتوقف قلبي لولا ارتفاع صوتي الذي أعطى قلبي صدمة كهربائية تردد تيارها ودوى في المقهى مثيراً انتباه الزبائن والعاملين في المقهى:

ـ ماذا؟

لم أصدق ما سمعته، ولم تتمكن جوْيس من سرد تفاصيل ما حدث لعائشة إزاء ذهولي واضطرابي. أكملتْ تقول بصوت منخفض يشبه الهمس:

ـ أخبرني صديقي مهندس الصوت في الحفلة الموسيقية بمقتلها، فهو الذي قدَّمني إليها ودعاني إلى الحضور قبل أسبوع أو عشرة أيام من موعد الحفلة. قال لي في مكالمتنا الهاتفية صباح اليوم، إن طليقها قد اقتحم شقتها بعد كسره الباب فجراً، وأطلق عليها ثلاث رصاصات بعدما رفس باب الحمام الموارب بحذائه، ووجدها مستلقية على ظهرها في البانيو. ثم فرَّ هارباً من الباب الخلفي للعمارة بعد تأكده من أن روحها قد فاضت. وحين سمع الجيران صوت إطلاق النار، هرع أحدهم إلى الشقة فرأى البابين مفتوحين، باب الشقة، وباب الحمام، وشاهد دم عائشة يفيض مع الماء ورغوة الصابون من البانيو على سيراميك الحمام. خرج من الشقة مسرعاً وذهب ليتصل

بالشرطة من هاتف شقته. وعندما وصل رجال الشرطة إلى مسرح الجريمة بعد دقائق معدودة، قاموا بتسوير العمارة والبحث عن المجرم، وتم استدعاء أصدقاء عائشة للتحقيق معهم، وقد كان من بين المطلوبين للتحقيق صديقي جيرارد، مهندس الصوت. لم يكن التوصل إلى مرتكب الجريمة صعباً كما ظن الجميع، فبينما كان فريق مسرح الجريمة يعد العدة للبدء بعملية رفع البصمات بعد خمس وأربعين دقيقة من وقوع الجريمة، إذ وجد أحد الضباط مسجلة صغيرة سوداء مرمية بجوار مغسلة المطبخ، وعند ضغط زر التشغيل، سمع الضابط صوت رجل، ولم يفهم الكلام، لأن الكلام كان باللغة العربية. أحدثت المسجلة الصغيرة ضجة في الشقة التي امتلأت بخمسة ضباط، وطبيب شرعي، وفريق مكون من أربعة أشخاص لرفع البصمات، بالإضافة إلى سكان العمارة الذين وقفوا خارج الشقة في حيرة مذعورين. كانت هناك فتاة متدربة من بين فريق رفع البصمات تتقن اللغة العربية قراءة وكتابة، ولا أعلم إن كانت عربية الأصل أم غير عربية. لكنهم استعانوا بها لترجمة الكلام المسجل كما قال جيرارد، وبعد إعادة الشريط وضغط زر التشغيل مرة أخرى. سمعت الفتاة الكلام المسجل، وتملكتها الدهشة مما سمعت. وترجمت للضباط والمحققين الموجودين الكلام الذي كان قد سجله طليق عائشة بصوته قبل ارتكابه الجريمة، يقول القاتل:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنا محمود لطفي كمال،

طليق هذه المرأة التي تلتفون الآن حول جثتها. نعم، أنا الذي قتلتها بمسدسي الألماني المرخص من مدينة بون، تركت لكم هذا التسجيل القصير بصوتي لئلا يطول بحثكم عني، أقول لكم بعبارة مختصرة: أغلقوا ملف هذه القضية لأنكم لن تجدوني، مهما طال بحثكم عني، واتسع تحقيقكم مع جميع الأطراف. أرجوكم... لا تحققوا مع الجيران، لأن الجيران نائمون، ولا علاقة لهم بما حدث. لا تحققوا مع صاحب المطعم القريب لأن مطعمه لم يكن مفتوحاً في الوقت الذي وصلتُ فيه. ولا توجهوا أسئلتكم إلى بائعة السمك، فهي لا تجلس في محلها الذي يقع في العمارة نفسها إلا بعد الساعة العاشرة والنصف صباحاً لبيع السمك، وانتظار صديقها السنغالي الذي يبيع بضاعته في الجوار. ولا أعني من كلامي هذا أن تلقوا القبض على صديقها السنغالي. أرجوكم ارحموا هذا السنغالي الفقير. ولا ترهقوا عمال الترميم في العمارة التي تقع في نهاية الشارع بشكوككم الكثيرة، لأنني خرجت من العمارة قبل موعد وصولهم. ولأنكم ـ وأنا خبير بأساليبكم ـ مزعجون في عملكم، قررت أن أترك لكم هذه المسجلة الصغيرة في المطبخ لكي لا تتهموا أحداً من سكان العمارة أو أصدقاء القتيلة بارتكاب الجريمة. أطلب منكم بعد سماعكم هذا التسجيل أن تقوموا بدفنها بالقرب من قبر والدتها البلجيكية السيدة كاميليا كاتولا أو مدام عبد المنان في مقبرة بيير لاشيز القريبة من محل إقامتها، لتتمكن أسرتها الصغيرة المقيمة في بروكسل، المكونة

من والدها الجزائري الطيب الحاج عمران عبد المنان وأختها الكبرى سهام وأخويها اللذين يصغرانها علي وياسين، من زيارتها في المستقبل. لا تخبروا والدها بما جرى لها، لأني أخشى عليه من أن تودي الصدمة بحياته. واعلموا جيداً أنكم ستفشلون اليوم، وستفشلون غداً في القبض عليّ. فابحثوا عن قضية أخرى تكون جديرة باهتمامكم وسهركم».

مرَّ شريط سهرتنا في مطعم ريجوليتو أمام عينيّ، وتشتت تركيزي. كانت جوْيس تتحدث عن الجريمة بقلب بارد، ربما لأنها لم تكن تعرف عائشة كما عرفتها. شعرتُ بغثيان رهيب، وضعتُ يدي على جبيني ورحت أنظر إلى الأسفل، ثم أخرجت من علبة التبغ سيجارة وأشعلتها لأرتق بدخانها قلبي المفجوع. سرحت في لقائنا الأخير، في الليلة التي احتبس فيها المطر. وانتفضت في يديَّ المرتجفتين رغبةٌ في قتل من قتلها. لم تبح عائشة في المطعم بمواجعها ومشاكلها الشخصية لي. ليتها حدثتني عن خوفها من المجهول وعن أحلامها التي لم تتحقق، ليتها قالت كل ما كان يعتصر قلبها، ليتها وثقت بي، ليتها لم تمت بعد لقائنا. وليتني عرفت الكثير عنها، ليتني ضممتها إلى صدري وأنقذتها من غدر المنفى، وقسوة الاغتراب، ليتني عالجتها بالاقتراب منها، بالتصريح لها بإعجابي بها، باحتوائها. لم أعلم بأنها كانت متزوجة برجل أحمق إلا قبل قليل. تمنيت لو أني طلبت منها المبيت في شقتي بدلاً من أن أتركها تسير وحيدة في ليل باريس إلى

شقتها، إلى موتها. اختلطت في ذهني صور متخيلة شتى لجثتها في البانيو، تخيلت كيف امتزج دمها بالماء والصابون أثناء شرح جوْيس، وكيف طَفَت الجثة على سطح الماء. هذه الصور هي التي أضرمت غثياني، وحثتني على الخروج من المقهى. وقفتُ قائلاً:

ـ عُذْرَكِ جوْيس، أنا لا أستطيع البقاء هنا، إنني أشعر بالاختناق.

كنت أخطط للذهاب إلى متحف رودان، لأتأمل تمثال المفكر. لقد كنت أغار من المفكر ـ تحفة رودان الخالدة ـ أغبطه كثيراً، وأمقته كثيراً. وبحكم الصداقة التي كانت تربط بيني وبين هيلين سوكاز، إحدى المرشدات في متحف رودان، فقد تمكنت من دخول المتحف ثلاثين مرة قبل عملي فيه مرشداً عندما كنت طالباً. كانت هيلين تسمح لي بالوقوف إزاء تمثال المفكر ساعتين متواصلتين في كل زيارة أقوم بها للمتحف. أدخل من الباب الجانبي وأركن دراجتي الهوائية في المكان المخصص. كانت زياراتي اليومية تثير الشك في المكان، وكان رجال الأمن يقومون بتفتيشي تفتيشاً كاملاً ودقيقاً، ويحرصون ـ وهذا من صميم عاداتهم وتقاليدهم السياسية العريقة ـ على وضع أيديهم على مناطق حساسة من جسمي. وصفني أحد العاملين في المتحف بالمجنون، وأصبح صديقي في ما بعد. كما روت لي هيلين ذات يوم ما قالته ستيفاني المرشدة الأكبر منهن سناً في استراحتهن الظهرية لتناول وجبة الغداء:

ـ احذروا من هذا العربي، لقد قرأت كثيراً عن الإرهاب والقمع في بلادهم، ولا أظن أن زياراته المتكررة للمتحف ووقوفه الطويل أمام تمثال المفكر إلا لأنه يريد أن ينفذ عملية إرهابية في المكان، أو ربما يخطط لسرقة التمثال.

هكذا كانت تراني فئة كبيرة من المجتمع الفرنسي. هكذا كنت أوصف، بالإرهابي، العربي الكئيب، المسلم الذي يشرب بول البعير، ويجرّ وراءه قافلة من النساء!

أردت أن أذهب إلى تمثال المفكر بعد الصدمة التي تلقيتها لأخاطبه قائلاً:

ـ من منا يفكر الآن أيها المفكر، أنا أم أنت؟

من منا يحمل جواز سفر داستْ عليه أختام الدول بعد أن داست على جبين أمته أحذية الاستعمار، وقطّعت ظهور شعبه سياط المذاهب والتيارات السياسية والدينية. إن كل ختم في جوازي طعنة، وكل رقم من أرقامه لعنة، وكل صفحة من صفحاته منصة إعدام. من منا يفكر الآن أيها المفكر، أنا أم أنت؟ إن كنت لا تملك صوتاً، تحرك، كسّر نفسك، اخرج من هذا الصمت. إن جلستك هذي، تعيد إلى ذهني صورة رجل بائس يجلس في الحمام، وكأن الصخرة التي يجلس عليها مرحاض. من منا يفكر الآن أيها المفكر، أنا أم أنت؟ ثم قل لي إن كنت قد فكرت، بماذا فكرت، وبماذا ستفكر اليوم وغداً؟ إلى متى ستظل صامتاً؟ وإلى متى سأظل أنزف وأُسرف في البوح

والشكوى وأنت لا تصغي إلى عتبي، ولا ترى مَسيلَ دمي؟

خرجنا معاً، جوْيس وأنا، من المقهى، وقبل أن نحدد وجهتنا، طلبت مني أن أرافقها إلى مكانها، أو أن أسمح لها بمرافقتي إلى مكاني، لأنها ستبقى قلقة عليّ وأنا بعيد عنها. لقد كان طلبها الدافئ كمرهم على جرحي. استسلمت لطلبها، وقلت:

ـ أريد أن أرى النهر.

أمسكتُ يدها، وأدخلت أصابعي بين أصابعها، وسرنا صامتين إلى نهر السين. كنت كأني طفل وأنا أمشي بجانبها، طفل يفتح عينيه على الدنيا، وأي دنيا؟ إنها باريس. باريس التي رأيتها للمرة الأولى بعد خروجي من الكويت وإقامتي في العاصمة الأردنية عمّان، ثم السفر من عمّان إلى باريس في اليوم الأول من شهر يونيو سنة ١٩٩١ أي قبل خمسة أعوام، وكنت أبلغ من العمر حينذاك عشرين عاماً ومن الغربة أربعة أشهر. قصصت عليها سيرة حياتي وبدأت بالغربة كنقطة بداية. لم أحدثها عن سيرتي في الكويت، لأنها لم تكن تعرف أن على هذه الكرة الأرضية إمارة تسمى الكويت. وحين حاولت رسم خريطة للعالم على باطن كفها اليسرى بعد سؤالها عن مكان مسقط رأسي، وضعتُ إصبعي على شامة صغيرة لا تظهر للعين إلا بعد فتح كفها، وكانت تقع على حافة إصبعها الوسطى. وقلت:

ـ أنا من هنا. من بلد صغير. صغير جداً كشامتك.

ثم أكملت الرسم من خلال تحريك إصبعي شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وأنا أقول:

ـ هنا العراق، وهنا إيران، أما في هذه المساحة الشاسعة فتقع مملكة أطلقَ عليها البريطانيون اسم السعودية.

هزت رأسها وبادرتني بسؤال لم أجد له جواباً حتى اليوم:

ـ وتحت أي حكم أنتم؟ أو وإلى أي بلد تنتمي إمارتكم الصغيرة، أإلى العراق، أم إلى إيران، أم إلى السعودية؟

صوت داخلي تفجر في أعماقي قائلاً في صمت مدوٍّ:

ـ إلى أميركا!

لكني لم أنبس بكلمة. كنت أتمنى أن أترجم لها من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية السطور التي كتبتها ذات يوم على ظهر كتاب مادة التربية الإسلامية في المرحلة الثانوية، وكانت سطوراً أردت أن أبدأ بها في تلك الفترة مشروع رواية تتحدث عن شاب كويتي أسميته زيداً يقع في حب فتاة عراقية أسْمَيتُها نجوى، حيث لا يجد زيد ونجوى بعد نُضوج حبهما مكاناً مادياً على أرض الواقع لجني ثمار ذلك الحب، لم يجدا مأوى، كالبيت أو الشقة أو حتى الغرفة الصغيرة. حتى يصل الأمر بالشاب بعد فشله في إيجاد المكان إلى أن يجعل من سيارته الصغيرة عشاً لحبهما، ويبدأ بتغييم زجاج النوافذ الجانبية، ويضع على النافذة الخلفية ملصقاً يحمل صورة الحاكم وولي عهده الأمين كي يتجنب المخالفات المرورية.

لكن وزارة الداخلية تجلد بسياط المخالفات المرورية كل مشاعره الداخلية، فتتراكم ديونه، ويسجن مرة، ثم يطلق سراحه، ويسجن مرة أخرى بعد سرقته محل مجوهرات ويحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام، لكنه بعد قضائه نصف المدة في السجن، يخطط لنفسه محاولة للهروب من السجن. ويقرر بعد دراستها ورشوة أحد عمال النظافة أن ينفذها بعد يومين. وحين يأتي اليوم الموعود يصحو زيد من نومه منتفضاً على رنين جرس متواصل في ممر العنبر. يرفع عن جسده بطانيته الخضراء وينهض من فراشه فيرى رفاق زنزانته يقفون ملتصقين بالقضبان المصبوغة باللون الأزرق الغامق كلون جواز السفر الكويتي الحالي، ينادون رجال الأمن وهم يهزون القضبان بقوة تؤلف ضجيجاً يتردد صداه ملء العنبر ممتزجاً بأصداء قضبان الزنازين المجاورة. يسمعهم يصرخون، ويشتمون. ثم يأتي ضابط ومعه مجموعة من رجال الأمن ويقومون بفتح زنازين عنابر السجن المركزي ليتمكن السجناء من الهروب بعد نشوب حرب بين العراق والكويت. وتتصاعد أحداث الرواية في الحرب التي تستمر بين البلدين لأسابيع، تختفي فيها نجوى وتنقطع أخبارها، فلا هي في بيت أبيها، ولا هي في شقة خالتها ميسون التي اعتادت أن تزورها بشكل يومي، وتتشرد فيها أسرة زيد. فيهيم زيد على وجهه بحثاً عن أفراد أسرته وعن فتاته التي ضاعت في إمارة خاوية على عروشها. وبعد انتهاء الحرب التي وقعت بين رجال السياسة يحدث الصلح بين

البلدين. ويصاب الشعب بلوثة سياسية، طائفية، عرقية، قبلية، تحرم زواج زيد الكويتي بنجوى العراقية. بعد سؤاله عنها في المخافر والمستشفيات وعثوره عليها في مستشفى العظام بعد تعرضها لكسر طفيف في ساقها اليمنى في الأيام الأخيرة من الحرب، يتمكن زيد من تأجير شقة فخمة في إحدى المناطق السكنية المرموقة في الكويت بعد نجاحه في التجارة مع صديق عمره راشد، وبعد انتعاش أوضاع البلد. ولكنه في النهاية يفاجأ برفض عائلته ارتباطه بفتاة عراقية. ويعيشان معاً التصاعد الثاني في الرواية، حيث لا يجد زيد ونجوى اعترافاً من المجتمع بحبهما، بعد أن عاشا سنواتٍ يبحثان عن مكان يجمعهما. وتنتهي الرواية في مشهد كتبته برؤية سينمائية، حين جعلت بطلي روايتي زيد ونجوى يلتقيان في سيارة زيد الجديدة التي اشتراها بعد الحرب وألصق على نافذتها الخلفية صورة للحاكم وولي عهده الأمين كما فعل قبل دخوله السجن، ليحجب بالصورة الرؤية من خارج السيارة. وفي هذه الجلسة الحميمة في السيارة، يمارسان الحب للمرة الأولى في مكان لا يُسمح للسيارات بالوقوف فيه. ويتم رفع السيارة من قبل سيارة وزارة الداخلية وهما نائمان داخلها كأنهما في ليلة الدخلة. وحين يفتح زيد عينيه، يقبل نجوى النائمة على صدره. تنتهي الرواية وهو يمسح بيده على شعرها بهذا المقطع الذي أردت أن أترجمه لجوْيس حين طعنتني بسؤالها المفاجئ: «تحت أي حكم أنتم؟»:

الشمالُ... مالُنا الذي سُرق منا.

والجنوبُ... نُوَبُنا التي تراكمت.

والشرقُ... شَرَقُنا بالماء والنفط.

والغربُ... غُربتنا.

وهذه الدولة سجننا الأكبر!

لا بد لي من الإشارة هنا إلى أن جدي عارف هو الذي قال جملته الشهيرة آنذاك في جلسة جمعته ببعض أفراد العائلة والأصدقاء، واتهمه المحيطون به بعد إبداء رأيه بالحرب العراقية الإيرانية بالانحياز إلى إيران، على الرغم من تغنيه الدائم وإيمانه الصادق بالقومية العربية ودفاعه عنها. قال جدي:

ـ الكويت اليوم، مع العراق ضد إيران. وغداً، مع إيران ضد العراق. وبعد غد، مع نفسها ضد نفسها!

لقد تنبأ جدي عارف قبل وفاته وقبل انتهاء الحرب العراقية الإيرانية بعام واحد، في سنة ١٩٨٧ بدخول صدام حسين إلى الكويت، وقد تحققت نبوءته بعد وفاته بعامين. كنت قبل تحققها بثلاثة أعوام طالباً في الصف الثاني الثانوي. واشتعلت في ذهني شرارة كتابة روايتي الأولى. كنت أسعى إلى كتابة رواية تنطلق من نبوءة جدي. وكتبتها بالفعل، لكنني مزقتها بعد انتهائي من كتابتها الرابعة، لأنني لم أقتنع بنضجها الفني.

حدثتُ جوْيس عن أهم المحطات في حياتي بعد خروجي من الكويت في سيارة شيفروليه برتقالية موديل ١٩٨٦ يملكها مواطن سعودي مقيم في الكويت، اسمه جزاع، حولها إلى سيارة أجرة بعد طرده من الوظيفة بسبب نصبه واحتياله على مديره في العمل. خرجتُ معه من الكويت إلى الدمام، وكنت أحمل حقيبة سفر متوسطة الحجم، جمعت فيها سبعة قمصان وثلاثة بنطلونات وعدداً من الجوارب والغيارات. ولم أنس طبعاً حمل أدوات استحمامي معي، كالليفة البنية الخشنة، وصابون الغار، وفرشاة أسناني، والأعواد القطنية، وماكينة الحلاقة، والعطور. لكنني نسيت أن أضع في الحقيبة معجون الأسنان! قبل وصولنا إلى الجسر المؤدي إلى الدمام، طلبت من جزاع أن يتوقف عند محطة الوقود التي سنصل إليها بعد خمسة كيلومترات، لأنني أريد أن أستأجر غرفة في الفندق الصغير فيها، تقع محطة الوقود في استراحة الطريق الجانبية التي تضم مسجداً صغيراً ودكاناً لبيع المواد الغذائية، وفي الناحية الأخرى من الاستراحة يوجد صفان مستطيلان متوازيان لخزانات الوقود. انعطف يميناً، وأنزلني عند الفندق الصغير، ولم يكن الفندق فندقاً، بل كان مكاناً يشبه الموتيل أو البنسيون. ولا أعلم من الذي أعطاه رتبة فندق. أخرجتُ حقيبتي من صندوق سيارة جزاع وشكرته لتقديمه عرض نقلي من الكويت إلى الدمام مجاناً. لم يكن في محفظتي إلا القليل من المال. المبلغ الموجود لدي لا يكفي لشراء تذكرة سفر أو

الإقامة في فندق فخم. حين رأيته يخرج بسيارته من الاستراحة، حملت حقيبتي وسرت في اتجاه المسجد الصغير. دخلت من الباب وكنت أتوقع أن أرى حارساً أو شخصاً جالساً، أسندت حقيبتي إلى عمود دائري في الجهة اليسرى من المسجد قرب دورات المياه ومكان الوضوء، ودرت في ممرات المسجد، فلم أرَ أحداً في المكان. عدت إلى حقيبتي، حملتها ودخلت إلى المسجد. الساعة تشير إلى التاسعة والنصف مساءً، ينبغي عليَّ أن أنام الآن لأستيقظ قبل أذان الفجر لئلا أُطردَ من المسجد كما طُرِدَ جدي منه في اليوم الذي ولدت فيه!

أطفأتُ أضواء المسجد الداخلية ثم وضعت رأسي على حقيبتي، واستسلمت لنوم عميق، قرب مصحف كان مفتوحاً على سورة الكهف. لم أمكث في المسجد كما مكث أصحاب الكهف والرقيم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً، لأنني صحوت من النوم بعد خمس ساعات جائعاً ككلبهم الذي كان باسطاً ذراعيه بالوصيد!

فتحت حقيبتي وأخرجت منها المنشفة وفرشاة الأسنان وبعض الغيارات، وسرت إلى دورة المياه في حوش المسجد. لقد كان الاستحمام في دورات المياه من أصعب الأمور التي واجهتها في حياتي. وما كنت سأقدم على فعل ذلك لو كنت أملك من المال ما يتيح لي حجز حجرة في فندق جيد لأنام وأستحم كما يليق بي. حين خرجت من دورة المياه، كنت ألف المنشفة

حول رأسي، جاءني صوت من ورائي:

ـ الفجر بعد ثماني دقائق، هل سترفع الأذان، أم أرفعه أنا؟

في حالات التوتر، أو الاضطراب النفسي، أو الغضب، أو الخوف من أمر ما، يقول الإنسان: نعم، إن كان يريد النطق بكلا، ويقول: كلا، إن كان يريد النطق بنعم. أجبته من دون أن أستدير لأرى وجهه:

ـ نعم، سأرفع الأذان.

قال كأنه تخلص من عبء أو مسؤولية رفع الأذان:

ـ جزاك الله خيراً.

حين التفتُّ قليلاً إلى الوراء، شاهدت الرجل الذي وجَّهَ إليّ السؤال المفاجئ يسير نحو باب الخروج الرئيسي. ركضت إلى داخل المسجد، وفتحت الحقيبة وأخرجت منها قميصاً وبنطالاً، ارتديتهما بسرعة متوخياً الحيطة والحذر بعد أن خلعت البلوزة التي ارتديتها قبل النوم والبنطلون الخفيف. ثم أغلقت الحقيبة وحاولت إخفاءها خلف الباب. بخطى وئيدة دنوت من المحراب، وكان المايكروفون ملقى على الأرض في صف المصلين الأمامي، حملته بيد مرتجفة وفتحته، ثم نظرت إلى الساعة، لا أدري إن كانت الدقائق الثماني قد مرت أم لم تمر، وهل حان الآن موعد رفع أذان الفجر أم لم يَحِنْ بعد. تذكرتُ في اللحظة التي كنت فيها واقفاً في استعداد نفسي كامل لرفع

الأذان أني لم أتوضأ بعد استحمامي السريع وخروجي من الحمام. لم أسمح لنفسي برفع الأذان وأنا لست على وضوء. أغلقت المايكروفون وخرجت إلى دورة المياه، توضأت ثم رجعت، وحين دخلت المسجد لم أجد أحداً جاء للصلاة. مشيت في خط مستقيم إلى المحراب، وحملت المايكروفون، ثم أخذت نفساً عميقاً، ورفعت الأذان. كان رفع الأذان في تلك اللحظة، أهم حدث في محطة غربتي الأولى قبل السفر إلى الأردن.

حين بدأت أعي المعاني الظاهرة للأذان منذ الطفولة، أدركت في ما بعد أن للأذان فلسفة، وأن له عمقاً ظاهرياً، وعمقاً باطنياً. لم أتيم بصوت محمد صديق المنشاوي، إلا للتقارب والتشابه الكبيرين بين صوته وصوت الشيخ حمزة، عشت أتخيل شكل صوته، أفتح شباك غرفتي وأوجه نظري إلى السماء وهو يرفع الأذان. كان أذانه يرفع عن قلبي غشاوات وغشاوات، ينفذ في أعماقي كسهم يداوي جرحاً بجرح. عرفت من حديث جدي عن الشيخ حمزة أنه من جيل المرحوم أبي. كانت عمتي بسمة تلحّ على جدي أن يأخذني إلى المسجد، لكن جدي كان يرفض طلبها، ويعتذر عن عدم قبول دعوات المصلين الذين كانوا يطرقون عليه الباب في كل جمعة قبل الصلاة.

لقد تربت أذناي منذ الصغر على سماع الأذان بصوت الحاج

الشيخ حمزة، القادم من مئذنة المسجد الذي كان يقع خلف بيت جدي في الدسمة. كنت معجباً بصوته الرخيم وطريقة أدائه الشجية في رفع الأذان. كنت حين أصغي بأذنيّ وجوارحي إلى صدى «الله أكبر»، أحلّق بجناحين مع الطيور والملائكة، وأشعر بزلزال من الرهبة يتفجر في عمائقي. كنت أرى امرأة حسناء لا أعرفها عندما أغمض عينيّ في لحظات رفع الأذان. عرفتها بعد ظهورها المتكرر لي. وجهها أبيض كالثلج، وعيناها كوكبان دريان، أما شعرها المنسدل على كتفيها فقد كان مسرفاً في نعومته. تظهر لي دائماً وهي ترتدي فستاناً أبيض طويلاً كأنه فستان عروس، وكانت عليه من جهة الصدر والذراعين فصوص شذرية، كأنها من الأحجار الكريمة التي لم توجد على كوكب الأرض، وعلى رأسها تاج مرصع بالألماس البرزخية. لقد عشقت الأذان لارتباطي بتلك المرأة التي عرفت في ما بعد بأنها أمي، بعدما قصَّت عليّ عمتي بسمة قصة حياتي وكنت في التاسعة أو العاشرة من عمري، إذ أخرجت ذات يوم من درج تسريحة غرفتها مظروفاً يضم مجموعة من الصور. ثم جاءت لتجلس بجواري على سريرها الكبير. وكنت ألعب بمسدسي المائي الذي أهداني إياه جدي في عيد ميلادي التاسع في سنة ١٩٨٠. قالت وهي تُخرج الصور من الظرف وتفتح لي ذراعيها لاحتضاني:

ـ وليدي عارف. تعال إلى هنا.

كانت تُدخل أصابعها في شعري الناعم الذي ورثته عن أمي كما أكد الجميع، وترفعه عن عينيّ، ثم تعيد حركتها وهي تطلعني على الصور، ثم تقلبها لتقرأ ما تم تدوينه عليها من الخلف، كالتعليق، أو التاريخ. رأيت صوراً لجدي وأبنائه، عمي جاسم، وعمتي بسمة، وعمتي أمينة، وأبي في طفولتهم. قالت وهي تشير بإصبعها على الأشخاص الموجودين في إحدى الصور، وكانت بالأبيض والأسود:

ـ انظر إلى هذه الصورة يا عارف. هل تعرف هذه الطفلة الصغيرة؟

قلت:

ـ لا.

ولم أكن حين قلت لا، قد دققت جيداً في ملامح تلك الطفلة الصغيرة التي كانت تجلس على رُكْبَتَيْ أبيها، مرتدية فستاناً رأيت لونه في الصورة أسود، لكنه في الأصل أحمر، كما قالت عمتي في حديث دار بيننا عن ذكرياتها من زمن الطفولة، وعن فساتينها التي بقيت محتفظة بها حتى بعد زواجها. كانت تتمنى أن ترى بناتها يرتدين فساتينها، لكن الله لم يرزقها البنات ولا البنين، فظلت تلك الفساتين حبيسة الأكياس والحقائب. حركت إصبعها على الأشخاص الستة في الصورة وكررت سؤالها إن كنت أعرفهم، وكنت أجيب في كل مرة تسألني فيها، قائلاً:

ـ لا.

لكنني سرعان ما اعتدلت في جلستي، وأمسكت الصورة بيدي ورحت أمعن النظر فيها حين قالت:

ـ هذه الطفلة هي أنا.

لم أصدق أن الطفلة الجالسة على ركبتي جدي هي عمتي بسمة، إذ لم أر طفلة في حياتي أجمل من عمتي بسمة في طفولتها حتى وأنا في أوروبا. جمالها في صغرها جعل والدتها تخاف عليها كثيراً من العين والحسد، فلم تكن تسمح لها باللعب مع أترابها خارج حدود المنزل. روت عمتي أنها خرجت في عصرية النصف من شعبان من البيت تحمل صينية دائرية كبيرة صفت عليها مجموعة من الأطباق النحاسية الصغيرة لتوصيلها إلى الجيران. كانت جدتي فوزية هي التي أعدت تلك الأصناف من الحلوى، كالحلاوة الطحينية والخنفروش واللقيمات، ووزعتها على الأطباق النحاسية، وطلبت من عمتي أن تستعد لحمل الصينية. فرحت عمتي بما أوكلته جدتي إليها، ولم تصدق أنها ستخرج من البيت. لقد خرجت بالفعل، وتحقق حلمها الأكبر، كان شعرها البني الناعم طويلاً، يصل إلى نهاية ظهرها حين تتركه مُرخىً، أما بشرتها البيضاء فقد كانت تكسر عين الصقر كما يقول جدي. عندما انتهت عمتي من توزيع الحلوى، عادت في طريقها إلى البيت وهي تمشي في نشوة طفولية أضفت على مشيها إيقاعاً مسموعاً ومرئياً، حتى كأن فرحها العارم قد جعل خطواتها تبدو كأنها خطوات

راقصة باليه. مرت بالبيوت الطينية بين السكك والأزقة الفقيرة والأحياء السكنية، واجتازت الدكانين الصغيرين اللذين كان يملكهما صديق جدي العامر لبيع الفواكه والخضروات. ومالك الدكانين هو جار جدي وصديقه وجد الفتى الذي تسبَّبَ في طرد جدي من المسجد. وحين وصلت عمتي إلى البيت، وفتحت الباب ثم دخلت، عثرت بصخرة كان يستعين بها جدي لترك الباب مفتوحاً من خلال إسنادها إلى الباب في مساء كل خميس لاستقبال ذوي القربى وبعض الأصدقاء والجيران. بعد أن تبين لها أن الدم قد بدأ يسيل من ركبتها بعد سقوطها راحت تبكي، وأحدث ارتطام الصينية النحاسية جلبة أفزعت من في البيت، كانت جدتي فوزية تحمل المبخر وتطوف به في أركان المنزل، وحين سمعت بكاء ابنتها عند الباب، سقط المبخر من يدها، وانتثر الجمر والبخور على الأرض. هرعت إليها خائفة وجلست بجوارها، فيما راح يلهج لسانها بالمعوذات. قالت بعد انتهائها من تلاوة ما تيسر لها من القرآن والأدعية وهي تمسح على شعرها:

ـ إنها عين لم تصلِّ على النبي!

في الوقت الذي كانت فيه عمتي تكتم صراخها وهي تضغط على ركبتها من شدة الألم. أردفت جدتي:

ـ يا إلهي، لماذا لم أطلب من خالد أو جاسم أن يوصلا الأطباق إلى الجيران.

نهضت، ثم جاءت تحمل قدحاً صغيراً من الماء البارد. سكبت القليل منه في يدها، ورشَّت به وجه عمتي وهي تقول لها:

ـ اشربي يا حبيبتي، اشربي.

كررت طلبها حين أدارت عمتي رأسها رافضة شرب الماء:

ـ اشربي يا روح ماما.

أخبرتني عمتي عن ذلك اليوم الذي رأت بعينيها كيف تجسد إزاءها حب أمها، وعطفها وخوفها عليها، وكيف أن جرحاً صغيراً في ركبتها جعلها تسيل دم أربع دجاجات وبطتين، وتكسر عند مدخل البيت عشرين بيضة لدفع الشر عنها. ثم توصي جدي الذي لم يكن في الوقت الذي سقطت فيه عمتي موجوداً، بأن يكمل عملية كسر ما بقي في سلتها من البيض حول المنزل من الخارج. حين جاء بعد صلاة المغرب، نادى جدتي من عند الباب ووجه سؤاله إليها حين رآها تخرج من المطبخ:

ـ ما كل هذا البيض يا فوزية؟

قطعت جدتي سؤاله قائلة:

ـ ألم تعلم بما وقع يا أبا خالد؟

خاف جدي من أن يكون عمي جاسم ـ المراهق حينها ـ قد قام بمغازلة إحدى بنات الجيران كعادته وتسبَّب في مشكلة أثناء غيابه عن المنزل، قال غاضباً:

ـ وأنّى لي أن أعلم؟ قولي لي ماذا جرى يا فوزية؟ وهل لهذا الكم الهائل من البيض المكسور علاقة بجاسم؟

قصت عليه ما حدث لعمتي بسمة، فقال في نبرة حازمة:

ـ يا فوزية، لم تعد بسمة صغيرة كما كانت. البنات في زمني كن يتزوجن وهن في مثل هذه السن. ما كان ينبغي لك أن تتركيها تخرج بمفردها لتوصيل الأطباق إلى الجيران، وأنت التي كنت تمنعينها من اللعب بالقرب من الباب خوفاً عليها.

لم يكن يناديها بفوزية إلا إذا كان يريد أن يمسك بنفسه العصا لإدارة شؤون البيت. وهذا ما فعله، حيث ترك لها الاهتمام بتربية أبنائها من الناحية النفسية من خلال توفير البيئة الآمنة والجو المشحون بالعاطفة، واهتم هو بالجانب التعليمي في تدريس أبنائه وتثقيفهم. وكلاهما نجح في ذلك.

كانت الصورة العائلية التي التقطت في سنة ١٩٤١ تضم شابين واقفين في الخلف هما أبي خالد، وعمي جاسم، ورجلاً في الستين من عمره، يجلس على كرسي يتسع لشخصين، هو جدي عارف، بدشداشته البيضاء، وغترته المرسلة، وعقاله المربع الذي كان رائجاً في تلك الأيام وعلى ركبتيه تجلس عمتي بسمة. وبجانبه على الكرسي نفسه تجلس امرأة في منتصف الثلاثين من عمرها هي جدتي فوزية، بسترة سوداء ذات أزرار فضية وتنورة طويلة، وعن يمينها في الصورة تقف

فتاة شاحبة الوجه هي عمتي أمينة. وجدتي فوزية سلطان الثامر هي ابنة خال جدي. تصغره بخمسة وعشرين عاماً، فقد ولدت في سنة ١٩٠٦ وكانت آخر العنقود من أصل ستة أولاد وثلاث بنات. أحبها جدي وطلب يدها من خاله حين كانا في رحلة صيد. فما كان من الخال سلطان الثامر إلا أن يوافق من دون شروط لمعرفته وثقته بعارف نجل أخته الصغرى جواهر. تم الزواج في اليوم الثالث من شهر ديسمبر في سنة ١٩٢٦، وكان عمر جدي آنذاك خمسة وأربعين عاماً، أما جدتي فقد كانت في العشرين من عمرها. لم يتزوج جدي كبقية أصدقائه في ريعان شبابه لأسباب كثيرة، من بينها، سفره الدائم إلى الهند وعمله في البحر وعدم استقراره في مكان معين. وقد ورث أبي عن أبيه هذه العزوبية الطويلة، فلم يتزوج إلا بعد بلوغه الثالثة والأربعين من العمر في مطلع سنة ١٩٧٠. وأبي هو الابن البكر لأبويه. كان من مواليد سنة ١٩٢٧، وُلِدَ بعده بثلاثة أعوام عمي جاسم الملقّب في مراهقته وشبابه بالدونجوان، ثم بالأعزب الأكبر لأنه مات ولم يتزوج. ثم ولدت عمتي أمينة بعد عمي جاسم بعامين. وبعد مرور أربعة أعوام على ولادة عمتي أمينة، خرجت إلى الدنيا عمتي بسمة في سنة ١٩٣٦. أولئك هم أبطال الصورة التي أخرجتها عمتي من الظرف. أما الصورة الثانية، فهي التي غيرت مجرى حياتي منذ اللحظة التي رأيتها فيها، إلى الدرجة التي أخرجتني فيها من طفولتي بوصفها حلماً، إلى الواقع الذي لم أكن أتخيله. فكأن الأحلام الوردية

قد باشرت عملها بتغيير جلدها بجلد أفعى، وتبديل لونها الأبيض بلون رمادي، لون ليست له هوية محددة. وهذا ما جعلني أؤمن بأن الوهم هو وليد الحلم المعاق، الحلم المقعد. إذ لا يمكن للوهم أن يوجد لولا وجود الحلم. وإن الأحلام التي لا تتحقق، تتحول بعد مرور الزمن إلى أوهام تفتك بصاحبها الإنسان. الخلاصة هنا، هي أن الأحلام تشبه تلك الأشجار التي تقتلع من غاباتها، ولا تعلم عن مصيرها ومستقبلها شيئاً، ولو أنها علمت، لكانت الحرب قد قامت ولم تقعد بينها وبين الإنسان. إنني أحترم الأشجار التي يصنعون منها بعض السفن والمراكب، لأنني أعشق الخشب في تحوله إلى قدر متحرك يحيله إلى أدوات متحركة، ولا أشعر به إطلاقاً في تحوله إلى قدر ثابت يحيله إلى أدوات ثابتة. كانت الصورة الثانية بالنسبة إليّ نهاية مرحلة عشتها، وبداية مرحلة جديدة لم أعشها، أو بعبارة أخرى، لم أكن مستعداً لمواجهتها أو للتأقلم معها وفيها. قد يحتاج المرء في بعض الأحيان إلى أن يمارس دهاءه مع نفسه وعليها، قبل ممارسته مع الآخرين وعليهم. فالدهاء نوعان: دهاء في مقدورنا أن نستخرجه من باطن النفس لاستخدامه كسلاح دفاع مع النفس ضدها. ودهاء يكتسبه المرء بالفطرة. والنوع الثاني هو النوع المنتشر بين البشر منذ الأزل. لقد أدركت أن وقع الحقيقة على الطفل الصغير، أشد وأقسى من وقعها على الشخص الكبير الناضج. فالطفل يرى الحقيقة كما هي نقية وواضحة، ويعيشها باستمرار كأنها لعبته، حتى

وإن لم يتمكن من التعبير عن إحساسه بها. قد تأتي الدموع أحياناً، أو الصراخ، أو حتى الإفراط في الإزعاج، كردود أفعال طبيعية لما يعتمل في دائرة الطفل النفسية من مشاعر واضطرابات تحت تأثير الحقيقة. أما الشخص الكبير الناضج، فإنه يرى الحقيقة من وراء حجاب، بمعنى أنه لا يراها بشكلها ومضمونها اللذين يرفعان عن عينيه الغشاوة، ويتيحان له المجال ليعبر ببصره وبصيرته إلى كنهها كحقيقة. وإن التذمر والعتب في تكوين الإنسان ناتجان من عدم إيمانه بالحقيقة. والحقيقة التي تجرعتها كانت حقيقة كاملة، حقيقة من العيار الثقيل. الحقيقة في الصورة، والصورة في الحقيقة. إنها الصورة التي أصبحت كنقطة في ختام جملة الطفولة، وكلمة في بداية سطر الوعي. راوغت كثيراً لكي أحتفظ بما لم أكن أعرفه لئلا أفقد توازنيّ أمام محاولاتي لرسم شخصيتي. أبدعت في مراوغتي، ثم أخفقت لعلمي بأن للحقيقة وجهاً واحداً، وجهاً يلاحقني ويلاقيني أينما يممت وجهي. وحين أرادت عمتي بسمة أن تختار الوقت المناسب للحديث معي حول هذه الحقيقة، أخرجت الظرف، وجلست بجواري. واختارت أن تتدرج في سُلَّمِ الحقيقة، فبدأت بصورة عائلية، ثم أخرجت الصورة الثانية التي كانت لأمي. ولم أكن أعرف قبل رؤية تلك الصورة أن للفطرة يداً تسحب روح الإنسان إلى أمه، حتى وإن لم يكن قد رآها. أمسكت صورتها، وقلت لعمتي قبل أن تبدأ بالتعريف عن صاحبة الصورة:

ـ أعرفها، إنها المرأة التي أراها كلما أرهفت سمعي إلى الأذان.

كأني أردت أن أقول لها: جاء دوري، أنا الذي سأحدثك عنها. لكن الحقيقة لم تكن كاملة لدي، لأنني لا أعرف اسم تلك المرأة، ولا أملك معلومات كافية عنها وعن صلتها بي. عندي نصف الحقيقة، ونصفها الآخر عند عمتي وبقية أفراد العائلة والجيران والأصدقاء والمجتمع. نظرتْ عمتي إلى الصورة ثم وجهتْ نظراتها إليّ وعادتْ تنظر إلى الصورة مرة أخرى، وهي تقول:

ـ لقد أخذتَ عينيها، ودقة أنفها، ونعومة شعرها.

لم أكن في سن التاسعة أو العاشرة خبيراً بما يسمونه علم الوراثة. كبرت وعرفت أن هناك مرضاً وراثياً، وقدراً وراثياً، وأموراً وراثية أخرى، وحُكماً وراثياً بلا شك! أكملتْ عمتي كلامها:

ـ اسمها مريم.

أمسكتْ عن الكلام قليلاً، ثم استدركتْ:

ـ ماما مريم. إنها تحبك، وتخاف عليك كثيراً.

استطاعت عمتي بفضل ذكائها وفطنتها أن تحتويني وتشد انتباهي في حوارنا المشترك عن أمي، ماما مريم. ومن النادر جداً، أن نرى عمة تعطف على أبناء أخيها وتحب أمهم حباً خالصاً لا

تشوبه الشوائب كما فعلت عمتي وهي تتذكر زوجة أخيها، أمي. أحسست بأنها كانت تنتقي كلماتها بعناية وهي تقص عليّ قصتي. شعرت في الوقت نفسه بأني أولد ولادة ثانية، وبأن طفولتي قد وضعت في فرن الحياة وآن لها أن تهرب مني وتغادرني. انقطع ظهور أمي لي في أوقات الأذان بضعة أيام، ولم تزرني في أحلامي التي تحولت بعد مفاتحتي بالحقيقة إلى كوابيس طفولية، وصرت أسير في نومي، أنهض من فراشي وأخرج من حجرتي، أرتقي السُّلَّمَ الحلزوني إلى الطابق الثالث، إلى الغرفة التي كانت لأبي وأمي قبل رحيلهما، أحاول فتح بابها المقفل من خلال تحريك مقبضه الذهبي بقوة من دون جدوى، وكان يخرج عمي جاسم من غرفته في الطابق نفسه ويحملني إلى سريره في كل مرة أمشي فيها نائماً إلى غرفة أبي وأمي، لأكمل نومي على سريره الذي كنت أتقزز وأشمئز من رائحته الكريهة، فيما يبقى هو ممسكاً بسماعة الهاتف، غارقاً في الهمس والغزل. وفي ليلة من الليالي قمت بالسيناريو نفسه، فلم يخرج عمي جاسم من غرفته كما اعتاد لنجدتي. كانت عمتي في تلك الليلة تجلس في الصالة، راقبتْ خروجي من غرفتي إلى الطابق الثالث، وتبعتني، حتى رأتني أطرق باب غرفة المرحوم أخيها / والدي، فاحتضنتني ولم تدرك أني كنت نائماً. استيقظتُ بغتة لأجد رأسي على صدرها. وقبل أن تأخذني لنهبط السلم الحلزوني إلى غرفتي في الطابق الثاني، طرقت عمتي باب غرفة أخيها جاسم وكنت أقف بجانبها نصف

نائم، ثم فتحته وقد نسي عمي في تلك الليلة أن يقفل بابه بالمفتاح، فشهقت شهقة جعلت عمي يسقط من سريره على الأرض من هول الصدمة، حين رأته في فراشه مع امرأة غريبة عارية! ثم صرخت في وجهي:

ـ اذهبْ إلى غرفتك يا عارف.

لم أستطع تفسير خوفي في تلك الآونة. أكنت خائفاً من عمتي أم من عمي أم من وقوفي؟ إذ لم أتحرك قيد أنملة من مكاني. فصرختْ ثانية:

ـ ألم تسمع ما قلته؟ هيا تحرك.

دفعتني في اتجاه السلم، فعدت إلى غرفتي بعد أن طار النوم من عينيّ. أردت أن أبكي في نزولي إلى الغرفة، لكنّ رغبتي في البكاء لم تكن تلح عليّ، لم أجد سبباً واحداً للبكاء. قد يكون غضب عمتي وحده سبباً مقنعاً بالنسبة إليّ للبكاء والنشيج أيضاً، ولكنني عدلت عن فكرتي. وتغلبت على دموع الطفل في داخلي. لو كنت في مثل هذه السن ورأيت ما رأته عمتي، لتصرفتُ كما تصرفتْ، وطلبتُ منها الانصراف، لأتولى بنفسي تربية ذلك العم المعتوه الذي كان أول نقطة سوداء في حياتي. حين عدت إلى غرفتي، سمعت صوت المؤذن الحاج الشيخ حمزة يرفع أذان الفجر، أغمضت عينيَّ ورحت أستحضر وجه أمي، وفشلت في جميع محاولاتي المتكررة. اضطجعت على جنبي الأيمن، ثم بدأت أشعر بالبرد، غطيت جسدي ووجهي

باللحاف، فاختنقت، ثم انقلبت على جنبي الأيسر. كنت أحدق في الفراغ، كما لو أنني كنت أنتظر شيئاً، انتظرته عمراً، ولكنه لم يأتِ، وغبت في ضباب النوم بعد شروق الشمس. أحقاً طلعت الشمس في اليوم التالي، أم احتبست في صدر السماء كحسرة مكبوتة؟ أحقاً طرد عمي من البيت لأنه لم يحترم بيته وأسرته، أم ماذا جرى... ولماذا؟ سألت عمتي عن المرأة التي رأيناها في غرفة عمي، فلم تقنعني إجابتها حين قالت بصوت خافت رتيب:

ـ إنها زميلته في العمل!

ظننت قبل تعقيب عمتي أن عمي قد تزوج، ولكن ظني لم يكن صحيحاً. أجل، كنت أكره عمي لأنه كان فظاً غليظ اللسان والمشاعر، مرَّ الطباع، وكرهت رائحة الويسكي في ما بعد لأنها كانت تذكرني دائماً برائحة فراشه. وعلى الرغم من ذلك كله، لم أسئ الظن به حينذاك. في اعتقادي أن بعض ظن الأطفال ليس إثماً، لأن ظن الطفل يختلف تماماً عن ظن الكبير. فالطفل في ظنه بالشخص، يفصل ـ لاإرادياً ومن دون أن يجتهد في ذلك ـ بين مشاعره نحو الشخص الذي انعقد عليه ظنه، وبين واقعية الأمر الذي عرفه أو الحدث الذي شاهده. عندما فتحتْ عمتي باب الغرفة وسقط عمي، ثم بدأتْ تصرخ وتُوَلول، لم أفهم المشهد الذي رأيته، لأنني كنت طفلاً أقتات ببراءتي، فلم أرَ عمي مخطئاً حتى وأنا أرتعد خوفاً ووجَلاً من

غضب عمتي، ففي اللحظة التي ظننت أنه قد تزوج، فصلتُ بين شعوري بالكراهية والموقف. أي أن عقلي هو المتحكم الأول بي وهو المسؤول المباشر عن ظني كطفل. أما الكبير، فإنه يبني ظنه على ما يُضمره في قلبه من مشاعر. لم يكن عمي جاسم صغيراً حين طرده جدي من البيت، فقد كان في الخمسين من عمره. وحين وجدوه ميتاً في شقته بعد مرور عامين على خروجه من البيت، لم يذهب جدي إلى المقبرة، ولم يستقبل المعزين.

كنت أسرد لجوْيس كل ما وقع عليّ في سنوات عمري، مررنا بفندق فولتير مكان لقائي الأول بها، وبعائشة، وتوقفنا عند الجسر المؤدي إلى متحف اللوفر، أشارت بيدها من دون أن تتكلم إلى الكرسي الخشبي المطل على النهر، كأنها تسألني إن كنت أحب الجلوس في هذا المكان، أومأت برأسي موافقاً، وجلسنا ننظر إلى المراكب السياحية التي تمخر النهر ذهاباً وإياباً والمشاة في الضفة الأخرى من النهر. سألتني عن علاقتي بالمرأة التي كانت تجلس عن شمالي في حفلة عائشة، وكانت تعني روزيندا. أخبرتها بأنها زميلتي في متحف رودان. سألتني عن المرأة في حياتي فقالت:

ـ ما الذي يجذبك في شخصية المرأة؟

أجبتها من دون تفكير:

ـ تفاهة المرأة.

لم تتوقع إجابتي فقالت:

ـ أأنت صادق فيما تقول؟

بدأت أسترسل:

ـ إن اهتمامي بتفاهة المرأة التي أحبها، يتجاوز اهتمامي بثقافتها. فأنا لا أبحث في حياتي عن امرأة تحدثني عن رأيها في انتحار فيرجينيا وولف. ولا أنتظر منها أن تحلل لي شخصية الرئيس الأميركي في خطابه الأخير. إن كلام حبيبتي عن قطتها المدللة، أو ظفرها المكسور بعد محاولتها فتح باب الثلاجة، أهم عندي من جميع مؤلفات المفكرة الألمانية التي أُجلُّها هانا آرانت. إن لم تستطع المرأة أن تحول بيتي إلى مسلخ عاطفي فلا أستطيع أن أكوّن معها مؤسسة أسرية. لا بد من أن يكون هناك تلقيح من نوع آخر بين الرجل والمرأة، فهناك أيضاً حيوانات منوية في حاجة إلى الخروج من الرأس من خلال أعضاء أخرى في جسد الإنسان كالعينين واليدين والشفتين، ولكِ أن تطلقي عليها ما تشائين من التسميات.

ضحكت جوْيس طويلاً وهي تقول:

ـ عارف، أنت مجنون! ماذا تقول بحق يسوع؟ كيف تطلب مني أن أتخيل نظرية الحيوانات المنوية التي تريد أن تخرج من العينين؟!

ـ وما الغريب في النظرية يا صديقتي؟

ـ نظريتك غير واقعية على الإطلاق.

ـ قد تبدو لك النظرية غير واقعية، ولكن حاولي أن تتأملي معي التحام يدك بيدي، والتقاء شفتيك بشفتي.

قاطعتني وهي تقرص خدي ضاحكة:

ـ أنت مشاكس!

أكملت شرح نظريتي:

ـ إن في التحام تلك الأشياء والتقائها ببعضها حيوانات منوية غير مرئية. تخرج وتحتويها بويضة غير مرئية أيضاً. وما الحديث المعاد عن الحب منذ النظرة الأولى إلا دليل على كلامي. النظرة الأولى هي الجماع الأول بين عيني الرجل والمرأة، واللمسة الأولى بينهما هي الجماع الأول بين اليدين، والقبلة الأولى هي الجماع الأول بين الشفتين.

طال بيننا الحديث وتشعب، سألتني عن قراءاتي وفلسفتي في الحياة، فقلت لها:

ـ يحمل الشعراء والفلاسفة أقلامهم كما يحمل الجنود أسلحتهم وذخائرهم في ساحة الوغى. يرسم الفريق الأول الطريق لينتهجه الفريق الثاني. فإذا دقت ساعة العمل ولم يتحد الفريقان في نقطة الانطلاق، فسوف يقف الشعب وحده عارياً على منصة المؤامرة، وسوف يُرجم من الداخل والخارج. إن المسؤولية التي يتحملها الشاعر أو الفيلسوف أكبرُ بكثير من

المسؤولية التي يتحملها الجندي على أرض الواقع. فقد وُجد الجندي لمراقبة الحدود، بعد ترسيمها من قبل أصحاب النفوذ والنقود، أما الشاعر والفيلسوف فإنهما وُجدا لفهم وقراءة ومراقبة سلوكيات الوجود. هكذا أنظر إلى الحياة.

طرحت عليّ جوْيس سؤالاً بدا لي مهماً:

ـ ما الفرق ما بيننا وما بين سقراط ورفاقه؟

ـ الفرق ما بيننا بسيط جداً يا جوْيس، هو أن الأستاذ سقراط ورفاقه على سبيل المثال كانوا يتأملون النبات، أما نحن فإننا ندخنه فحسب!

اعتدلت في جلستها وقالت:

ـ هل ستجيبني بصراحة عن سؤالي؟

ـ أي سؤال؟

وكان سؤالها ساذجاً جداً:

ـ لماذا لا تحترم بلادكم العربية حقوق الحيوان؟ لقد شاهدت قبل أسبوع تقريراً يتحدث عن هذه النقطة.

ضحكت بعد تنهيدة طويلة وقلت:

ـ يا سيدتي ليت بلادنا العربية تحترم حقوق الإنسان قبل الحيوان!

تمنيت أن أقول لها بالعربية:

ـ اتركيها لله.

لكن جملة «اتركيها لله» لن يكون لها الوقع الذي أردت إيصاله لو كنت قد نطقتها باللغة الفرنسية. هذه هي معضلة اللغات الأخرى!

أطلعتها من خلال حوارنا على جملة من المفاهيم التي أسهمت في تمزقنا السياسي والاجتماعي، كالوطن، والمواطن، والتوطين، والمواطنة، كما طاب لي أن أحدثها عن سيناريو فيلمي القصير الذي كان عنوانه «بالجرم المشهود»، وهو الفيلم الذي لم يرَ النور حتى الآن. كتبت السيناريو، ووضعت للفيلم جملة تظهر قبل العنوان في تتر البداية. وما أنا إلا ذرة اقتدت بنملة في عالم الذرّ. ثم تبدأ الأحداث. يروي الفيلم قصة شاب يجلس في مقهى يطل على البحر، وقرب صخور الشاطئ تقف سارية تحمل علم الكويت. يراقب الشاب الجالس في بداية الفيلم سلوك النملة التي كانت تمشي على طاولته وهي تحمل قطعة صغيرة من السكّر، قطعة لا تُرى بالعين المجردة، وتمضي بها إلى حافة الطاولة، ينتقل الشاب ببصره من النملة إلى العلم الشاحب الذي تغلغل في نسيجه الغبار فتغيرت ألوانه، يتأمل العلم من بعيد، من مكانه في المقهى، ينهض ويخطو بضع خطوات حتى يصل إلى السارية، ثم يرفع رأسه نحو العلم، ويغلق عينيه الحزينتين. تتراكم في ذهنه مشاهد

سريعة للمخطط الذي يدور في باله، يرى نفسه يتسلق السارية ويبتر العلم المغبرّ من الحبل. يتبعه المشهد الثاني، فيرى نفسه يغسل العلم بالماء والصابون في بيته. يتبعه المشهد الثالث، إذ يرى نفسه يعود إلى السارية التي بتر العلمَ منها، يبتسم وهو يمسك علم وطنه بعد أن عادت إليه الصحة والعافية، ينفضه في الهواء ثم يتسلق السارية ويشد الحبل، ثم يدخل الحبل في العلم، ويرفعه. تعود الكاميرا إلى الشاب وهو يتأمل العلم، يشمر كمي قميصه ويبدأ بتنفيذ الخطة. يتسلق السارية، ويبتر العلم بولاعة يحرق بها الحبل، ثم ينجح في سحب العلم من الحبل وإخراجه، تمر دورية شرطة في الواجهة البحرية المقابلة، فيراه الشرطي وهو ينزل من السارية حاملاً العلم، فيقتاده إلى المخفر بعد تكبيل يديه وإلقائه في الدورية، ويحكم عليه بعد ذلك بالسجن، ولم أحدد في سيناريو الفيلم مدة سجنه، لأن السجن سجن طالت مدته أم قصرت. ينتهي الفيلم بالآية القرآنية: «خُذُوْهُ فَغُلُّوْهُ».

أعجبت جوْيس بفكرة الفيلم، واعتقدت أنها قصة حقيقية حين عقبت بعد انتهائي من سرد التفاصيل:

ـ مسكين ذلك الشاب. هل لا يزال في السجن، أم تم الإفراج عنه؟

سألتها مازحاً:

ـ أي شاب؟

قالت:

ـ الذي فكر في تنظيف العلم!

وجهت إليها سؤالاً آخر:

ـ إذا كان من فكر في تنظيف علم بلده قد سجن، فما رأيك بمن يفكر في تنظيف عقل بلده، هل لك أن تتخيلي مصيره؟

ـ سيشنقونه حتماً!

مددت يدي مصافحاً وقلت مبتسماً:

ـ شكراً جوْيس.

ابتسمتْ كأنها فهمت مضمون كلامي وهي تصافحني، ثم أكملتُ تعقيبي:

ـ إن القاتل يشنق مرة واحدة فيموت. أما المفكر في بلادنا فإنه يشنق يومياً، ويبعث حياً، ثم يشنق مرة أخرى. فهو حين يموت موته النهائي يحس بالراحة لأنه عاش بروفات الموت بينه وبين نفسه عدة مرات قبل أن يصل إلى المحطة الأخيرة.

موكّل بالأرق، مسكون أنا به، ومسكون هو بي. ليس لي عنه غنى، ولا أملك لنفسي منه مفراً. أنا لا أضع رأساً حين أضع رأسي على الوسادة، بل أضع مُدرجات مسرح يوناني، يتحطمُ رأسي كما تتحطم المدرجات من جراء زلزال مباغت. تنهض من بين أنقاض ذلك المسرح عازفة، تبحث عن قوسها

وكمانها، تعبر متعبة، منهوكة الخطى، مهزولة الجسد، على مزق الحجارة، ثم تنحني ثقيلة، وتمد يدها لتخرج قوسها، تسرع لاهثة لتجد أشلاء كمانها مبعثرة في كل مكان، لا تتركني العازفة وتمضي هي إلى شأنها، ولا يُغلق الأرق ملفاته في رأسي، بل تزداد الحيرة، ويصبح الأرق قلقاً في الوقت الذي تجلس فيه العازفة في قارعة مُخي، تقرأ فناجين العابرين وتعود في المساء إلى كوخها وتفترش الحصير. تمر على العازفة سنوات طويلة هي في مفهومنا المادي أو الواقعي ساعات أو ربما دقائق. تخرج من عزلتها وتجلس معي على رصيف الوسادة، كأننا معاً، ننتظر مطراً لم يجد سيارة أجرة توصله إلينا.

آهٍ يا رأسي آه... الجملةُ تُوَلِّدُ جملةً أخرى، العبارات تتشابك، فتنجبُ أفكاراً، الأفكارُ تتسع، الاتساعُ يضيق، ولاداتٌ مستمرة، كم تشبه مستشفى الولادة يا رأسي!

كأني تحولت إلى درنفيس. أتكئ على نحولي، وأحاول فتح البراغي من خلال الدوران حول نفسي لتبديل بطارية الأمل!

طلبتْ مني جوْيس في إحدى الليالي الباريسية الماطرة أن أكتب لها رسالة حب باللغة العربية، أشرح لها فيها كل مشاعري نحوها، شرط أن أكتبها بخط يدي لا أن أطبعها على الآلة

الطابعة كما يفعل العاشقون في هذه الأيام في الشرق والغرب، إذ كل شيء يمكنه أن يذعن للتكنولوجيا، إلا الحب، فهو يحلّق حراً في فضائه الخاص، ويخلق عالمه الخاص، في العالم العام، ولا يعود محتاجاً إلى عولمة حديثة تعلمه كيف يبكي وكيف يضحك، أو كيف ينزف وكيف يعصف، أو كيف يقسو وكيف يلين، فهو طيش الشيخ وحكمة الجنين. الحب تاج رأس العلوم. طلبتْ مني أن أسلمها الرسالة ومسودتها، لأنها تعتز كثيراً بحفظ المخطوطات في صندوق خشبي يبدو نوعاً ما كبيراً مقارنة بأحجام بعض الصناديق التي تباع في الأسواق، كأن صندوقها تابوت صغير. كانت تجمع في صندوقها أو تابوتها الذي تخبئه تحت سريرها المرتفع مجموعة كبيرة من المجلدات الضخمة النادرة باللغة العربية والهيروغليفية واللاتينية والفارسية والروسية والبرتغالية والعبرية، وقد اختارت خشب صندوقها الذي صممه لها النجار الباكستاني المعروف فاضل رضا من النوعية التي يستوردها مصنع خشب في باريس من أشجار غابات موسكو. صنفُ خشب يحتفظ بدرجة حرارة معينة تحفظ الأغراض الموجودة في الصندوق من التلف. هكذا كانت تتعامل جوْيس مع كنوزها الفكرية الثمينة. لقد أخبرتني في يوم دعتني فيه إلى العشاء في شقتها عن زيارتها الأخيرة لمكتبة الإسكندرية، وكيف عرض عليها أحد التجار، وكان من المهتمين بالآثار والمخطوطات الفرعونية القديمة مبلغاً كبيراً من المال مقابل تنازلها وإعطائه كل ما في خزانتها من الكنوز.

لكنها رفضت، وأصرت على رفضها القاطع أمام كل تلك المغريات. جاء طلبها بعد إصرارها على تعلم اللغة العربية لتتمكن من فهم رسالتي الموجهة إليها. وظنت أن فضولها وحده في استيعاب ما في رسالتي من مشاعر متأججة تشدني إليها سوف يعينها على الدراسة، ويساعدها على سرعة تعلم اللغة. دخلتُ إلى غرفة المكتب في شقتي الباريسية الصغيرة، ولم أجلس كالعادة على كرسي المكتب، بل حملت حزمة من الأوراق التي كنت أضعها في ظرف مفتوح على رف من رفوف مكتبتي الصغيرة المكونة من خزانة واحدة تضم خمسة رفوف. وجلست على الأريكة الحمراء إزاء المكتب، ووضعت أوراقي البيضاء على سطح الطاولة الزجاجية. ثم سحبت خيط المصباح المتدلي على الطاولة من قبعة الأباجورة البرتقالية إلى الأسفل، لينتشر الضوء على الأوراق، وتتناثر شظاياه لتضيء الغرفة بنور خافت. قضيت ساعتين في تدبيج رسالة حب إلى جوْيس، افتتحتها بهذه السطور:

«صديقتي العزيزة جوْيس،

حبيبتي المؤقتة جوْيس،

أخبري عينيك بأني إليهما مشتاق، وقبليهما بالنيابة عني وعن شفتيَّ تقبيلاً كثيراً.

ولا تنسي أن تقبلي رموشك أيضاً. لا أعلم كيف ستقومين بهذه المهمة الشاقة، ولكن حاولي أن تنفذي كل أوامري. واعذري

شهرياريتي في الجملة السابقة وما سيأتي بعدها من جُمل. إنَّ عندي من الصبر صبراً عظيماً يُحاصِرُ صبرَ الجمل. هيا نفذي كل أوامري، لا تسأليني كيف يمكن لشفتيكِ أن ترتفعا لتطبعا على عينيك قبلاتي الكثيرة، فهذا ليس من شأني. افعلي كل ما أقوله لك الآن ولا تسألي عن شيء. إنني في الكتابة إليك يا جوْيس، أعطي قلمي مساحة سُريالية حرة للتعبير عما يختلج في أعماقي. فاغفري شطحاتي. وإنني في الكتابة إليك أيضاً، أنجو من المصادفة والنسيان، وأتذكر كل شيء، أتذكر تفاصيل التفاصيل، أسرح في ذكريات عينيَّ مع خلخالك الفضي في تلك الحفلة الموسيقية، وطلاء أظافرك الأحمر، وفساتينك ذات النكهة الشرقية، تلك التي كنت ترتدينها في زياراتي المسائية إليك وأنا أحمل بين يدي باقة من التوليب الذي تحبين استنشاق رائحته، وقلباً أدماه الترحال، هو قلبي اليتيم. كنت حين أحتضنك، أرفعك شبرين عن الأرض، كي تصل شفتاك إلى شفتيّ، وأنا أطوق خصرك بذراعيّ وأُقبِّل ما بين عينيك. كنتِ تضحكين كطفلة بريئة، حين أداعب شحمَتَيْ أُذُنيكِ بأطراف أصابعي، ثم أوصي لساني بالطواف حول بياض عنقك ما دام حيًّا. أتذكرين كيف كنت تركضين وأنا أطاردك من غرفة المعيشة إلى المطبخ، ثم من غرفة النوم إلى غرفة المعيشة، لنصل بعد دقائق من المطاردة الخفيفة إلى كرسي يتسع لنا في الشرفة. كنت أضع رأسي على صدرك ونبدأ بمطاردة من نوع آخر، مطاردة كلامية، تسألين وأنا أجيب، أسألك وأنت

تجيبين. لم أشعر وأنا في شرفتك الصغيرة بالغربة قطّ، بل كنت كمن عاد من سفر طويل إلى بيته الأول. أو كمن وجد ما عاش يبحث عنه طوال عمره. لقد كان خلخالك في لقائنا الأول، أول جزء وقعت عليه عيناي منك. يأخذني التذكر إلى الليلة التي رقصتِ فيها أمامي رقصاً شرقياً. وكان ذلك بعد مرور أسبوعين على مقتل عائشة. وكانت زيارتي تلك الخامسة في أرشيف زياراتي ولقاءاتنا في مسكنك. هل أقول لك: إنك شغفتني حباً بعد انتهائك من الرقصة. قلت لي إنك تعشقين الرقص على أغاني المطرب الشعبي أحمد عدوية، واخترتُ لك حينذاك أغنية أحبها من بين أغانيه اسمها «صَحْصَحْ يا مَعْلَمَةْ». ثم طلبت منك أن تشاهدي أداء سعاد حسني في أغنية «بانوا بانوا» التي غنتها في فيلم شفيقة ومتولي من شعر صلاح جاهين وألحان كمال الطويل. حين وضعت لك الأغنية التي حملتها في الديسك الأسود وشاهدناها معاً عبر شاشة الكومبيوتر، كنت أطلب منك أن تنظري إلى خشوع سعاد حسني في أداء الرقصة، لم تكن سعاد في أغنية الفيلم تعرض جسداً، بل كانت تؤسس بلداً من المشاعر الإنسانية المتدفقة كموسيقى الأغنية السريعة. تبدأ الأغنية بخفقات الصاجات الإيقاعية والطبلة، ثم يدخل المزمار البلدي بنغم شجيٍّ ينفذ إلى القلب منذ لحظة الإصغاء الأولى، تحاكيه الكمنجات، ويستمر هو في البوح، يدخل الناي بصحبة الأكورديون إلى قلب الأغنية، ويحتسيان مع الأورغ ما في زجاجة اللحن من شجن، ثم تصبح الكمنجات

ستاراً نغمياً يرتفع تدريجياً ليظهر من وراء الستار النغميّ صوت سعاد حسني مردداً: «بانوا بانوا بانوا. . . على أصلكو بانوا». أكرر مرة أخرى، لم تكن سعاد ترقص بجسدها، بل بعينيها. عيناها استطاعتا أن تلخصا للمشاهد مضمون الفيلم. كنت أطلب منكِ أن تحللي الحزن المترسب في عينيها وهي تؤدي هذا المقطع من الأغنية: «دَوَّروا وشكو عني شوية. . كفياني وشوش. . ده أكم من وش غدر بيه. . ولا ينكسفوش». كنت أترجم لك الكلمات بصوت مخنوق، وكنت تترجمين الموسيقى بخصر رشيق وقوام ممشوق. لقد رقصت سعاد ببلاغة تعبيرية حركية لم تُؤتَ لراقصة في الشرق ولا في الغرب. وقد أعجبني إعجابك الشديد بسعاد. هل تذكرين يومها كيف حملتُ المنفضة الفارغة المستقرة على طاولة الكومبيوتر لرغبتي في رميها من النافذة إعجاباً بطريقتها في أداء جملة «القهر وقوة غليانه»؟ أتذكرين مكان اجتماعنا الأول؟ أتذكرين كيف سقط فنجان القهوة من يدي في موعدنا الأول؟ هل لا تزالين تذكرين كيف أوصلني خلخال يُزين قدمك إلى قلبك وعقلك؟ إنني يا صديقتي العزيزة، وحبيبتي المؤقتة، أكتب بقلم يئنّ حبره في شراييني. ولا أعرف دواءً في هذه الحياة سوى الكتابة. أريد أن أكتب لنفسي، أكتب، ثم أكتب، ثم أكتب، ثم أمزق ما كتبت. لا أريد أن يطلع أحد على كتاباتي. كتبت ذات يوم في رسالة إلى صديق:

«عندما تغرق في الكتابة وتنجو منها بها، ستكتشف أنها ـ

مهما تعددت مفاهيمها ـ ضرب من ضروب تفريغ شحنات اللاوعي في ميناء الوعي، وإعادة توليد الجمال، من خلال القيام بتحريك الرواسب اللامرئية في الذهن، مع التجارب المعلَّقة على حافة القلب بملعقة الخيال. من هنا تولد الكتابة، بعد معادلة الشحنات، وبعد الركض في اللامعنى بغيةَ الغوص في باطن المعنى. ومن هنا يأخذ الرمز واقعيته، وتشرب الواقعية حليب تعبيريتها، وتتطور التعبيرية لتضم تحت ردائها كل الذبذبات والتشعبات الفكرية، وتهديَها صراطَها الذي لا يستقيم إلا بالعمل والمعرفة».

ثم اختتمت الرسالة بهذه الأسئلة:

«لا أدري متى ستتمكنين من قراءة هذه الرسالة، وهل سأكون في باريس أم في عاصمة أخرى، هل سأكون حياً أم ميتاً؟ الله أعلم. ماذا لو بقيت هذه الرسالة في صندوقك الذي يشبه التابوت؟ هل سيتم تهريبه من باريس إلى عاصمة أخرى في يوم من الأيام؟ وهل ستعرض رسالتي في مزاد علني بملايين الدولارات؟ ماذا لو تم الاحتفاظ بها في مؤسسة ثقافية، أو متحف؟ سؤالي الأهم، ماذا سيجني الناس من رسالتي إليكِ؟ قد يستفيد العالم من نظريتي في تحليل وقراءة مفهوم خشوع الرقص!

صديقتي العزيزة جوْيس،

حبيبتي المؤقتة جوْيس،

تعلمي العربية، وإن كنتِ تريدين الانتساب إلى إحدى اللهجات العربية، فاختاري اللهجة اللبنانية، استمعي إلى فن الزجل، مُرِّي بالميجانا والعتابا، تتلمذي على صوت فيروز. إذ لا ينقصك شيء من وجهة نظري سوى شيء واحد، هو أن يكون لديك لسان عربي. لم أطلب بعد سنوات الغربة وطناً عربياً واحداً، بل طلبت لساناً عربياً واحداً. إن أهم لسان عربي في عصرنا الحالي هو لسان الخروف العربي! تصدّقي على دقات قلبي بكلماتك العربية يا جوْيس، وتعلمي اللغة، ولا تيأسي أبداً.

لكِ باقات من التوليب

أحبكِ ـ مؤقتاً

عارف

١٩٩٧

لقد عبرت جوْيس كغيمة في سمائي، كما عبرت قبلها غيوم وغيوم وغيوم لم تمطرني إلا القليل من المتعة اللحظية.

حين ترتفع نسبة العدمية في الإنسان ويصاب بهبوط وجودي حاد، يفكر في الانتحار. وحين يقدم الإنسان على الانتحار، لا يعني أن إيمانه قد ضعف، بل لأنه يعاني فراغاً وجودياً. على كل حال، أنا لا أُمنطق انتحاري، ولكن، ما فائدة الاستحمام بعد انتهائي من تناول هذه البيتزا إن كنت سأطلق الرصاصة على رأسي؟ سيمددونني عارياً أمام أعينهم في مكان غسل الموتى،

أو في «المغيسل» كما يسمونه في بلادي، وستمر أيديهم لتعبث بجسدي الذي هو لي. لماذا لا أختار السم قطاراً للموت، وأدخن سيجارتي وأنا في البانيو بدلاً من الخيارات الدموية؟ لماذا لا أملأ البانيو بالماء الدافئ، أو أتركه بلا ماء فارغاً إلا من جسدي، لئلا ألحق بالبدلة البلل. سأستلقي مرتدياً بذلتي التي استلمتها ظهراً وأدعو الموت لاحتساء الكأس الأخيرة.



٦

ـ سأريك كيف بيد واحدة سأقتلع عينيه من محجريهما القذرين، وأدوسهما بحذائي كصرصارين قبيحين لعينين.

ـ اجلس واكظم غيظك، من أجلك لا من أجلي.

ـ أنت لست صديقي الذي اتخذته في يوم من الأيام أخاً لي، إن لم تقف إلى جانبي في هذه الساعة.

ـ ولأنك صديقي وأخي، أقول لك هذا الكلام، وأطلب منك أن تلجم غضبك.

ـ كيف لي؟ كيف لي أن ألجم غضبي وأنا أرى يداً غريبة تمتد إلى قلبي وتقتلعه من بين ضلوعي بكل ما أوتيت به من خسة ودنس وخيانة؟ كيف لي أن أبقى صامتاً؟

ألا أخْرِسْنِي إن استطعت، أخرِجْ من حقيبتك سكيناً واذبحني كما تُذبح الأضاحي.

ـ قلت لك لا تتهور يا تيمور، سنحل المسألة في الصباح. رجوتك، اهدأ قليلاً.

ـ لن أهدأ، دعني.

كنت أشد تيمور من طرفي ياقة قميصه الرمادي بعد ساعتين من عودته إلى حجرتنا المشتركة في النُّزُل، محاولاً تهدئة أعصابه بشتى الوسائل. كان قد توجه إلى شاليه الوزير الكويتي بعد نزوله من الحجرة مباشرة، بعد أن وصف له المكان أحد بائعي الملابس في سوق طنجة. أخذه إلى هناك عبد القادر السائق الذي روى لي في ما بعد ما حدث بالتفصيل. وصل تيمور إلى الشاليه، وطلب من الحراس الجالسين عند بوابة الدخول أن يسمحوا له بلقاء الوزير، حيث قال لهم من دون أن يتلكأ:

ـ أنا تيمور عبد المحسن، الوزير ينتظرني في الداخل، فافتحوا لي الباب من فضلكم.

رد الحارس الأصغر من بين أربعة حراس كانوا يلتفون حول طاولة خشبية بيضاء مستديرة وهم يشربون الشاي ويدخنون الحشيش:

ـ إن معالي الوزير يقضي إجازته في البحر يا أستاذ.

استخدم تيمور ذكاءه في الخروج من الورطة التي أوقع نفسه فيها، لكن ذكاءه في هذه المرة أسقطه في ورطة أكبر من سابقتها، إذ لم يستطع الخروج منها عندما راح يعقّب:

ـ لا بد إذن أن أسلم هذه الرسالة التي أحملها معي من أسرة الوزير بنفسي إلى الست نبيلة العاملة في هذا الشاليه.

قهقه الحراس وسعلوا وهم ينفثون دخانهم من أفواههم وأنوفهم، ثم قال أوسطهم:

ـ وماذا تعمل الست. . .؟

ثم التفت إلى اليمين مخاطباً صاحبه:

ـ ما اسم الست؟

لم ينطق ذلك الشخص الذي وُجِّهَ إليه السؤال بحرف واحد، وحين رأى الغضب مرسوماً على قسمات تيمور، نهض بعد أن عرف يقيناً أن سخريتهم ستتحول إلى كارثة حقيقية إن هو لم يوقفها، ثم مشى نحو بوابة الشاليه وهو يحملق في عيني تيمور قائلاً وسط ارتياب أصدقائه:

ـ اتبعني يا أستاذ.

تبعه تيمور حائر الخطوات إلى الداخل. لا يدري ماذا سيفعل. طرق باب الشاليه ودخل يسأل عن نبيلة، فأخبرته سميرة ـ إحدى جاريات الوزير الكويتي ـ وهي تمسح بخرقة زرقاء مرآةً معلقة على الجدار الأيمن المؤدي إلى صالة الشاليه:

ـ إنها تعمل في يخت الوزير، فلا تأتي معه إلى الشاليه إلا نادراً، في الحفلات التي يقيمها معاليه لاصطياد كبار الضيوف

القادمين من الخليج. محظوظة بنت الكلب!

لم تكن سميرة تعلم بأن تيمور من سلطنة عُمان، وأنه ينتمي إلى الأرض التي جاء منها أولئك الضيوف من الخليج، الذين تصطادهم نبيلة بما لديها من مهارات أنثوية.

قلت له قبل مقتله بنصف ساعة:

ـ أراك تعارضني ظناً منك بأني خائف من أمر ما، أو ربما لظنك بأني أخالفك الرأي ولا أقدر انفعالك، وظنك هذا غير صحيح. لقد تجرعنا سم الصدمة معاً، فآلمتني وأدمتني كما آلمتك وأدمتك تماماً. أستحلفك بالأخوة والصداقة اللتين عشناهما ولا نزال نعيشهما حتى هذه الدقيقة التي أحدثك فيها، أن تخرج من قلبك سوء ظنك بي، وأن تضع يدك في يدي وأنت مطمئن القلب، مرتاح البال، فأنت أخي الذي أهدتنيه الحياة في الغربة، وأنت صاحبي في الحل والترحال. وكن على يقين، لو أنك لم تكن كذلك، لما ركبت تلك الباخرة ورافقتك من نابولي إلى هنا عن طيب خاطر وأنا الذي خرجت من فرنسا هارباً من حبٍّ وقعت فيه، أو أوقعت نفسي فيه لا أدري بالضبط. إن كنت أطلب منك التريث الآن، فلأنني ـ وهذا لا يخفى عليك ـ أسعى إلى انتشالك مما أنت فيه، ولأنني أريد أن أنقذك.

ـ تنقذني؟

ـ أجل أنقذك. . . لأنك مندفع في اتجاه الجنون. . . مندفع نحو الهاوية. . . مندفع كأنك قد أوشكت أن تفقد صوابك قل لي بحقّ السماء: أتريد أن تقتله؟

ـ الثأر ثأري أنا، ولن أتهيب الأخذ بهذا الثأر.

ليت إفريقيا تمسك العالم الآن من رقبته وتشده إليها، ثم تضربه على قفاه!

خرج تيمور، ولم يعد!

لقد بدأت علاقتي بتيمور في الشهر الأول من غربتي التي امتدت إلى عشرة أعوام. سبقني هو إلى الأردن لدراسة الهندسة في جامعة إربد بأربعة أعوام، وكان ذلك في عام ١٩٨٧، وحاز البكالوريوس في الهندسة المعمارية في العام الذي وصلت فيه إلى محطتي الثانية، عمّان، بعد خروجي من محطتي الأولى، الدمام. انتقل بعدها تيمور من إربد إلى العاصمة عمّان، والتقينا في منتصف شهر مارس سنة ١٩٩١ عندما قرر بعد تخرجه أن يستأنف دراساته العليا في إيطاليا، فانتسب إلى معهد اللغات لكي يتعلم مبادئ اللغة الإيطالية قبل سفره إلى روما، وكنت في ذلك الوقت طالباً في قسم اللغة الفرنسية في المعهد نفسه، وكنت قد قضيت فيه شهرين بعد تسجيلي في الدورة الأولى التي بدأت في نهاية شهر مارس، أي بعد وصولي إلى عمّان بثلاثة أسابيع تقريباً، وقبل تخرج تيمور بشهرين. أصبحنا صديقين منذ اليوم الأول الذي جلسنا فيه مع مجموعة من الطلبة

في كافتريا المعهد في فترة الاستراحة. أحبني كثيراً لأنه كان يرى الكويت ـ الإمارة التي عشقها وعاش يحلم برؤيتها ـ من خلال حديثه معي. كان مفتوناً بالفن الكويتي. يحب الغناء والمسرح والدراما، ويعشق الإيقاعات البحرية، كالشابوري، والشبيتي، والسنكني، والحدّادي، والعرضة البحرية، والدواري، والعدساني، والخطفة، والمجيلسي. يحفظ عن ظهر قلب حوارات كاملة من المسرحيات والمسلسلات الكويتية الكلاسيكية. ولم يقتصر إعجابه على الفنون فحسب، بل امتد ليشمل الرياضة الكويتية عموماً، وكرة القدم الكويتية خصوصاً. كان يعتبر نفسه «قدساوياً» ـ نسبة إلى فريق نادي القادسية ـ أكثر من أولئك القدساويين الذين التقاهم في فترة دراسته في إربد. تطورت علاقتنا، فكنا نلتقي في مقهى في وسط البلد. وبقينا على تواصل عبر الرسائل بعد سفره إلى روما ومن ثَمَّ سفري إلى باريس. وكنا نلتقي في الأعياد والمناسبات، إما أن أذهب إليه أو يأتي هو إلى باريس قبل انتقالي إلى العمل في مدينة روان عاصمة إقليم نورماندي.

روى لي عبد القادر في ذلك اليوم ما حدث، وكان يلهث ويبكي متهماً نفسه بالجريمة:

ـ أستاذ عارف، لا أدري من أين أبدأ.

طلب مني أن أناوله سيجارة، ففعلت وأشعلتها له، وأصغيت إلى كلامه وهو يقول:

ـ حين أوصلت الأستاذ تيمور إلى الشاليه، أوصاني بالذهاب إليك لأخبرك بأنه لن يعود إلى النزل إلا بعد انتهاء القصة. ولكنني لم أنفذ وصيته، ولم أوصل إليك رسالته، إذ تعذرت له بأني في حاجة إلى تعبئة جركل البنزين من محطة الوقود القريبة. فضولي في تلك اللحظة هو الذي قتل تيمور!

بكى قليلاً، ثم أكمل الحديث:

ـ راقبته حين دخل إلى الشاليه، وبقيت واقفاً بجوار سيارتي، رأيت سيارة الوزير الفارهة تقترب من بوابة الشاليه حيث وقف الحراس الذين كانوا يجلسون قرب الحاجز الحديدي. ترجلتْ من السيارة فتاة تشبه نبيلة، كأنها كانت نسخة منقحة من نبيلة التي أحبها تيمور. لقد حدث كل شيء أمام عيني يا أستاذ عارف، رأيت تيمور يخرج من الشاليه ويمشي نحو بوابة الخروج، لكنه حين اقترب من الوزير وفتاته، انهار وراح يصرخ ويشتم. بعد ثوانٍ معدودة، ركض الحراس الذين كانوا يغلقون البوابة، وترجل السائق من السيارة، فما كان من الوزير إلا أن أطلق رصاصة، دوّى صوتها في المكان، ورأيت تيمور يسقط، رأيته ينتفض من شدة الألم. تمنيت لحظتها يا أستاذ أن تنشق الأرض وتبلعني. ثم عرفت بعد أن خرّت الفتاة على الأرض محتضنة جسد تيمور بذراعيها وهي تبكي، بأنها نبيلة، نبيلة التي كنت أوصل تيمور في كل مرة إلى بيتها. ركبت سيارتي، وانطلقت إلى أقرب دكان، واتصلت بالشرطة. ثم عدت إلى

مكان قريب من الشاليه، ورويت للضابطين اللذين حضرا إلى موقع الجريمة بعد ربع ساعة ما شاهدته. فطلبا هويتي، وسجلا في ورقة صغيرة اسمي وعنوان بيتي ورقم سيارتي، وأمراني بالانصراف.

لا أدري كيف سارت الأمور بعد ذلك، لكنني علمت بعد أسبوع من إقامتي في طنجة لترتيب مسائل نقل جثمان تيمور إلى سلطنة عُمان بعد حضور شقيق تيمور الأكبر زهران عبد المحسن، بأن الوزير قد خرج بريئاً من جريمته التي ارتكبها، وعاد إلى الكويت واستمر في منصبه، فلم يسقطوا عنه لقب «العم»، ولم يُكشف أمره. وحكمت المحكمة حضورياً على المتهم البريء عبد القادر، بالسجن ـ ظلماً ـ خمسة وعشرين عاماً!

عندما قررت أن أهرب من فرنسا، أو من «روز/ وردة» بالأصح، لئلا أراها تموت، هربت من فرنسا إلى إيطاليا حيث كان تيمور في انتظاري هناك. هربت من بلد أوروبي إلى بلد أوروبي آخر، وحين هربت مع تيمور من إيطاليا إلى المغرب، هربت من بلد أوربي إلى بلد عربي، من قارة استكشفتها، إلى قارة لم أزرها في حياتي، واصطدمت بالموت للمرة السابعة. الموت أنجبني، أخذ أمي وأبي وتركني يتيمَ الأبوين، ثم عاد إليّ مرة ثانية ليأخذ جدي وعمتي فأصبحت من بعد يتمي

الأول، يتيمَ الأهل والوطن. غادرني الموت، ثم جاء بعدها لاختطاف زميلي في الجيش ضيدان فلاح وجعلني أعيش يتم الصداقة. وبعد خروجي من الكويت سافر معي إلى باريس وسرق عائشة، وها هو يأتي بعد كل مغامراته معي، ليتركني في المغرب وحيداً بلا صديق، بلا تيمور!

من يملك الآن أن يُفرغ المشرق في جوف المغرب؟

من يملك الآن أن يُعطي صمتي لساناً وشفتين لأتكلم؟

من يملك الآن أن يُرجع إليَّ عينيَّ لأرى بهما الحياة؟

من يملك الآن أن يُطعمَ روحي الطمأنينة، حتى وإن كانت سراباً؟

يموت الإنسان ويتحلل جسده، تنخر لحمه وعظمه الديدان وكائنات الأرض الأخرى، وتبقى رائحته في المكان، في الأشياء التي تركها، تأبى الرحيل. رائحته العالقة في الملابس، بصماته التي قد لا تكون مرئية للعين ولكنها مرئية للقلب الذي يحتفظ بالأسرار والذكريات. يموت الإنسان ويبقى منه شيء عصيّ على الموت والنسيان. بلى، كل إنسان يموت ويبقى منه شيء لا يموت. لم يكن الشيء الذي لم يمت بعد موت عمتي شيئاً واحداً، وإنما كان مجموعة من الأشياء. رائحتها التي لم تتحلل من نسيج ملفعها الذي أحمله معي أينما يممت وجهي شطر المنفى، رائحة مصحفها القديم، يا إلهي، إني أقدس

رائحة مصحفها الذي أحمله معي أيضاً. صوتها في أذنيّ لا يزال يتردد كأن كلماتها تكاثرت في داخلي، أشعر بأني مسكون بنسل صوت عمتي بسمة. والموت في هذه المرة يعصف بصديقي تيمور، ويُبقي منه في داخلي الأشياء التي ترفض أن تموت. إني وأنا حيٌّ أخبئ تحت جلدي سلالة من الأموات!

حدثني جدي قبل وفاته بعامين تقريباً، عندما كنا نجلس في حديقة بيتنا:

ـ كن غيوراً على نخلة البيت يا ولدي، وإذا رأيت العبوس على وجه الزمان، فاعلم أن الحرب قد بدأت، وأن صراع الإنسان مع أخيه الإنسان قد تضخم. تذكر كلامي هذا، وكن غيوراً على نخلة البيت. اعتنِ بها كما لو أنها أمك أو أختك أو زوجك أو ابنتك. حُفَّهَا بعطفك ورعايتك. اسقها من نبع صلواتك. اتلُ عليها شيئاً من الذكر الحكيم، وشاركها تسبيحها لله. لا تستهن بذات الجذور العميقة الضاربة والممتدة في باطن الأرض. النخلة درع يا ولدي، درع لمن يصونها ويخفض لها جناح الذل من الرحمة، فهي لن تحتويَك إن لم تنتخبها أماً وعمة وعائلة.

تمكنت من تجديد جواز سفري في الأسبوعين اللذين قضيتهما في المغرب بعد مقتل تيمور. قامت السفارة بإرسال الجواز إلى الكويت وإعطائي بطاقة هوية مؤقتة استخدمتها في تنقلاتي بين طنجة، وفاس، ومكناس، وتطوان، ومرّاكش، وأغادير.

وكانت سفارة الكويت قد رفضت في البداية تجديد جوازي، لكنها وافقت في النهاية بعد إلحاح وتدخلات من أشخاص لم أكن راغباً في الاتصال بهم، فاستلمته بعد خمسة أيام عبر البريد السريع. وسافرت إلى أرمينيا، كأني كنت على موعد مع الهروب، كأن كل الدروب تؤدي إلى هروب ما. أردت أن أرى البلد الذي تنتمي إليه وردة، كنت مشتاقاً إلى رؤية جدها الحكيم، ناسك الجبل، آرام آرونيان.

كنافورة من كلمات يتفجر الألم في روحي، ولست أعرف له مصدراً، ولا أعرف لروحي عنواناً أو مكاناً لكي أزورها وأطمئنها. جسدي تاريخ مذابح، ومذابحي القلمية كبرى. أنا الذي اخترت بكامل الوعي والإرادة أن أكون قلماً يكتب به الأطفال في المصحة أحلامهم وآمالهم وطموحاتهم وأوجاعهم، أمسيت أبحث عن قلمي الخاص، عن قلم أكتب به ما أشاء، وقتما أشاء، وكيفما أشاء، وأسطر به كل ما لم أقله. كانت وظيفتي كمعالج في مصحة مرضى السرطان صعبة وشاقة جداً. كنت قبل نزولي إلى العمل، أغمض عينيّ وأسترخي واقفاً تحت الدوش، تاركاً الماء البارد ينفذ إلى باطني لإخماد حرائقي وضبط حالتي النفسية. كنت في لحظة استحمامي أطبق ما تعلمته على يد الدكتور سامويل بوب الذي قال لنا في إحدى محاضراته:

ـ حاولوا أن تستحموا بالماء البارد دائماً قبل حضوركم إلى

العمل، فإن في الماء البارد أسراراً وفوائد لم يتوصل إليها العلم الحديث بعد، ومن بين تلك الأسرار والفوائد في مهنتنا كمعالجين، أنه يوقظ في المعالِج حرارةً تُدفئُ بردَ المعالَج.

ثم استرسل في شرحه قائلاً:

ـ إن المريض المصاب بالحمى لَيتعرقُ جسدياً في أغلب الأحيان، لا من فرط حرارة في داخله، بل من فرط برودة كامنة في أعماق نفسه البشرية، برودة لم تشعر بالدفء والاحتواء، فما يكون من البرودة بعد تلك الحالة إلا أن تعلن عصيانها الفيزيائي وتتمرد على نواميسها في صراع بين النفس والجسد. وعندما تتمرد البرودة في نفس الإنسان، تتجاوز حرارة جسده كمريض معدلها الطبيعي. وهذا على كل حال أمر طبيعي. إنّ عليكم واجباً صعباً في المرحلة القادمة، فلن ينجح أحد منكم في علاج شخص آخر، إن كان يقف في كل مرة عاجزاً أمام علاج نفسه. انظروا إلى أنفسكم حين تحدقون في المرآة، لا إلى أوجهكم، فأنتم قد تعتمرون قبعات وبعض الأزياء التي تخفي ملامحكم وربما شخصياتكم، لكنكم ستستخدمون أصواتكم وحركاتكم، فانتبهوا إلى هذه النقطة، ولا تستهينوا بها.

كنت بعد انتهاء الحفل الذي أقامته المصحة بمناسبة مولد السيد المسيح في الساعة السابعة والنصف مساءً، أقطع ممرات المصحة سيراً على قدميّ وأنا أرتدي زي العمل الرسمي،

تمنيت أن تتحول الممرات إلى صفحات، ما دمت أضع على جسدي هذا الزيّ/ القلم. تمنيت أن يتحول دمي إلى حبر، وسكوتي إلى كلمات، وأنفاسي إلى فواصل. وحين مررت بحجرة وردة، وجدتها مضاءة. طرقتُ الباب وانتظرت، جاءني صوتها باللغة الفرنسية:

ـ تفضّل.

فتحتُ الباب ودخلت. اقتربت منها وهي تقف في شرفتها المطلة على حديقة المصحة الخلفية. قلت لها:

ـ ألا تريدين أن تكتبي شيئاً يا روز؟

وتعمدت أن أناديها بـ«روز» بدلاً من مناداتها باسمها الحقيقي «وردة».

أجابت من دون أن تلتفت إليّ:

ـ أنا لست طفلة يا أستاذ، ولك أن تناديني بوردة إن أحببت!

دنوت أكثر منها، ثم قلت لها:

ـ من قال بأنك طفلة يا وردة؟

أدارت وجهها ناحيتي وقالت:

ـ أسلوبك الغريب في التعامل معي.

ـ أسلوبي؟

قالت بحدة:

ـ نعم أسلوبك!

أكملتُ حديثي:

ـ ولكنني سألتك إن كنت تودين أن تكتبي شيئاً. ما الذي أزعجك في سؤالي؟

أجابت منفعلةً:

ـ وهل تظن أنني سأقول لك: نعم أريد أن أكتب رسالة، لتُخرجَ لي ورقة من بنطالك الفضفاض وتمد إليّ يديك لأكتب بأصابعك، أو لتحنيَ رأسَكَ كي أستخدم قبعتك المدببة في الكتابة كما يفعل الأطفال.

قاطعتها متصنعاً الغضب:

ـ أنا لا أحني رأسي لمخلوق يا روز!

نظرت إليها وقلت بسخرية:

ـ أو... وردة!

وحين لاحظتُ اضطرابها أردفت أقول في انفعال مصطنع:

ـ إن كنتُ قد قبلت هذه الوظيفة، فلأنني كنت أسعى من خلالها ـ منذ اليوم الأول لي فيها ـ إلى إسعاد الأطفال والترويح عنهم، من خلال ابتكار شخصية جديدة وشكل غير مألوف للمهرج، شكل يلائم عصرنا الحديث، ويحاكي نفسية

الطفل. فاخترت بعد تفكير طويل أن أكون قلماً، وأن أقوم بدوره، وأن أتقمص شخصيته، وأن أتحول من إنسان إلى قلم، من أجل الإنسان، لا من أجل نفسي. كنت أبحث عن مهنة تجعلني أُفرغُ فيها شحنات إنسانيتي، وعندما اهتديت إليها، تمسكت بها لسبب واحد، هو أنني أحببتها بإخلاص. إن الأشهر الستة التي قضيتها في هذه المصحة أخرجت كل ما في أعماقي من مواهب كامنة في محاورة من حولي، وأسهمتْ في تقريب المسافة بيني وبين جميع الأطفال والأطباء والأساتذة، ولكن، ما الفائدة من كل ذلك بعدما اكتشفتُ فشلي في الوصول إليكِ؟ أرجو منك أن تسمحي لي بالانصراف من حجرتك الآن، لئلا أسبب لك المزيد من الإزعاج والحرج، وأعدك بأنك لن تري وجهي بعد هذا اليوم، لأنني سأعود في الأسبوع المقبل إلى باريس. اطمئني يا صغيرتي، لن يكدّر صفوَكِ وهدوءَ بالك هذا القلم المزعج، الذي هو أنا، بعد اليوم!

كنت أتمنى في تلك اللحظة أن أقول كل شيء، أن أقصّ على وردة قصتي كما فعلتْ قبل أقلّ من ساعة. اتكأتُ بيدي على باب الشرفة واسترسلت في كلام طويل ومواضيع متشعبة، لا أدري لماذا قررت أن أتكلم، وأن أبوح لها بكل شيء، قلت وكانت نبرة صوتي يائسة في ما قلته وأنا أسافر في عينيها:

ـ أردنا في البدء أن نصنع حضارة، ولم تكن الأدوات التي سنحتاج إليها في صنع الحضارة إن صح التعبير متوفرة لدينا،

لأن داءنا الأزلي الذي يتمثل في رفض الآخر كان الحفرة التي وقعنا فيها جميعاً. رفضُنا الآخرَ كان يدفعنا دائماً إلى اعتناق عنصرية إقليمية خرجت من رحم الاستعمار، وأبادتنا بعدما استعبدتنا وعاملتنا كرهائن الحرب على مدى أعوام طويلة. حين زرعتْ بريطانيا مندوبيها في صحراء الجزيرة العربية ـ وهنا أحدّثك عن منطقتي التي لا تعرفين عنها الكثير ـ كانت الولايات المتحدة الأميركية في تلك الفترة تنهض من ركامها لكي تؤسس اتحاداً حضارياً عصرياً يقوم على الإعلام، أو فن نقل الصور والأخبار من خلال فتح أبوابها للشعراء والمفكرين والعلماء والفنانين القادمين من القارة العجوز، أوروبا، وإغداق المال عليهم، في وقت كان يرى فيه رجل الصحراء عندنا النظارة الطبية، ويحسب أن زجاجها يتكون من الماء المتجمد، كما روى أحد المستشرقين النمساويين عن الفترة التي قضاها في الجزيرة العربية عندما كان يعمل متنقلاً بين نجد والحجاز. لقد تشكل الاتحاد الأوروبي على أرض الواقع من وجهة نظري في أميركا أولاً من الناحيتين الفنية والتقنية، قبل طرح فكرة الاتحاد من المنطلق الاقتصادي والسياسي في ألمانيا. فالمشاهد البسيط على سبيل المثال لا يعلم أن تشارلي تشابلن جاء من بريطانيا، وهنري ليرمان ـ مخرج أفلام تشارلي تشابلن الأولى ـ جاء من النمسا والتقيا ليطلا علينا من المربع الصغير الذي يضم داخل أحشائه تلك الشاشة الزجاجية العجيبة التي تأتي إلينا بكل ما جعلنا اليوم ممسوخين، ويُطلق عليه اسم جهاز التلفزيون.

ولا يعلم حتى المشاهد الأعلى ثقافة من المشاهد البسيط، بأن ستانسلافسكي الروسي كان له دور كبير في إعداد أستاذ المسرح والتمثيل في أميركا قبل إعداد الممثل. إذن فإن الاتحاد الفني الأوروبي قد حدث بالفعل في أميركا. لكن سذاجتنا وصلت بنا إلى حد الاعتقاد بأن كل أجنبي، لا بد أن يكون أميركياً. ولم تكن سذاجتنا تختلف كثيراً عن سذاجة من سبقونا، فقد كان جدي حين يستمع إلى أي نوع من أنواع الموسيقى باستثناء الموسيقى العربية، يقول بصوت مسموع: «رحمة الله عليك يا بيتهوفن، كم أنت مبدع». لقد كان ينسب كل ما يسمعه من الموسيقى إلى بيتهوفن، حتى وإن كانت تلك الموسيقى تنتمي إلى سلالة الجاز أو الفلامنكو. لقد أسست أميركا حضارة صورية، وأرادت لنا أن نفتح أعيننا حين نفتحها لا على القليل، بل على الكثير منها، على الكثير الفارغ، الكثير اللاأحد، وأن نعبر إليها حفاةً عراةً من كل القيم الأخلاقية التي أسهمت أمها بريطانيا العظمى في دفنها بعد اكتشاف النفط، إلى أن بات التنقيب عن قيمنا اليوم، عملية خاسرة في الزمن الذي يجني فيه المستعمر أرباحه من تمزيقنا دينياً ونفسياً وجغرافياً. وقد نجحت الولايات المتحدة بعد ذلك في اختيار طاقمها الفني الذي سيمارس دوره أمامنا واستمرت في تهريب أفيونها إلى أذهاننا. رأينا أميركا في الأفلام وأحببناها، أُعجبنا بمارلون براندو وآلبتشينو وروبرت دي نيرو، وقمنا بتقليد صوت كلنت إيستوود في بعض حواراته وجمله الشهيرة في الأفلام، حفظنا عن ظهر

قلب أغنيات فرانك سيناترا، وألفيس بريسلي، وبوب ديلان، وغيرهم. رددنا تلك الأغنيات التي لم تهضمها آذاننا إلا بعد انتشار السم السياسي الأميركي في نسيجنا الوجودي، رقصنا على إيقاعاتها رقص أناس محبوسين في قفص الرجعية، حملنا آلاتهم الموسيقية الكهربائية، وتركنا التخت الشرقي يشحذ قوته الطربي في الطرقات المرصوفة بالجهل والأمية والدعارة. إني أشفق على العود من أن ترنّ أوتاره في المكان الخطأ، وشفقتي على آلة العود أكبر من شفقتي على العازف. الشفقة نفسها تخامرني على آلة القانون حين تستورد من الخارج أو تصنع في الداخل، في بلاد أعدمت فيها كل القوانين البشرية. لقد احتفظنا بمجموعة كبيرة من أشرطة الفيديو للأفلام وحفلات الأوسكار التي كنا نقوم بتسجيلها، كما احتفظنا أيضاً بصور مارلين مونرو وغيرها من أيقونات هوليوود تحت وسائدنا القطنية، حتى بعد مرور عشرين عاماً على وفاتها حينما كنا في طور المراهقة، وعندما كبرنا قليلاً قمنا بقصّ تلك الصور من المجلات الفنية اللبنانية كالموعد والشبكة ولصقها على جدران غرف نومنا. أسأل نفسي اليوم، لماذا كنت أحتفظ كما احتفظ غيري من أبناء جيلي بصورة امرأة كمارلين مونرو، تفصلني عنها آلاف الأميال؟ امرأة ماتت قبل ولادتي بتسعة أعوام ودفنت في مقبرة «ويستوود» في لوس أنجلس. لقد دخلت أميركا في مأكولاتنا ومشروباتنا، في كلامنا وأحلامنا، في صدقنا وأكاذيبنا، في جدنا ولهونا، في إسرافنا وتقشفنا، في قصص

الحب والبراءة، في أحلام اليقظة والكوابيس، في الأحاديث الخاصة والعامة، في المعقول واللامعقول، في الحلال والحرام، في الضوء والظل، في الشك واليقين وما وراءهما. كأن يداً طويلة امتدت إلينا من خلف المحيط وقبضت على أدمغتنا، ثم أعادت بأساليبها المتنوعة تشكيلنا وبرمجتنا آلياً وعملياً، فتحول الحُكَّام إلى أزرار قابلة للضغط من قبل الغرب، وتحول الشعب إلى مجموعة من الأرقام، كرقم جواز السفر، ورقم الجنسية، ورقم البطاقة المدنية أو السكانية، ورقم البيت أو الشقة، ورقم الشارع. اللهم أسقط عني كل هذه الأرقام التي لست في حاجة إليها، لأبقى محتفظاً بإنسانيتي التي تكفيني. حين أعود بذاكرتي إلى الوراء وأتذكر كيف كنا نردد مع معلم اللغة الإنجليزية وكأننا في حالة حرب أو على شفا معركة بطولية: «God bless America, My home sweet home». . . أدرك أن الواقع الأميركي قد وقع بالفعل، وأن كل ما كنا نخشاه قد أحاط بنا. أقول أحياناً: لقد استجاب الله لنا وقبل دعاءنا. بلى، لقد أصبحت أميركا بيتنا. تعددت أسباب الرحيل إليها، ذهب البعض للدراسة في جامعاتها العريقة، وذهب البعض الآخر للسياحة والاستجمام، تعددت الأسباب والبيت واحد، البيت هو أميركا. ونحن الأُسرة التي انهار عليها السقف ولم تنتفض!

سكتُّ بغتة، ثم أردفت:

ـ إنّ في داخلي رغبة للحديث معك يا وردة، دعيني أتكلم.

رفعت حاجبيها مبتسمة كأنها تطلب مني أن أستمر في إخراج ما في معدة غربتي من آلام وأوجاع، التقطتُ أنفاسي، ثم قلت، وهي تصغي إليّ بجميع حواسّها:

ـ لن ألتمس الأعذار لأولئك الذين خدشوا فطرتنا وبراءتنا بكراهيتهم التي صبوا جامها علينا، ودخلوا في أوساطنا بأحزمتهم الناسفة اللامرئية ونفذوا عملياتهم الواحدة تلو الأخرى، ثم حين زرعوا أقدامهم في ديارنا وتوسعوا كنتيجة حتمية لمآربهم الجمة، تتابعت الفصول، الخريف يُمنتج الصيف، والشتاء يُمكسج الخريف، والربيع يُمنتج الشتاء، ضغطوا على الزر، فإذا بنا نتناثر مزقاً ونُرمى كأكياس الزبالة السوداء الممزقة في محرقة النفايات، ثم يُعاد تدويرنا كموارد طبيعية لهم، وإذا جاء وقت الحصاد، راحوا يقطفوننا عبيداً لتحقيق مطامعهم، والسعي إلى تبني جميع آرائهم، لنواصل مسيرة النباح المسلح بشعاراتهم في المحافل والمؤتمرات والقمم داخل أوطاننا التي هي في مفهومهم الأكاديمي ليست سوى حظائر تابعة لهم، يستأجرونها ويستأجروننا مجاناً مدى الحياة، حتى وإن لم نكن مقتنعين بما فرضوه علينا بالإكراه، وما الذي سيضيرهم إن اقتنعنا واعتنقنا فكرهم، أم لم نقتنع به ولم نعتنقه، فنحن مجردون من قيمنا التي بتروها، وهوياتنا التي ألصقوها بنا، صِفرٌ نحن في منظومة حساباتهم، يضيفوننا إلى العدد متى ما أشاروا، فتكون زيادة ناتجنا لهم، ويسقطوننا، ويبقون هم محتفظين بالعدد، والذلُّ حِلٌّ بهذا البلد!

لن ألتمس الأعذار لمن حاصرونا، وسرقوا الرغيف من بين أيدينا، وأطعمونا دناستهم، وعلقوا الحرية من رأسها بحبل المؤامرة ورجموها كالزانية في ميادينا، وشيدوا لها تمثالاً على أرضهم، وثبّتوا في يدها اليمنى شعلةً نَحَتُوها من كِسَرِ جماجمنا التي تكسَّرتْ كالفخار تحت أحذيتهم. إنها العبودية التي عانيناها سنوات طويلة، وما زلنا وسنظل نعانيها، إنه القمع الذي لم يترك لنا خياراً واحداً لتحديد مسارنا، أو لاستبدال بوصلتنا بأخرى تعرف الطريق. لقد تآمروا على الحجارة بعد قتل الأطفال، فلم يعد هناك حجر في هذه الأرض يمسح دمعة طفل. تعلمنا كثيراً، ونعلم بأننا مهما تعلمنا وتألمنا، ما أُوتينا من العلم إلا قليلاً. لم نعد نسأل عن الكرامة التي اغتيلت، والمروءة التي بدأت تنقرض. إن في جعبة الراقصة المصرية «رُوءة» التي ترقص في النادي الليلي القريب من المصحة، الكثير من الحكايات التي تحلل شخصية الرجل الشرقي. إذا اهتز أمام أولئك الرجال خصر «روءة»، تضيع سنوات وأساطير المروءة!

أخرجتُ الوردة الحمراء التي كنت أخبئها تحت قميصي ووضعتها على منضدة الشرفة، وأدرت ظهري لها، وقبل أن أتحرك خطوة واحدة إلى الأمام، وضعت يدها الصغيرة على كتفي، وقالت والدموع تبلل وجنتيها:

ـ لماذا رفعت جهاز الترجمة عن أذنيك ولم تستمع إلى كلمتي

التي ألقيتها اليوم؟ لقد قبلت أن أكتب وأشارك في الحفل من أجلك أنت فقط. أردت أن أروي لك قصتي. لك أنت فحسب، أنت الذي كنت تعنيني من بين جميع من حضروا ومن صفقوا بعد انتهائي من القراءة، ووقفوا يحيونني ويرفعون قبعاتهم، كل هذا حدث وأنت جالس في مكانك من دون أن تفعل شيئاً.

أجبتها باللغة العربية:

ـ وردة، لقد سمعتك كما لم يسمعك أحد من قبل، وتعلق قلبي بأرمنيةِ روحك الدمشقية، وأنت تسبحين في سرد حكايتك. أذهبتْ عقلي بحة صوتك يا وردة. كنتُ الشخص الوحيد الذي لم يكن في حاجة إلى جهاز الترجمة، كلماتك اخترقت شغاف قلبي واستوطنت جزيئاتي. لم أخرج مباشرة بعد انتهاء فقرتك من القاعة إلا لأجلب هذه الوردة الحمراء، وأقدمها إلى وردة حياتي التي هي أنتِ، لأجير الوردة من عذاب الذبول. حين تذبل هذه الوردة وتموت، ستنتقل روحها إلى عالم البرزخ، وما عالم برزخ الوردة إلا روحي، لذا أرجو منك أن تواري جثمانها بين دفتي كتاب إن لم يكن طلبي عليكِ ثقيلاً. الورد لا يُرمى يا وردة. أشعر وأنا أحدثك الآن بصداع سائل، صداع متحرك، صداع يقطر من ثقبٍ في دماغي ويصبّ في أوردتي.

مسحتْ دموعها وفتحت عينيها، كأن الدهشة أخرستها. لم

تصدق أن الواقف بجوارها في الشرفة إنسان عربي!

استرسلت في أسئلة متلاحقة من هول الصدمة باللغة الفرنسية:

ـ أرجوك انتظر... ماذا قلت؟

ـ من أنت؟

ـ ما اسمك؟

سألتها مبتسماً:

ـ لماذا لم توجهي إليَّ أسئلتَكِ باللغة العربية يا وردة؟

ثم أجبتها:

ـ اسمي عارف. عربي مهاجر من الكويت.

استرجعتْ لسانها العربي وقالت:

ـ أرني وجهك!

لم أطبق قوانين المصحة التي تمنع العاملين في هذه المهنة من الكشف عن وجوههم وأسمائهم، فلبيت رغبتها ورفعت عن رأسي القناع، فظهر لها وجهي الذي لم تره من قبل. اقتربتْ مني، ووقفتْ تقرأ عيني وشفتي وهي تعانق وجهي بيديها الصغيرتين، أرجعتْ شعري إلى الوراء، وغمرتني وهي تشمني وتقبلني مردّدة في حالة هستيرية:

ـ أحبّك... أحبّك... أحبّك.

في صباح اليوم الثاني، كنت أفيض رومانسية تكفي لإشباع سكان كوكب الأرض. توجهت إلى العمل بعدما اشتريت وردة حمراء من بائعة الورد المجرية التي تبيع الورد قرب عمارتي، ثم ارتديت زي العمل في غرفتي الخاصة في المصحة، وخرجت إلى الأطفال الذين كانوا يلعبون في قاعة الأنشطة الثقافية والرياضية. خمس طاولات تنس، وخمس طاولات كبيرة للرسم والكتابة، على كل طاولة، خمسة أقداح دائرية من الخزف، كل قدح يضم حزمة من الألوان الشمعية وأقلام الرصاص. وعلى الطاولات كشاكيل رسم. في الركن الأيمن من القاعة تلفزيون معلق يعرض للأطفال مجموعة من البرامج والأفلام الوثائقية التي تُنمي مواهبهم. كانت وردة تجلس على كرسي متحرك إزاء نافذة القاعة الكبيرة في الجهة اليسرى. اقتربت منها وسألتها قبل أن أُحَيِّيَهَا:

ـ أتسمحين لي بأن أقوم بطلاء أظافر يديك باللون الأحمر؟

ابتسمت، وهي تجيب:

ـ مع الأسف الشديد، لا يوجد عندي طلاء أظافر!

فتحتُ لها يدي، فضحكت حين رأتني أحمل زجاجة طلاء الأظافر الصغيرة من منتجات كوكو شانيل، وقالت:

ـ لا أدري ماذا أقول.

مددت لها يدي ودعوتها لنجلس إلى الطاولة القريبة من النافذة،

فوافقت، إذ أصبحنا نطل من مكاننا على كنيسة نوتردام. تركتني أقوم بعملية طلاء أظافرها، وكان ساموبل بوب في الركن الثاني من القاعة يلعب التنس مع أحد الأطفال، لوح لي من بعيد بمضربه الذي كان يحمله، وغمز لي كأنه أراد أن يقول:

ـ عِشْ حياتَك.

سألتني وردة وهي تنفخ على أظافر يديها:

ـ لماذا هاجرت من بلدك؟

أجبتها وكنت أريد أن أخلع القناع لترى وجهي كما رأته في الليلة الماضية:

ـ «ما كان لله أن يتخذ من ولد». وما كان للولد أن يتخذ من بلد، بعدما اشتد عوده، فقرر أن يهاجر كالطيور. إن هجرة الطيور هجرة متكررة ومتشابهة، فهي تهاجر في إطارها المناخي، فلا تعبر المحيطات والأقاليم من دون الاستعانة ببوصلتها الحسية، أما إذا حدث وخرجت من إطارها، فإنها ستموت بسبب اختلاف هوية الهواء في المناخ الذي لا يلائمها ولا يوافق تكوينها. هاجرتُ بعد فقدان كل شيء. لم أهاجر كما يهاجر البعض للعمل، بل هاجرت للأمل.

قاطعتني، وهي لا تزال تنفخ على أظافرها:

ـ أحب طريقتَكَ في اللعب بالكلمات.

تحول حوارنا بغتة إلى سوناتا هَذَيانية بينها وبيني. سألتها:

ـ ماذا لو قلتُ أحبُّكِ؟

أجابت فوراً:

ـ سأقول: أحبُّكَ.

ثم استدركتْ:

ـ عارف، أعطني قليلاً من الوقت كي أصدّق...

قاطعتها:

ـ أعطيكِ ماذا وكُلِّي عندَكِ؟

أمطرتها أسئلةً، فأنبتت إجابات.

ـ ماذا لو قلت أحتاجُ إليكِ؟

ـ سأقول: أحتاجُ إليكَ.

إنه ذكاء الأنوثة/ أنوثة الذكاء.

ـ ماذا لو قبّلتُ شفتيكِ الآن؟

ـ سأغمض عينيَّ.

إنها تمعن في الـ...

ـ ماذا لو طوَّقتُ خصرَكِ بذراعيَّ؟

ـ سأقول: خذني.

إنها تزداد في الـ . . .

ـ سأقول: إلى أين؟

ـ إليكَ.

إنها تمسك بالـ . . .

ـ وردة.

ـ عارف.

إنها تعرف ما الـ . . .

ـ أحبُّكِ . . .

ـ أحبُّكَ أكثر.

كانت نظرات سامويل بوب ترافقنا من بعيد كموسيقى تصويرية في لحظات بوحنا وهذياننا العاطفي، كانت نظراته نظريَّات. طفلة ترسم هنا، وطفل يبكي هناك، وأطفال مزعجون يلعبون حولنا، أما كنيسة نوتردام فإنها تقف بروعة بنائها في الشارع المقابل. أجراسها تُقرع في قلبي، وجوقة تراتيلها تأخذ مني مفاتيحها الموسيقية، ثم تتنزل كالملائكة.



٧

فكرت عندما حللت ضيفاً على الدكتور عبد الهادي علوان قبل سنوات في عمّان، أن أضع بين يديه مخطوطة الجزء الأول والثاني من كتابي الكبير «لماذاتي» ليقوم بنشر العمل في إحدى دور النشر الأردنية، لكنني تراجعت عن قراري في اللحظة الأخيرة. ولماذات ـ للتوضيح فقط ـ محاولة بسيطة مني لجمع ما لا يجمع من الأسئلة. أردت حينذاك أن أقول لأبي العلاء المعري حامل لواء لزوم ما لا يلزم:

ـ لزومياتك لك يا أبا العلاء، ولماذاتي لي.

بقيت محتفظاً بمسودات لماذاتي حتى هذا اليوم، لم أفكر يوماً في نشرها بعد وصولي إلى فرنسا. ركنتها فترة من الزمن، ثم عدت إليها بعد انتقالي من باريس إلى روان، نقحت جزءاً كبيراً منها، ثم غربلت ما كنت قد نقحته. كنت أحملها معي لأضيف لماذاتٍ أخرى في طريق الحياة. صعبةٌ كانت الليالي الطوالُ،

مُرَّةً كانت الحقيقةُ. والصبرُ احتمالٌ مؤجل، وغريبٌ كل ما كنت قد عثرت عليه. كل شيء يقودني لسؤال، والسؤال العظيم ليس سؤالاً، إنه الصرخةُ، ابتداءُ نموِّ الطفل، والركضُ في البعيد وراء الأرض، إنّ السؤال أرض الجواب، والجواب العقيم كالبلد الميتِ، انتظرت الأيام تحمل عن ظهري الهموم التي استباحت شبابي، وأرتني ما لم يرَ الناس في الدنيا من الغدر والضياع، فأعطيت انتمائي حقَّ التمرد والرفض، ولم أعترض لأصنع من جُرحي شعاراً مكرراً، كلُّ هذا، مَرَّ بي، والمحالُ يفتحُ بابي. لم أضع لأسئلتي أجوبة، كنت أسألُ أسئلة في صميم التدبر بالنظر في العواقب، وفي عمق التفكّر بالنظر في الدلائل. «اللماذا» التي تبنّيتها في مطلع مرحلة الوعي كانت من الصنف «اللماذيّ» المؤدي إلى اليقين. لم أبنِ لماذاتي على الشك إطلاقاً. ربما لأنني عرفت أن «اللماذية» مسؤولية، إذ ليست كل «لماذا» تستحق أن تكون «لماذا»، كم من «لماذا» في ثوب «ماذا» أو «كيف» أو «هل».

قل لمن يسألك:

ـ لِـمَاذَاكَ لك، ولِـمَاذايَ لي.

كأنّك تقرأ أمامه: «لكم دينُكُم ولي دينِ».

لقد عرفت «لماذا»، صادقت «لماذا»، وقضيت مع «لماذا» عمري كله، لم يحدث أن فَتَرَتْ علاقتنا في يوم من الأيام، ولم

تبعدنا التزاماتنا الكثيرة، بل قربتنا وصهرتنا في علامة استفهام. فكرت عندما كنت صغيراً، في أن أغير تصميم علامة الاستفهام وكتابتها ورسمها. لم أكن أعلم عن الشخص الذي صممها شيئاً، ولكنني أظن أنه الشخص نفسه الذي صمم علامة التعجب. ويبدو أنه كان معجباً بالنقطة، إذ وضعها تحت الاستفهام والتعجب، وبين الاستفهام والتعجب فرق جوهري وآخر ظاهري، من هنا أرى أن المصمم قد فشل في وضع نقطة الاستفهام تحت العلامة، وهذا هو أساس اختلافي معه، لأنني أرى أن نقطة علامة الاستفهام يجب أن تكون في الأعلى لا في الأسفل، فلا يصح أن يكون موقع النقطة في الاستفهام والتعجب واحداً. ما يميز لماذا هو هذا الهجين الواضح بين الاستفهام والتعجب. كنت أطور أدواتي «اللماذية» من خلال القراءة والتأمل والسفر والإصغاء إلى الأذان بصوت الحاج الشيخ حمزة. إن أجمل كلمة عامية في لهجة أهل بلدي هي من وجهة نظري كلمة «ليش» أو «ليه» في اللهجات العربية الأخرى. لقد كنت إنساناً «لَيْشِياً» بامتياز في طور طفولتي. وربما لهذا السبب، أجدني لا أَمَلُّ إعادة وتكرار سماع أغنية محمد عبد الوهاب «من غير ليه». كنت أتمنى أن أكون قادراً على تفريغ شريط ذهني الكلامي على الورق، ثم أقوم بعد ذلك بجمع كلمة «ليش» التي وردت في الشريط، منذ اليوم الأول الذي فيه نطقتها، وحتى هذا اليوم. كم مرة في حياتي قلت «ليش؟/ لماذا؟». وإذا سألني أحدهم:

ـ ليش؟

سأقول واثقاً:

ـ لا أعلم ليش!

بدأتْ «اللماذا» عندي حين بدأت أقرأ السؤال القرآني وأحلله. سألت نفسي: لماذا لم ترد في القرآن الكريم «لماذا» واحدة، في الوقت الذي وردت فيه «كيف» ٨٣ مرة، و«ماذا» ٢٧ مرة، . ترد «كيف» في حالات نفسية مختلفة في النص القرآني، فهي تأخذ أحياناً صيغة الجبروت كما في سورة الفجر: «ألم تر كيف فعل ربُّك بعاد»، ثم في سورة الفيل «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل». وتأخذ صيغة التحليل العلمي من الناحية الإبداعية كما في سورة البقرة: «وانظرْ إلى العظامِ كيف نُنْشِزُها ثم نكسوها لحماً». حللت «كيف» القرآنية، و«هل» القرآنية، و«ماذا» القرآنية، و«ألَمْ؟» القرآنية، وسألت حين كنت في الصف الثاني الثانوي معلم التربية الإسلامية:

ـ أستاذ، لماذا لم ترد كلمة «لماذا» في القرآن؟

أجابني الأستاذ بسؤال:

ـ أحقاً لم ترد «لماذا» في القرآن؟

بعد أسبوعين سألني المعلم نفسه:

ـ ألم تتوصل إلى جواب عن سؤالك المتعلق بلماذا في القرآن؟

قلت له:

ـ بلى، لقد توصلت إلى نتيجة أقنعتني.

ـ وما هي النتيجة؟ هل لك أن تطلعني عليها؟

لم يقل الأستاذ جاسم المطوع الذي كان يجلس على كرسيه خلف المكتب الخشبي في الفصل: «هل لك أن تطلعنا عليها» أي أن أطلعه هو، وأطلع زملائي في الفصل، بل قال: «تطلعني». جدير بالذكر أن عددنا في ذلك اليوم كان ـ إن لم أكن مخطئاً ـ قد تجاوز الثلاثين. كأنه ألغى الجماعة عندما اختار أن أوجه إليه تحليلي في استخدامه «تطلعني». وقفت لأطلعه ـ كما طلب مني ـ على ما توصلت إليه، وأشرح له وجهة نظري، فقاطعني قبل أن أنطق بحرف واحد، وطلب مني الجلوس. جلست وأنا أحاول أن ألخص له استنتاجي الأخير، بعد تأمل دام أسبوعين كاملين:

ـ إن الله يقين، واليقين لا يقول لماذا. إنه يقول: «كيف» وكيف، ليست لماذا. وإذا قال «ماذا»، فإنّ ماذا ليست لماذا أيضاً. إذا بدأت سؤالك بلماذا، فهذا يعني أنك مصاب بشكّ.

كان يصغي إليّ وهو ينظف زجاج نظارته الطبية، وعقّب قائلاً:

ـ جميل... جميل جداً، يعجبني تحليلك الذكي، كما تبهرني استنتاجاتك الأخيرة. متى سيأتي اليوم الذي أراك فيه تدرس

مادة الفلسفة في جامعة الكويت. أنا على يقين بأن فكرك سيرى النور في يوم من الأيام. سوف تشع نوراً في هذا البلد يا عارف.

لا أدري إن كان النور يشع ظلاماً في عالمنا الآن، أم الدنيا ليست جنتنا، كي نحملَ فيها المزمار، وننفخَ في صُلْبِ المزمارِ من النارِ الأبدية وهي تُهَسْهِسُ فينا. كم يكفينا من مالٍ وبنينَ لنَبنِي؟ كيف سيحمل اسمي ابني؟ كيف ستولد أجيال في هذا النفق المظلم، بعد أفول الشمس وبعد جفاف معين الحرية في أرض الله؟ يحاول بعض رجال الدين مصادرةَ الرحمن وتفتيشَ الأسماء الحسنى، كل الأسماء محاصرة، كل الأفكار مصادرة، كل الألقاب مفاخرة خاسرة. وضعوا الله تعالى في زاوية، واحتشدوا فوق عظام القتلى. لم يفتح أحد منهم نافذة للنور لكي يتعلم شيئاً. عاشوا في ظلمات خارجها ظلمات، داخلها ظلمات. شنقوا الحقَّ بحبل الباطلِ، حتى اصفرَّ العدلُ ومات.

بعد وصولي إلى يريفان، استحضرت تفاصيل الحفل الذي أقيم بمناسبة عيد ميلاد المسيح في مسرح المصحة. احتشدت في رأسي صور الأطفال الذين شاركوا بما لديهم من مواهب متنوعة، قبل أن تختتم وردة الحفل بورقتها التي قرأتها باللغة العربية.

شارك طفل ألماني اسمه تيريان في التاسعة من عمره في فقرة الرسم السريع، حيث وقف أمام جدارية كبيرة بيضاء، وقام

بتلوينها مستخدماً فرشاتين كبيرتين، وأخرى صغيرة لإظهار التفاصيل الدقيقة، ومعالجة الضوء والظل. بدا كأنه يلعب، لكنّ الجدارية البيضاء تحولت بعد عشر دقائق إلى سينما لونية. أبدعَهَا مستخدماً ألوان الأكريلك. رسم الطفل مدينته، أنطق في لوحته الجسر، والنهر، والأشجار، ودار الأوبرا، وقبة كنيسة السيدة العذراء وتمثال مارتن لوثر، رسم الطفل الأزقة الضيقة، وترك العصافير تبحث في منتصف الجدارية عن أعشاشها. الأهم من كل ذلك أنه تمكن من إظهار الطابع الباروكي للمدينة، وحين انتهى من الرسم، استدار لتحية الجمهور، وبعد أن توقف التصفيق، قال وهو يشير إلى الجدارية مخاطباً الجمهور في القاعة:

ـ إنها مدينتي.

ثم التفت وألقى نظرة على ما أبدعته يداه، وفاضت به عاطفته وأكمل قائلاً:

ـ درسدن.

ازداد تصفيق الجمهور. فما كان من أمه في تلك اللحظة إلا أن وقفت في وسط القاعة وهي تصرخ بأعلى صوتها:

ـ برافو... برافو تيريان!

فختم مشاركته بهذه الكلمات:

ـ درسدن... التي أحنُّ إليها.

سألت نفسي بعد انتهائه من فقرته:

ـ أحقاً يبلغ هذا الولد العبقري من العمر تسعة أعوام، وهل للمرض دور في صقل حزنه وشخصيته ومداركه؟

كان من بين المشاركين في الحفل، فتى ياباني في الرابعة عشرة من عمره اسمه تشيكاماتسو. قالت أمه ـ قبل رحيلها ـ إنها أسْمَتْهُ تشيكاماتسو، على اسم كاتب الدراما الياباني تشيكاماتسو مونزايمون، أو شكسبير اليابان، كما يُطلق عليه النقاد. لقد كان موهوباً في الكتابة. قرأ بعد التعريف عن نفسه مجموعة من النصوص والخواطر وقصائد الهايكو التي كتبها في فترة علاجه التي قضاها في المصحة، لم يلتزم شروط قصيدة الهايكو وقواعدها اليابانية المعروفة، لكنه استطاع أن يقرأ ويذهل الجميع. أخذت نصوصه المترجمة إلى اللغة الفرنسية من مدام كوبير، وقمت بنقل مجموعة منها إلى اللغة العربية كمحاولة مني لتشجيعه. دونت في دفتر صغير جزءاً من كتاباته. وحرصت على تدوين ما رأيته يمثلني ويوافق ذائقتي، ثم قمت بترقيم المقاطع كما فعل في المسودة الأصلية باللغة اليابانية.

١

كل شيء بعيد. . .

طوكيو،

حليب بقرتنا في الريف،

هدوء جدتي،

سلة الفواكه،

مفرش الطاولة الذي غزلته أمي

في عيد ميلاد أبي،

علبة الشوكولاته،

وجميع ألعابي.

كل الألعاب بعيدة، ككل شيء بعيد

ما عدا لعبة الموت!

أتذكر كيف أعاد تشيكاماتسو قراءة نصه الأدبي السابق ثلاث مرات متتالية بعد تصفيق الجمهور الحار. يقول في مقطوعة أخرى:

٢

الطائرة الورقية،

ليست ورقية في مخيلة الطفل.

وليست فارغة وهي تحلق حوله،

ثم تصطدم برأسه الصغير.

هل فكر أحد في اختطاف طائرة ورقية؟

الطيارة الورقية

ليست ورقية، ولا فارغة،

لأنها تحمل مشاعر الطفل الذي صنعها

بدلاً من حمل ركاب مجهولين!

٣

عندما فكرت أن أتزوج

اشتريت خاتمين

لي ولها

وأثثت بيتاً

لي ولها. . .

ثم جمعت المهر،

وحددنا موعد الخطوبة.

وحين تقدمت إليها

تم رفضي. . .

لأنّ من اخترتها كانت أمي!

وحين قرأ القطعة التالية، كان يسرح ببصره في المكان، كأنه ينتظر جواباً:

٤

أيها البحر. . .

احمل مدَّكَ وجزْرَكَ

واتبعْ أمواجي.

وألقى واحدة أخرى كأنها جرس إنذار:

٥

أيها الأطفال:

لنتحد مرة واحدة في الفكرة والمبدأ.

لنطلق معاً بالوناتنا الهوائية في وجه الطائرات الحربية.

لمرة واحدة فقط، لكي نرى بعدها ما سوف يحدث.

ولقد أنشد في الحفل قصيدة على طور غنائي ياباني أعجب الحاضرين، كانت القصيدة موجهة إلى أمه التي فقدها بعد إصابتها بفايروس مفاجئ أودى بحياتها.

٦

يا قلبي، لست ناياً لتنوح في الليل الموحش

ولست كوخاً لتضمَّ أسرة لاجئة إليك من زمن الحرب

إنك لا تملك جناحين كالعصافير

لتهرب مني.

يا قلبي، سامحني إن أنا أخرجتك من بين ضلوعي

وقدمتك كهدية متواضعة

إلى أمي

وهي على فراش الموت.

ويقول في نص مزدحم بالأسئلة:

٧

واحد...

اثنان...

ثلاثة...

ماذا لو جاء العدد الأخير في المقدمة،

والعدد الأول في النهاية؟

نحن الرقم «اثنان».

ماذا لو عشنا نهاية الأشياء قبل بدايتها؟

ماذا لو عُكست المسائل:

لتشرق الشمس غروباً...

وتغرب شروقاً؟

ماذا سيحدث لو أن الجنة كانت دار اختبار للإنسان،

ليفوز بعد ذلك بالأرض؟

لو خُيِّرتُ بين أن أكون وتراً أو حجراً أو قمراً،

لاخترت أن أكون وتراً يُنطقُ الحجرَ،

وحجراً يرجمُ القمرَ، بعد غياب أمي.

وقرأ تشيكاماتسو قصيدة هايكو جعلت الدكتور ساموبل بوب

يرمي قبعته إلى الأعلى ويلتقطها ثانية بيده من شدة إعجابه بالفكرة:

٨

البعوضةُ التي امتصَّتْ دمي

قَتَلَهَا صديقي

وضاعَ معها دمي.

٩

أناملُها راقصاتُ باليه على مسرح يدي.

حين قرأ القطعة التالية فتح زر قميصه الأعلى وهو يقول:

١٠

سأبتر أصابعي... إصبعاً، إصبعاً

وأغرسها بشفتيَّ ـ بعد فراغ يديّ من الأصابع ـ زهوراً

حول قبر موتسارت في فيينا

وسأجلس في المقبرة منتظراً هبوطه من السماء مع المطر

لكي يعلمني العزف على البيانو.

وفي نص آخر قال:

١١

إن كان الواقع يبدو للبعض غير واقعيّ،

فلماذا أحلم؟

إنَّ في واقعيَّتِي جِيناتٍ خيالية.

١٢

الكتابُ ـ بعد انتهائي من قراءته ـ يأخذ جزءاً من لساني

ويقتبس ضوءاً من عينيَّ.

بصماتي على غلافه وصفحاته تعطيه روحاً من روحي.

بعد إقلاعه من يديَّ، وهبوطه على الرفّ

يكون الكتاب قد غادر من منفى يديّ

إلى وطن المكتبة.

١٣

الأحلام انقرضت قبل انقراض الديناصورات.

لم تنقرض الديناصورات،

إلا لأنها لم تجد أحلاماً ممكنة.

١٤

طرقتُ الباب مرةً، مرتين، بلا جدوى

وبينما كنت جالساً على العتبة غير بعيد

إذ انحنى البابُ وربّتَ على كتفي قائلاً:

ـ عُدْ إلى بيتك يا صديقي!

١٥

حدجني ببصره، ثم قال لي:

ـ ألم تصلْ؟

قلت:

ـ أنَّى لي، وكلما دنوت انحسرَ الوصول!

حملتُ عطشي كحَدَبَة فوق ظهري

وغنَّيت ربيعاً ميتاً، واتكأتُ على السراب!

١٦

يدايَ القاحلتان اللتان رفعتا خُصلات شَعْرِكِ

في فاتحة الرقصة، نبت في طياتهما ريش وجناحان.

يدايَ القاحلتان أضحتا جنتين.

١٧

حين استرختْ،

تسرّب دفء إلى مفاصل الأريكة.

حين تثاءبت أهدابها،

جرَّ النعاس قوس كمنجته.

وحين غطَّت كالفراشة في نومها،

أكملتُ القصيدة وقبَّلتُ يديها.

١٨

دمعتان نزلتا من عينيْ أمي.
لا، إنهما مقلتان.
حين تبكي أمي،
لا تَسيل من عينيها دموع،
بل عيون مائية في صيغة الملح.

١٩

سقطَ رأسي في طوكيو
وتمزق قلبي في هيروشيما
وروحي لا تزال بين طوكيو وهيروشيما
تبحث تحت الأنقاض عن تفسير لرحيلي إلى فرنسا!

٢٠

في ليلة «تشايكوفسكية»
أمام فراشات الباليه
اللائي يُمارسن ذوبانَهنَّ في عذوبة النغمات
وحرارة الإيقاع،
تخضَرُّ أغصاني العطشى،
وأرتوي.

٢١

من عظامِ ضحايانا نصنعُ سُفُناً
ومن أيديهم المتناثرة في الجهات،
نؤلّف مجاذيفَ مطهَّمةً
ندفع بها مصائرنا
ومن سِيَرِهِم
نعيدُ تدوير الحياة.

كان تشيكاماتسو حين يحدثني باللغة الفرنسية يستخدم في كلامه بعض الكلمات اليابانية. لقد كان يفخر دائماً بلغته الأم ويطلب من الجميع أن يتعلمها. عندما كنت أمر بجوار حجرته وأنا أرتدي زي المهنة الرسمي، كان يناديني، ثم يقول لي:

ـ يوشي، أعطني هيمي، أريد أن أكتب.

وترجمة كلامه:

ـ أيها القلم، أعطني ورقاً، أريد أن أكتب.

وكنت أمدّ له يدي وأقول له باللغة اليابانية التي علمني مبادئها الأولى:

ـ دوزو، أي تفضّل.

بعد انتهاء فقرة تشيكاماتسو في ذلك الحفل الذي غيّر مجرى حياتي، جاء دور روز/ وردة، التي ارتقت سلم المسرح الجانبي كعروس.



٨

وضعت روز أوراقها فوق سطح المنصة على خشبة مسرح المصحة، ثم قالت بالفرنسية:

ـ سأقرأ عليكم ما كتبته بلغتي الأم كما طلب مني الدكتور ساموبل بوب. أتمنى أن تتمكن الترجمة من إيصال ما في قلبي من أحلام، وحكايات من زمن الطفولة الأولى، يدور معظمها في إطار المكان الذي ولدت فيه وفارقته قبل عشرة أشهر.

نظرتْ إليّ من مكانها كأنها تريد أن تقول شيئاً، كأنها تأمرني بالتركيز، ثم بدأت تقرأ. ذهلتُ في اللحظة التي سمعت فيها كلماتها الأولى وهي تقرأ باللغة العربية:

ـ سمّتني أمي وردة، اسمي الذي أحمله في جواز السفر، الاسم العربي لاسمي الأجنبي المتداول بينكم/ روز.

كيف لم أكتشف أنها عربية، هل هي حقاً عربية؟

أكملت القراءة:

ـ دخلت إلى هذه الحياة من خلال ثلاثة أبواب: الباب الأول، باب توما المكان الذي ولدت فيه بسورية. والباب الثاني، باب مدرستي. أما الباب الثالث، فهو باب هذه المصحة. تهجأتُ الحروف الأولى في الباب الأول، وتعلمتُ القراءة في الباب الثاني، حتى وصلت إلى الباب الثالث الذي فتحتموه لي بدفء محبتكم النقية، ومشاعركم الوضاءة.

وحين انتهت من قراءة فقرتها الأولى أنزلتُ سماعة جهاز الترجمة، لئلا تُحدث الترجمة تشويشاً قد يفسد عليّ متعة الإصغاء إليها بجوارحي. المدهش أنها لاحظت حركتي السريعة وأنا أُنزل السماعة، وكنت أجلس في الصف الأخير من المسرح عن يمين الممر الفاصل بين مقاعد الجهة الثانية من المسرح، تدلت وصلة السماعة على سجادة الممر الحمراء الطويلة ذات الخطوط الذهبية، وأنا أمسكها بيدي اليسرى، وأرتدي زي العمل الرسمي الكامل المكون من قطعتين: قطعة أضعها على رأسي لأخفي بها ملامحي، وقطعة ثانية يتدرج فيها اللون الأزرق الغامق من الأعلى حتى يتحول إلى اللون الأبيض في الأسفل. قطعة الرأس تبدو بلونها الفضي كسنّ القلم، أما القطعة الأخرى، فهي محاولة متواضعة من المصمم لإيصال فكرة الحبر الأزرق. أما لباس الكفّين، فكان يُدخل أصابعي في أقلام مصغرة من نفس تصميم الزي الخارجي للشخصية.

أحسست بأن أقلامي الداخلية قد بدأت تمتلئ بحبر سري، كالحبر الذي كانت تستخدمه أجهزة المخابرات في سنواتها الأولى لمراسلة الجواسيس. امتلأت بحبر لا يراه سوى روز/ وردة، وردة/ روز، وأنا. وفي الوقت نفسه كنت أرى في عينيها على الرغم من المسافة الفاصلة بيننا عرساً عظيماً، وتلهّفاً تحيط به غمّة تتصاعد خيوط دخانها من صدرها، لتطل من نافذتَي عينيها على العالم المتناقض. من مقعدي إلى المنصة التي تقف خلفها، رأيت الحياة تُلقي كلمتها على خشبة المسرح. رأيت الحياة بطهرها ونورها، لا برجسها وفجورها. بكلماتها وصوتها كانت تنقي ثوب الروح من دنس الغربة. أقسم أني رأيت الحياة كما لم أرَها من قبل، وبعد أن رأيتُهَا، وعيتُهَا.

التقطتْ روز ـ التي تحولت إلى وردة ـ يداً في داخلي، أمسكَتْها، ومضتْ بها/ بي، وهي تقرأ:

ـ اشترى أبي في عيد ميلادي الرابع طائر الكناري وسمّاه «الحقّ»، وكان أول طائر يقوم أبي بحبسه في قفص، حتى أن الطيور بدأت تهجر بيتنا تدريجياً بعد أن كانت تملأ برفيف أجنحتها، وبهديلها وزقزقتها أرجاء باحة البيت الخارجية حيث كان أبي وأمي يجلسان بجوار نافورتنا كل مساء تحت ضوء القمر الشآمي ويقضيان الساعات في احتساء السمر، وارتشاف الموسيقى، والهواء تتعتعه رائحة القهوة التي كنت قد أتقنت تحضيرها قبل بلوغي السابعة من العمر. حلَّقَت الطيور بعيداً

عن بيتنا لأنها رأت أبي يحتجز زملاءَ لهم في التغريد والدوران تحت قبة السماء الزرقاء طوال هذه الأعوام. فحين حلّ عيد ميلادي الخامس، قام أبي بشراء الكناري الثاني، ووضعه كذلك في قفص وسمّاه «الحبّ»، واشترى في العيد السادس «كنارينا» الثالث وأطلق عليه اسم «الوطن». مرت السنوات، وجاء عيد ميلادي العاشر. قال أبي قبل أن أطفئ شموع كعكة الميلاد وقبل أن تطلب أمي كعادتها السنوية أن أتمنى أمنية:

ـ هل لك أن تخبري بابا عن أمنيتك التي جعلت عينيك تتلألآن بالدموع في العام الماضي يا وردة؟

سألته قبل أن أصرح له بما تمنيت:

ـ وهل ستحققها لي إن بحتُ بها بابا؟

ضمني إلى صدره وهو يقبلني ويقول:

ـ بابا، أنتِ وردتي، سأصنع لكِ من ياسمين الشام قلادة، ثم أنقش عليها حروف اسمك، وأضعها حول جيد نهر بردى، ليتدفق كما كان قبل ثلاثين عاماً. أخبريني يا ضوء عينيّ وأعدُكِ بأني سأحقق لك كل أمنياتك.

قلت وأنا أضع رأسي على صدره:

ـ تمنيت أن تفتح الأقفاص، وتطلق الطيور.

وجّه أبي كلامه إلى أمي قائلاً:

ـ ابنتُكِ يا سحر تغلبني دائماً، وتسبقني إلى ما تسعى إليه نفسي.

وأضاف جملة مديح باللغة الأرمينية، لغة موطنه ومسقط رأسه يريفان، في أرمينيا. فضحكت أمي وهي تُدني الكعكة مني لأطفئ الشموع، وحين أطفأتُ الشمعة الأخيرة، وضعتْ أمي الكعكة على الطاولة وقالت تخاطب أبي بحسرة وأسف:

ـ لقد نسيتْ وردة أن تتمنى أمنية في عيدها هذا!

لكني أسرعت أقول من قبل أن أنتظر تعليق أبي:

ـ سأتمنى أمنية العام الماضي في هذا العام أيضاً.

نهض أبي وطلب مني أن أفتح الأقفاص بيدي، ركضت نحوها وأنا لا أكاد أصدق. فقال حين أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الأقفاص:

ـ بابا وردة، انتظري يا حبيبتي.

نظرت إليه، فسألني:

ـ هل حفظتِ أسماء طيورنا؟

ـ طبعاً بابا.

أشرت إلى القفص الأول، وكان فيه الكناري الهادئ الذي قضى في بيتنا ستة أعوام، ثم قلت:

ـ هذا الحقّ.

ولاحظت الكناري الثاني في قفصه يخرج منقاره من بين القضبان البيضاء كأنه يريد أن يبثني شكواه، وأكملت كلامي كأني ستّ خولة معلمتي في مادة الرسم وهي تشرح لنا الأشكال الهندسية، لم يكن ينقصني حينها كي أتقن تقمص شخصيتها سوى مسطرة صفراء، كتلك المسطرة التي كانت تحملها معها دائماً:

ـ وهذا الحبّ.

وانتقلت إلى الكناري الثالث الكئيب الذي لم يكن يغرد كزميليه، والذي يبدو لمن يراه كأنه طائر أعمى، وقلت:

ـ وهذا الوطن.

قال أبي وهو يقترب مني:

ـ عظيم جداً... افتحي قفص الوطن.

فتحته فطار، سألني أبي، فيما كانت أمي تنظر إلينا من مكانها وتستمع إلى حوارنا:

ـ لقد طار الوطن... أليس كذلك يا حبيبة قلب بابا؟

قلت وأنا أراقب هروبه السريع من القفص:

ـ كنت أظنه أعمى!

ضحك أبي وهو يشعل سيجارته، ثم تنهد مربتاً على كتفي:

ـ إنه حقاً طائر أعمى!

وأومأ إليّ برأسه لأفتح قفص الحب.

وعندما فتحته رأيته طار وارتفع قليلاً ثم عاد بغتة إلى مكان الأقفاص الثلاثة. لم يهرب الحب كما قبل قليل كان قد فرّ الوطن هارباً. راح يغرد، ويقفز بين الأقفاص، يتسلقها كأن في قلبه شجناً لا يتسع له التغريد. لقد أثار استغرابي ودهشتي سلوك هذا الطائر الغريب. وحين التفتُّ إلى أبي، وجدته يغمز بعينه اليمنى لأمي، وهي تنظر إلينا دون أن تقترب منا. استيقظتْ أسئلتي، وأنا أشاهد الحب وهو يحطّ على سطح قفص الكناري الثالث، الحق، محاولاً إيجاد طريقة لفتح باب القفص الصغير وإطلاق سراح الحق. بعد قفز وطيران وتغريد، دنا «الحب» من باب قفص «الحق» ورفعه بمنقاره إلى الأعلى، باءت محاولاته الأولى بالفشل، حتى تمكن في النهاية من أداء واجبه ونجح في إخراج الحق من القفص. دار بعد هذا المشهد السريع حوار بيني وبين أبي، حيث بادر يسألني:

ـ من الذي فتح قفص الوطن يا وردة؟

قلت:

ـ أنا فتحته.

أردف يسأل:

ـ والحب من أطلقَهُ؟

قلت والسرور يغمرني:

ـ أنا.

سكتَ برهة ثم أردف يسأل:

ـ والحق من أظهرَهُ؟

ولم يقل من أخرجه؟ أو من أطلقه؟ أو من حرره؟ بل قال: من أظهره؟ وكان سؤال أبي حينذاك رسالة عظيمة فهمتها في ما بعد. أجبته بطفولة واعية ومدركة:

ـ الحب، هو الذي أظهر الحق.

أضاف أبي في ختام حوارنا هذه الجملة:

ـ أما الوطن، فقد طار تاركاً وراءه الحبَّ والحقّ!

تجدر الإشارة هنا، إلى أن الجمهور في قاعة مسرح المصحة كان قد انفعل في التصفيق إعجاباً بسؤال والد وردة في حواره مع ابنته بعد سماع الترجمة: «والحق من أظهره؟». كان من المفترض أن أصفق قبل الحاضرين بصفتي العربي الوحيد الناطق باللغة العربية، إذ لم تكن حتى والدة وردة ـ العربية / السورية ـ قد حضرت الحفل لانشغالها في العاصمة باريس. ما هي العلامات التي كان من الممكن أن يحدثها تصفيقي، على

وجه وردة في ذلك اليوم لو أنني أذعنت لرغبة يديّ في التصفيق. هل كانت سترتسم الابتسامة على شفتيها؟ هل كان سيقدم الحزن استقالته من حكومة عينيها؟ أأكذب خيباتي؟ هل أصعد في التسليم وأمعن في التصديق؟ أم أبحث عن مفتاح آخر، عن عين أخرى داخل قلبي للتحديق؟ لماذا إذن لم أستجب لقلبي حين أراد الخروج من جسدي ليمارس وحده التحليق؟ ما بين تشريق يأتي من المسرح، وتغريب يخرج من سماعات الترجمة، كم كنت محتاجاً في تلك الدقائق إلى الامتزاج بالتشريق. لو كنت اتجاهاً جغرافياً لاخترتُ أن أكون شرقاً، لماذا أميل إلى الشرق، لا أعلم. وأقول إن الاتجاهات تدور حول اتجاه واحد، الشمال جنوب، والجنوب شمال، والشرق غرب، والغرب شرق. وفي حضرة وردة يخامرني الهوى الشرقي.

واصلتْ قراءتها بعد أن توقف التصفيق:

ـ سمعتُ أمي ذات يوم تشاكس أبي، وهي تجلس بجواره قرب نافورة بيتنا، في إحدى الليالي التي كان فيها القمر بدراً يضيء أزقة باب توما، قالت:

ـ الموت ذكر، والانتحار ذكر، والإعدام ذكر، والقضاء ذكر، والقدر ذكر، والفساد ذكر، والجنون ذكر، والجشع ذكر، والحزن ذكر، والمرض ذكر.

توقفتْ عن الكلام قليلاً لتأخذ رشفة من فنجان قهوتها ثم تعود

إلى قضيتها المفتوحة للنقاش، وحين كان أبي يضحك ويهزّ رأسه موافقاً، أضافت أمي:

ـ هذا هو الذكر يا حبيب قلبي، أما الأنثى فانظر من هي الأنثى. الحياة أنثى، والأرض أنثى، والشمس أنثى، والرسالة أنثى، والحضارة أنثى، والحكمة أنثى، والحقيقة أنثى، والفضيلة أنثى، والفطرة أنثى، والغريزة أنثى.

الشام أنثى، وسورية أنثى، ودمشق أنثى. ومصير العالم في النهاية كائن إلى الأنثى، فإما إلى الجنة، والجنة أنثى، وإما إلى النار، والنار أنثى.

الأنثى هي التي يستخدمها الذكر لرؤية وجهه في المرآة، والمرآة أنثى، فإن لم يجد في بيته مرآة، فإنه سيستخدم عينه في النظر إلى جسده، والعين أنثى، وإن كان أعمى، فإن يده ستسعفه، واليد أنثى.

قال أبي ضاحكاً:

ـ لا، لا، أنت لست منصفة يا روح قلبي، لقد قلتِ قبل قليل إن المرض ذكر، ولم تقولي إن الدواء ذكر، وحين قلت إن الموت ذكر، لم تشيري إلى أن الحرب أنثى، الأمر ذاته ينطبق على الانتحار والإعدام، فالحبل/ الذكر ما كان له أن يلتف حول عنق المحكوم عليه بالإعدام لولا المشنقة/ الأنثى! وتقولين الشام أنثى؟ وسورية أنثى؟ ودمشق أنثى؟ وتغفلين ذكر السياسة!

والسياسة التي دمرت ومزقت شآمنا، أنثى! يكفي أن تكوني أنت أنثى، ووردتنا أنثى، لأعرف قيمتي كذكر.

التفت إليَّ أبي وهو يغمز لي ويقول:

ـ أرأيتِ كيف هزمتُها؟

عقَّبَتْ أمي على كلامه قائلة:

ـ بل أنا سأهزمك إذا قلت لك إن الحب هو الذي جمع بيننا، ورفع بيتنا. تبقى أنت طريقي، والطريق مؤنث ومذكر في اللغة، أنثه أو ذكّره كما تشاء، لا يهم، المهم هو أنك حبيبي ونور عينيّ.

في المرحلة الإعدادية، قبل بداية العطلة الصيفية، أهدتني الست خولة معلمة الرسم كتاباً عن الفنان التشكيلي الفرنسي كلود مونيه، وطلبت مني أن أقرأ سيرته، وأطلع على لوحاته، بصفته فنانها المفضل. كانت الست خولة تكبرني بعشرة أعوام، وقد أهدتني ذاك الكتاب عندما كانت في الثانية والعشرين من عمرها. يقع بيتها على بعد خمسة أمتار من بيتنا. كانت تقيم مع والدها السيد جورج مكرزل صديق الفنانين ومرافقهم في حفلاتهم وجلساتهم الخاصة، والذي كان يحتفظ في قبو بيته بتسجيلات لمواويل ومقاطع نادرة لفريد الأطرش وأسمهان ووديع الصافي وصباح فخري وغيرهم، بالإضافة إلى أنه كان يمتلك مجموعة كبيرة من الأغاني بأصوات ملحنيها. يقول والدها في التعريف عن نفسه:

ـ أنا جورج مكرزل، ولدت في باب توما في السنة التي ولد فيها هناك في زحلة، أجمل شاعرين في هذا العصر، سعيد عقل، وميشال طراد، وكان ذلك في سنة ١٩١٢.

ثم يضيف بعد سرد الكثير من التفاصيل عن حياته التي قضاها في الوسط الفني:

ـ استضفتُ في إحدى الليالي الموسيقار الشاب آنذاك بليغ حمدي وكان في زيارة للشام مع العندليب الأسمر عبد الحليم حافظ والإعلامي وجدي الحكيم، حضر بليغ والحكيم، وغاب عن سهرتنا حليم. ولقد حدثت العجائب الفنية في تلك الليلة. جلسنا في زاوية من البيت قرب النافورة، وبدأ بليغ حمدي يقول بالعامية المصرية:

ـ للشام في قلبي مكانة...

فقاطعتُهُ شعرياً من دون أن يعلم بأن جملته التي قالها بالعامية تصلح لأن تكون مطلع قصيدة باللغة العربية الفصحى:

ـ للشامِ في قلبي مكانَةْ... تركَ المكانُ لها مكانَهْ

ردّ وجدي الحكيم وهو يضع فنجان القهوة على طرف النافورة التي كنا نجلس إزاءها:

ـ الله عليك يا جورج... الله عليك يا بليغ!

ثم طلب منا أن نكمل هذا الارتجال الشعري ليقوم بليغ حمدي

بواجبه في التلحين بعد انتهائنا من الكتابة. قال بليغ وهو يشعل سيجارته مبتسماً:

ـ لا يا أستاذ جورج، أنا سأكتب شطراً بالعامية، وأترك لك قفلته بالفصحى كما فعلت.

قلت له:

ـ نسجل البيت الأول كما ارتجلناه بالفصحى أولاً، ثم نطبق اقتراحك في ما سيأتي بعد ذلك، ما رأيك؟

قال وهو يأخذ نفساً من سيجارته:

ـ موافق.

انتطرته يستسقي قريحته الشعرية حتى قرأ بعد دقيقة من الصمت والتفكير:

ـ قلبي اللي من بردى ارتوى

ارتجلتُ قائلاً:

ـ ناداكَ يا نيلَ الكنانةْ

أضاف بليغ:

ـ شامِـمْ عبير الشام يقول

ابتسم حين رآني مبتسماً لإعجابي بارتجاله السريع والبديع في الوقت نفسه، أكملتُ البيت قائلاً:

قاسيونُ حمَّلَنِي الأمانةْ
فكر بليغ قليلاً وقال:
ـ ولما الهوى ونار الهوى
وضعني ببساطته أمام مرمى الارتجال أتلقى ركلات الترجيح الشعرية، قلت:
ـ حَمَلا حنيـنَ السنديانةْ

أبدى إعجابه بارتجالي، وحمل عوده من دون أن يمسك الريشة وراح يمرر أصابعه على الأوتار، ثم نهض وجلس على الأرض كعادته حين يغني أو يلحن، وقال مرتجلاً:
ـ بصيتْ لقيتْ كاسي اتْـملا
عصرت مخي قليلاً، ثم قلت:
ـ وشَرِبتُ حتى صِرتُ حَانةْ!
صرخ وجدي الحكيم:
ـ الله الله.
أنهى بليغ حمدي تلحين الأغنية بعد كتابتها، ثم غناها بعد ذلك بصوته الشجي، وكانت من بين أجمل الألحان التي لحنها في منتصف الستينات.

حكايات كثيرة سمعتها وعشت بعضها، عشقت تفاصيلها، تمنيت أن أظل تلميذة ست خولة، وأن تظل هي مثلي الأعلى،

أن أقلد طريقتها في الكلام وتسريحة شعرها، أن أحمل كتاباً ضخماً ومسطرة صفراء وأدور حول نافورة بيتنا، كما تدور الفراشة حول الضوء. لكن خولة ماتت وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، وانطفأ الضوء الذي كان يضيء زوايا حياتي. لم أعلم أن معلمتي قد ولدت وهي تحمل ثقباً صغيراً في قلبها إلا بعد وفاتها. أخذ الثقب الصغير يتسع مع مرور السنوات، حتى تسبّبَ في توقف ذلك القلب الذي احتواني بكل ما تعنيه كلمة الاحتواء من معانٍ عميقة. لا أدري هل قادني حزني عليها إلى الباب الثالث في مشواري، إلى حيث تجلسون الآن إزائي. ما الذي أخبئه عنكم حين أمارس الكتابة بلغتي الأم؟ لقد خرجنا من الشام إلى أرمينيا موطن أجدادي بعد مرور عام وثلاثة أشهر على رحيل الست خولة، لم أكن أعلم في بداية ذلك الرحيل المفاجئ شيئاً، فربطته بوفاة معلمتي، وكان السبب الأول لهجرتنا هو موقف أبي السياسي في معارضة حزب البعث. أقمنا حين وصلنا إلى العاصمة يريفان في بيت العائلة الكبير، بيت جدي آرام آرونيان الذي كان قد خرج من البيت واعتكف في كهف صغير شيده لنفسه، لكي يمارس فيه طقوس تأملاته بعيداً عن ضوضاء المدينة، وكان كهفه يقع في جبل أرارات. يروي أبي عن أبيه فيقول:

ـ وُلد أبي في سنة ١٩١٥ واختار ابنة عمه لتكون أمي. عُقِد قرانُهما في مطلع ١٩٣٥. أنجبت له بعد مرور عام واحد على زواجهما أخي الأكبر، ثم بعد عام واحد جاءت أختي التي

توفيت بعد عامين من ولادتها، وجئت أنا إلى الدنيا بعد وفاتها في كانون الأول ١٩٣٩. وبعد ثلاثة أعوام ولد أخي الأصغر. هاجرنا إلى دمشق بعد وصول رسالة من عمي الذي كان يقيم ويعمل في حلب. دعانا في الرسالة نفسها إلى الهجرة، وراح يبين لأبي أن الحياة التي عاشها في أرمينيا ليست حياة، الحياة الجديدة في حلب. ثم سأله في آخر الرسالة إن كان سيسمح لأبنائه بأن يتشردوا في مدن العالم كبقية الأرمن؟ وهل سيبقى وحيداً هناك ينتظر هذا المصير من دون أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام؟ حزمنا حقائبنا وأمتعتنا وعبرنا الحدود في سيارة جيب عسكرية. ولا أدري إن كان سائق السيارة من أصدقاء والدي، أم أن أرمينيا تبرعت في تلك الحقبة الزمنية من تاريخها السياسي الحديث بعد استقلالها عن الاتحاد السوفييتي بنقل المواطنين المهاجرين من أرضها إلى المنافي المجاورة، جورجيا، أذربيجان، تركيا، سورية، العراق، إيران! أقمنا عامين في حلب، ثم انتقلنا إلى اللاذقية، عمل والدي وأخي في المراكب البحرية وصيد الأسماك، ثم حين ازدادت ديون أبي، اضطر إلى بيع مركب كان يملكه ودكان صغير خصصه لبيع بعض مستلزمات الصيد. على مضض تركنا اللاذقية، ولم نكن نعلم بأن الشام ستفتح لنا باب قلبها، وباب قلبها هو باب توما. استأجر أبي شقة مكونة من غرفتين وصالون وحمام مشترك.

عندما يتحدث أبي عن أبيه، تمتلئ عيناه بالدموع كأنه يتحدث

عن شخص ميت، كنت أتساءل، كيف سيكون ردّ فعل أبي إذا ما جاءه نبأ وفاة أبيه، جدي؟ لكنّ أبي كان أذكى من أن يترك لغز دموعه من دون حل، إذ قال في العديد من المجالس:

ـ إن عينيّ تفيضان أحياناً بدموع لا أعرف مصدرها الحقيقي حين أذكر أبي، ولا سيما أنه لا يزال حياً يُرزق المحبة والرحمة والحكمة، هناك في كهفه الصغير في قلب جبل أرارات. لا أكاد أحدد لتلك الدموع سبباً واحداً يفسرها في الوقت الذي أتذكر فيه أبي وصبره وحكمته وشقاءه وتعاسته وخوضه في معاركة الفقر وخروجه في النهاية من نفق البلوى منتصراً مرفوع الهامة. لقد استطاع بعد سنوات من العمل في مهن كثيرة ومتنوعة، أن ينأى بنفسه عن الجميع. عمل أبي في البحر حين كنا في اللاذقية، ثم حين أقمنا في الشام، عمل في تجارة اللحم، ثم اختار النجارة، فتكفل بتأثيث بيوت جيراننا في باب توما، وأضاف لمسة أرمنية على تصميم النافورة الدمشقية. يروي أحدهم عن أبي هذا الحوار الفلسفي الذي دار بينهما في يوم من الأيام، فيقول:

ـ وجهت إلى المعلّم آرام آرونيان سؤالاً عن الخشب وأنواعه، وكيف يمكنه أن يبتكر كل هذه النقوش والتصاميم في فترة وجيزة ثم ينفذها مستخدماً أدوات تهذيب الخشب بدقة متناهية يعجز عنها نجارو الشام. كان يصغي إليّ وهو يثبت مسماراً في لوح خشبي بضربات خفيفة من مطرقته الرشيقة، ثم قال:

ـ للخشب روح، كما أن لكل شيء في هذه الحياة روحاً، للماء روح، وللتراب روح، وللهواء روح. وروح الخشب ليست روحاً مستقلة، لأن انتماءها يعود إلى الشجرة، وللشجرة روح، فهي إذن روح بُترت من روح، وروح الشجرة بُترت أيضاً من روح التراب، أنتَ في حضرة أرواح أمام الخشب، والعمل الإبداعي يكمن في فهم لغة روح التراب، ولغة روح الشجرة. لقد خُلق الخشب متمرداً. لا أقول إن تمرده يظهر في انكساره أو تَغيُّر لونه، إن الخشب الذي يُصبغ يصبح كالإنسان حين يجبر على الانتساب إلى حزب سياسي أو تيار فكري! خذ لوحاً من الخشب، وعلقه على حائط في حجرتك، لا تقل إنه فارغ، إنّ بعض الفراغ امتلاء. ثم انظر إلى اللوح المعلق، ولا تكن غبياً فتفكر مثلاً أن تبروز هذا اللوح. كيف تسمح لنفسك أن تبروز خشباً بخشب، قل لي كيف؟ كيف تتيح ليديك أن تقوما بفرض حصار قاسٍ كهذا الحصار على الخشب؟ الخشب من ضمن الأشياء التي تحتاج إلى ترويض، ولا يمكن للنجار أن يبدع في عمله إن لم يتعلم فقه الخشب وشريعته.

تعلّم أبي العزف على الناي والبزق والدودوك ـ المزمار الأرمني. حفظ تراث الغناء الحلبي عن ظهر قلب، كما تعلم اللغة العربية وأتقنها وأسهم في نقلها إلينا، كان يحب القرآن الكريم، والإمام علي، ومعلقات الشعر الجاهلي، وفيروز. كان يقول عن فيروز:

ـ ثلاثة صنعوا لبنان: جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وفيروز.

وكان رأيه يثير غضب البعض، لكنه كان يصرّ دائماً على رأيه، موضحاً لأصدقائه:

ـ اشطبوا أسماءهم، وانظروا إلى لبنان. أتراكم ستحنّون إلى شيء في لبنان بعد شطب أسمائهم؟

استطاع أبي أن يُؤَمِّنَ لأسرته الصغيرة وطناً في بيت مصمم على الطراز الدمشقي، مبني بيد نبتت في أرمينيا وشربت عروقها الجمال، يد أبي التي أقبّلها وأضعها على جبتهي ثم أضمّها إلى صدري ليطمئن بوجودها قلبي، هي صليبي، وهي إنجيلي، وهي مصيري.

سمّتني أمي وردة، لأنها تحب وردة الجزائرية، وكانت تتمنى كما أخبرتني أن تكون عيناي سوداوين، لكي تغنيَ لي أغنية وردة، «العيون السود». لكنني أخذت زرقة عينيّ من أبي. فما كان من أمي إلا أن تستبدل أغنيتي صباح «حبيبة أمها» و«أمورتي الحلوة» بأغنية «العيون السود». سمّتني أمي وردة، فتقمصت اسمي، حملته وحملني معه. أخذت من الوردة جميع حالاتها، وأدركت أن الوردة في نهاية المطاف ستذبل، كما أذبل أنا الآن.

شعرت بوخْز داخليٍّ موجع، كأنّ إبرةً شَكَّهَا الألمُ في لحمي على حين غرة، عندما نطقت وردة بجملتها الأخيرة. شكرتُ القناع الذي كان يخبئ وجهي، ويخفي دموعي التي اتخذت سبيلها فوق خديَّ سَرَباً. استمرت تقرأ:

ـ لماذا عندما نصرّح بالحقيقة يتهمنا البعض بالتشاؤم؟ لماذا أبدو متشائمةً أمام بنيك يا زمن؟ لقد ولدت في سورية، وكبرت في أرمينيا، وجئت إلى فرنسا لأعالج ذبولي كي أعود إلى الحياة. أُحبُّ الحياةَ، أحبُّ الموسيقى، أحبُّ صوت فيروز الذي تمكن جدي من رؤيته ذات يوم في كهفه. لقد رأى الصوت، وسمع الصمت.

كدت أقفز من مكاني بعد حديثها عن جدها، لم أصدِّق ما سمعته. رحت أسأل نفسي كأني في هذيان مكبوت:

ـ هل قالت إن جدها تمكن من رؤية صوت فيروز؟ وأنا الذي أحلم برؤية الأصوات!

أَأُصَدِّقُ أُذُنيَّ أم أكذبهما، أم أقاطعها وأقول لها: وردة... أرجو منك أن تعيدي قراءة فقرتك الأخيرة يا حبيبتي، أعيدي قراءتها مرة، مرتين، عشر مرات، عشرين مرة، خمسين مرة، أعيدي قراءتها حتى مطلع الفجر، وأعيدي إليَّ صوابي!

ثم اختتمت قراءتها بهذه الكلمات:

ـ أُحبُّ الحياة التي علمتني كيف أُحبها، وكيف أنام في فصل

الربيع على العشب الأخضر، وأنظر إلى السماء التي انتقلتْ زُرقتها إلى عينيَّ، سأحتضن السماء وأؤسس معها أرضاً جديدة أخرى تحت الأرض. أحبُّ الحياة التي علمتني القراءة، والكتابة، وتحضيرَ القهوةِ والأمل. كم أنت كاذب أيها الأمل!

حملتْ وردة أوراقها ووقفت تحيي الجمهور الذي انفجر يصفق في القاعة بحرارة. خرجتُ من الحفل بملابس العمل، واشتريت وردة حمراء من بائعة الورد المجرية قرب كنيسة نوتردام، وعدت إلى المصحة وأعطيت وردة، الوردة. كانت الوردة الحمراء تذكرتَنا الأولى إلى الحب.

٩

لم يبقَ أمامي بعد رحيل من رحلوا سوى خيار واحد، هو أن أرحل إلى أرمينيا قبل فوات الأوان. كنت قبل خروجي من فرنسا لملاقاة تيمور في إيطاليا قد أخبرت وردة عن رحلتي إلى المغرب في رحلة بحرية من نابولي إلى طنجة. رفضت في البداية فكرة سفري، لأنها لا تريد أن أغيب عن عينيها. لقد كانت سعادتها لا تكتمل إلا عندما أطرق باب غرفتها في المصحة كل صباح وأدخل حاملاً معي وردة أو كتاباً، وكنت أختار لها دواوين الشعر في أغلب الأحيان. كانت تركض إليَّ وتعانقني وأنا عند الباب. لاحظ الأطباء بعد فترة وجيزة أن شعرها أخذ ينمو، وأن تساقطه بدأ يتوقف بشكل تدريجي، لكن حالتها الصحية اضطربت بغتة في الآونة الأخيرة، ولم أتمكن من الخروج من دائرة خوفي عليها رغم محاولاتي الكثيرة. اتصلت وأنا في طنجة بالدكتور ساموئيل بوب قبل سفري إلى يريفان وطلبت منه أن يقبل استقالتي من العمل، ثم

شرحت له الأسباب التي تدعوني إلى اتخاذ قرار مفاجئ كهذا القرار. رفض بوب طلبي وأصرّ على رفضه في بادئ الأمر، وقال لي بالحرف الواحد:

ـ عارف، إن خروجك من المصحة سيسبّب صدمة حقيقية للجميع. إنك تنسف كل ما تعلمته في دورة التأهيل والعمل. فكّرْ قليلاً ولا تتصرفْ بأنانية.

بيّنت له في المكالمة ذاتها ما واجهته في حياتي من خسائر في المال والأهل والوطن، وأن خروجي من المصحة لا يعني عدم رغبتي في العمل، فهذا ليس صحيحاً. إن خوفي الذي بدأ يتضخم في أعماقي على وردة لم يدع لي فرصة واحدة للتفكير في الأمر، والتراجع عن قراري. ثم قلت له إنني أنوي الذهاب بعد يومين إلى يريفان لزيارة المعلم آرام آرونيان، جدّ وردة، فوافق مرغماً، وطلب مني أن أسمح له بشرح قصتي لوردة، من الألف إلى ياء، فوافقت.

عشت ولم أفسّر ما كنت أمر به. خروج عمي جاسم من بيتنا، ورفض جدي استقبال المعزين بعد وفاة عمي. سجني العسكري، ومقتل ضيدان على يد زميل لنا جاسوس! ويأتي بعده مقتل عائشة، وزيارة روزيندا المفاجئة بعد وفاة عائشة، وإغلاقها نوافذ شقتي. هل أرادت بزيارتها تلك أن تنقذ حياتي من طليق عائشة؟ وكيف كان سيصل إلى شقتي إن كان لا

يعرفني؟ هل أرادت روزيندا أن تطلعني على سرّ ما؟ وما هو ذلك السرّ؟ في الواقع لا أدري. ثم جاء مقتل تيمور، فقَلَبَ الطاولة على رأسي، وبعثر كلَّ أوراقي. عشت ولم أفسّر ما كنت أمر به من تناقضات لا يربطها ببعضها سوى خيط يُسمى القدر. ولكن، ما هو هذا القدر؟ ما شكله؟ ما لونه؟ من أين جاءني، وإلى أين سيأخذني؟ كيف لي أن أغمض عينيَّ قبل أن أستجوب نفسي وأنا أستعد للنوم، كأني في مجلس شعب. المجلسُ رأسي، والشعبُ ضميري الذي حاز الدكتوراه في التأنيب. يا لها من ليلة لا تريد أن تمرّ. ستارة غرفتي متصلبة في مكانها لا تتحرك إزاء النافذة المفتوحة، كأنّ الهواء الخارجي غير آبه لي، إذ يمر بي كأنه سائق تاكسي في ليل ماطر في العاصمة الهولندية أمستردام. ما أسوأ المقارنة التي جعلتني أتذكر تلك الليلة الصاخبة في حانة السيدة الروسية العجوز ناتاشا، حين خرجتُ متأخراً بعد أن تعتعني السكر، أبحث عن سيارة أجرة توصلني إلى فندق فيكتوريا في ساحة رمبرانت. مكثت واقفاً تحت الأمطار أتقي الريح والبرد بمعطفٍ جلديّ طويل، كأني مسمار نحيل دُقَّ في لوح خشبي، واعوجَّ جسمه من قوة المطرقة! تبحرت في علوم عيون النساء، فلم أجد عينين كعينَي وردة بعد جفافِ جميع محيطاتي، وغربتي في محطاتي. كنت أبحث عن خيط لكاماسوترا روحية، فلم أجد ذلك الخيط إلا عندما وجدت وردةً. لقد أصبحت وردة، نخلتي، نخلتي التي اقتُلعت من بيتي، كما اقتُلع الوطن من

قلبي! لقنونا في مدارسنا ذات المناهج البالية، وقالوا لنا في طفولتنا: لا تكذبوا، لا تسرقوا، لا تسرفوا، لا تقولوا كذا، وقولوا كذا، إنّ الله يراكم. والمنطقي هو أن الله لا يرانا فحسب، وإنما يراهم أيضاً، فلماذا أغرقونا بوصاياهم، وَلاءَاتِهم الكثيرة، ثم فرضوا علينا ما لا نحب. وكرروا المقولات التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم «اعمل ما لا تحب حتى تعمل ما تحب»، ولم يحددوا لعمل ما لا نحب فترة زمنية. ومتى سنعمل ما نحب؟ أهي خمسة أعوام أم عشرة؟ أهي عشرون عاماً أم خمسون؟ ثم من المسؤول عن تحديد تلك الفترة الزمنية الافتراضية المتوارثة؟

آمنا بأن الله يرانا، وما آمن أكثرنا بأننا نرى الله. اتُّهمنا بالكفر، وحللوا قتلنا. وتحليلُ القتل ـ وإن لم يتحقق وقوعه ـ قتلٌ للروح قبل الجسد. السؤال، من منا لا يتمنى أن يرى الله؟ ومن منا لم يرَهُ في حياته؟ المبصر والأعمى رأيا الله بعين الباطن، وتمكن المبصر من رؤيته بعين الظاهر، لكنه خاطبَ الطبيعة بوصفها عملاً من بديع صنع الخالق فحسب، عملاً مستقلاً بماهيته عن ماهية الخالق، وهنا يكمن الخطأ، الخطأ في الفصل والتقسيم، لأن الجزء الذي لا يستخدمه الإنسان العادي من عقله، هو الذي يفرض عليه ويؤكد له صحة استنتاجه الخاطئ. العقل وحده الذي يبقى في حاجة مستمرة إلى الترويض. ترويض العقل يُرَبِّي القلب. ولن ينجح الإنسان في تربية قلبه إن لم يتعلم كيف يروض عقله. راقبِ الديكَ في

القَفَصْ، والعناقيدَ والسماءْ، أَكْمِلِ البحرَ إنْ نَقَصْ، كُلُّنَا في الوجودِ ماءْ. دار بيني وبين زميلتي في الدراسة عندما كنت في باريس، حديث فتحتُهُ حين كنا نجلس منفردَين في قسم النحت، لأصل في النهاية إلى هدف واحد، أو رغبة واحدة إن صح التعبير، وهي أن أمسك يدها. قلت لها إن الحدود وضَعَتْهَا السياسة الخارجية لتمزيق الإنسان قبل المواطن، واستشهدت باتفاقية سايكس بيكو التي شرّحت جثة الهلال الخصيب، ثم قامت بتوزيع أطراف الجثة. وأوضحتُ لها أن الإنسان إذا أحسّ بالعطش فإنه يلجأ إلى الماء، فماذا عن عين الإنسان إذا أحست بالعطش؟ فقالت يمكنه أن يذهب إلى حديقة كي يُشبع عينيه بالمناظر الطبيعية، لكني قاطعتها، وبيّنت لها أنواع العطش، فهناك عطش إلى رؤية امرأة واحدة، وتلك المرأة هي أنتِ، ابتسمتْ وهي تشعل سيجارتها. قلت في نفسي، سأواصل. إنني كمواطن عربي من الكويت، لا بد لي قبل حجز تذكرة السفر إلى أوروبا، أن أستخرج من سفارة الدولة التي سأزورها فيزا، تمكنني من العبور بسلام. أما كإنسان فإنني أحتاج إلى فيزا من يديكِ لأعبر إلى عينيكِ. ونجحتُ في عملية المراوغة، وبدلاً من أمسك يداً واحدةً، أمسكت يدين اثنتين، وبدلاً من تقبيل خدّ واحد، قبلت خدين اثنين، وشفتين، وطوقتُ خصراً، وشممت نحراً، ثم قلت لكل ما فيها، من رأسها حتى أَخْمَصَيْها: شُكراً.

ليتَ العواصم كالنساء، ليت النساء يتحولن إلى مدن أو قرى.

ليتني أقطفُ «وردة» من المصحة وأزرعها في بستاني. ليتني أقول لها الآن قبل هروبي إلى جدها في يريفان: أُحبُّكِ.

لم أتكهنْ بالآتي، ولم أُسرفْ في نبش المنطق لئلا أُصابَ بثورة على نفسي، ولم أستنطق الرؤى التي تكدست دهونها في شراييني، لأني مشيت في طريق رسمته لي قوة كونية أحسّ بها وأراها متى ما أريد بإذنها لا بإذني. الصوت المنساب في أذني ينبئني أن الليل طويل، وبأنّ عقارب ساعاتي لا بد لها أن تهرب مني، بحثاً عن إنسان غيري، لم يُبصر ما أبصرتُ وراءَ الصخرة، لم يتجرعْ ما في الكأس من العرفانِ، ولم يفقدْ إخوتَهُ في منتصف الرحلة، والقرية موحشة حين يجيء الليل، فكل ذئاب العالم تعوي، وكلابُ البلد المسعورةُ تنبح في أركان الدنيا، قططُ الأرض تموء، لسان الغيم ينوءُ بما في صدر الغيب. لقد حاولتُ وحين فشلت رجعت إلى تبديد اليأس وحاولت لكي أربح شيئاً من أمل لا يعني شيئاً، من وهم يسعفني، من وهم يعرفني من وجهي حين يراني أطلب منه مرافقتي في حفل الموتى. لا أعلم كيف غدا الوهم صديقي في تلك الفترة، صرنا ظلين لوهم رافقنا في الركض على أسوار الواقع، ثم غدونا عُصبة أوهام، تنمو في رحم المجهول، وتُولد أنثى ذكراً، ذكراً أنثى، ونحار بهذا المولود، نفتشُ عن مركز أيتام يكفله، نسأل عن يمٍّ في كل صحارانا كي نقذفَهُ فيه، لتأخذه جارية في قصر الوالي، نُرخص للتأويل الغالي، ربتما ـ والغدر كثيف ـ نقرأ من ثقب الكشف سطوراً خُطَّتْ بمداد

الملكوت، ونرحلُ مثل طيور بحيرة لوجانو، نغزو ميلانو، ونُهندس شكل الشاطئ والمرسى، ننسى كي ننجوَ من ذاكرة ترجعنا في بعض الأوقات إلى الماضي، والماضي سجن، والقضبان مصائرنا، وبصائرنا تفتتح الفكرة والتكوين، وتنهل من نبع الأسرار. طويلٌ دربك حين تراه قصيراً، وقصيرٌ إن كنت تراه طويلاً، لا يعني هذا أنْ يغتنمَ الإنسانُ الفرصةَ قبل فوات أوان الفرصة، فالفرصةُ أحياناً تغتنمُ الإنسان. لا يدَ للإنسان إذن في هذي الحالة، والحالةُ كلُّ الحالةِ في يد من قال لهذي الحالة: كوني حالة. وأحاط الحالةَ بالهالة. لا يدَ للتخمين إذا قررنا مثلاً أن نُعطي للتخمين مجالاً للتعبير عن الرأي، فهذي ليست حريةَ رأي، كي لا يختلط الحابلُ بالنابل، والحاكمُ بالقاتل. والصوتُ يظل حبيساً في صندوق مختوم بالشمع الأحمر. لم أتكهن إلا بالمجهول من القدر المجهول، وما زلت إلى هذي اللحظة أُبقي الباب على جرحي مفتوحاً كي أتألمَ،كي أتعلَّمَ من ألمي ما يجعلُني أثقُ الليلة بالقادم. من أيِّ طريق سوف يجيءُ القادمُ، ثم إذا جاء، إلى أي طريق يأخذني؟ هل أُدخل هذا القادمَ لو جاءَ إلى بيتي؟ أُجلسه في الصالةِ، أم في الشرفة؟ هل يشربُ شاياً أم قهوة؟ أم يختار عصيراً مرّاً، أم يسألني إن كانت عندي مشروبات روحية؟ هل سوف يشاركني البيتزا والصمتَ أمام تراجيديا الموقف؟ وانتظارُ البيتزا، من وجهة نظري الشخصية، محاولةٌ لتبديد الوقت، فهل أنا خائف إلى هذا الحد من مواجهة قدري/ القادم؟ أم أنني واثق بنفسي

ثقة لا غبار عليها في الإقدام على ما كنت أخطط له على مدى الشهرين الفائتين؟

خاطبت وجهي في المرآة، ذات لحظة فصامية رائعة في ليلة من ليالي الشتاء الطويل. رسمتُ لتلك اللحظة الطريق، ووضعت لها سيناريو تفاصيلها. لم أكن أعلم من أين سأبدأ، كانت المرآة تتسع، تتكاثر بي، تتكسر على قسماتي، أرى خيطَ دمٍ يسيل إلى الأعلى، يلبسُ البياضُ سوادَ قلبه، أنتفضُ، فيما يهتِفُ من أعماق المرآة طفل أكاد أراه بعينيّ وفؤادي، قد أَكُوْنُهُ وأُكَوِّنُهُ كما أشاء، وقد يَكُونُنِي ويُكَوِّنُني هو من دون الأخذ برأيي. من أنا لأصفعَ الطفل؟ من أنا لأجبرَهُ على طاعتي؟ سأدعه يتمرد، سأتركه يتبنى جوعي إليه، وخوفي على طفولته من أنياب الحياة. آه لو أنني أملك أن أنطق الآن بألف صوت مُباركاً ولادته، ما أوحشَ المرآة حين تعجز عن نقل ما يصطخب في آبار النفس من أحاسيس!

في ليلة عدتُ فيها متأخراً إلى غرفة صغيرة استأجرتها شهراً كاملاً ـ في العام الأول من غربتي ـ في الطابق الثاني في بانسيون إلزا القريب من مقبرة بيير لاشيز في باريس. أوصلت إيفا إلى بيتها القريب من محل إقامتي بعد خروجنا من مقهى في سان ميشيل سيراً على الأقدام، مسافة عشر دقائق، تحت المظلة التي احتضنت حبات المطر. إن كانت باريس تضم معالم من صنع البشر كـ«تور إيفيل، واللوفر، وكنيسة نوتردام»

وغيرها، فإنها إلى جانب ذلك، تحتضن معالم ربانية كمطرها الذي لا يشبهه أي مطر في العالم. من أنتِ باريس، إن لم يرقص في ساحاتك المطر؟ من أنتِ إن لم تبرقي في الليل كماسة؟ افتكي بي واسكبي مطرك كله في أغواري، فأنا قادم إليكِ من الصحراء، من هناك، من مكان بعيد تجهلينه، من صحراء تشوينا شمسها، من نقطة لا ترينها في الخريطة، من بقعة لا أتمنى أن تلتصقي بها أو تلتصق بك بعد مرور ملايين السنوات، وبعد تَغَيُّر العوامل الجيولوجية التي قد تؤدي لا سمح الله إلى طوفان يمسح ويرمم الكرة الأرضية لتكوني أنت جارتنا بدلاً من جيراننا الحاليين!

تشبه تلك الليلة التي سهرت فيها حتى الصباح في بانسيون إلزا، ليلتي هذه في يريفان، حيث وقفت هناك وقلت: سأبوح إلى وجهي في المرآة بما لم أبح به أبداً، سأخبره عن وجهه الآخر الذي لم يكن يراه كما أراه. سأقول له كل ما لم يكن في استطاعتي أن أقوله قبل انسلاخي منه، وقبل سقوطه المفاجئ في زنزانتي المطلة عليّ من المرآة. تعددت المرايا التي وقفت أقرأ فيها وجهي، مررت بأنواع كثيرة من المرايا. وفقدت المرآة عندما كنت أقضي فترة العقوبة في السجن العسكري في الجيش. عشت أياماً لم أرَ فيها وجهي، لم أرَ لحيتي التي أخذت تنمو، لم أرَ البشاعة التي طبعتها الدولة على وجهي بقرار صادر من إنسان مثلي. يُمنع استخدام المرآة في السجن، كي لا ينتحر السجين. وهذا هو شر البلية الذي يضحك.

يصدر أمر بحبسكَ وتُسجن، ثم تُسلب إرادتك، فلا أنت حيّ ولا أنت ميت. وتمنع من رؤية وجهك الذي هو لك، وجهك الذي فيه عيناك اللتان تريان الأشياء، وجهك الذي فيه شفتاك اللتان تخرج من بينهما حروف كلامك. وحجة العاملين في جهاز تنفيذ الأحكام، أن المرآة وغيرها من الأدوات، ستسهل انتحار السجين. سُحْقاً لأصحاب القرار، وسُحْقاً لألقابهم!

قد يُسهم خروجنا من البلد في تطوير العنصر البشري القادم. لا أدري لماذا لم يُطبّق عليّ قانون سحب الجنسية الكويتية بعد نشر مقالي وتقديم استقالتي من الجيش. تمنيت، كم قد تمنيت أن تُسحب مني أو تُسقط عني تلك الوثيقة، كي يصبح لجوئي السياسي أو الإنساني منطقياً، ولكن الجنسية لم تُسحب ولم يتم إسقاطها. عشت سنوات من عمري وأنا أفكّر في إحراقها في أحد الميادين أو إحدى الساحات أو الحدائق الأوروبية، ولم أنفذ ما كنت أخطط له حتى الآن. رأيت في ما يرى النائم ـ قبل خمسة أعوام ـ نفسي جالساً في الهايد بارك وحولي كاميرات تصوير، رأيتني في ذلك الحلم العظيم، أُخرج وثيقة الجنسية من حقيبة يدي وأحرقها، وحين فتحت عينيَّ كان الرعد يتفجر غيظاً كأنه ضاق ذرعاً بالسماء. سألت الأصدقاء حينها إن كان يوجد في السماء فرع من مباحث أمن الدولة، فلم يجبني أحد.

كنت حينذاك وكيل عريف قبل بداية اشتعال فتيل حرب الخليج الثانية. لم يقف زميلي المرحوم ضيدان فلاح ذو الرتبة

الأرستقراطية كما كان يحلو له دائماً أن يطلق عليها، وهي وكيل ضابط أول، ليودعني بشتائمه لأنه كان قد تُوفّي قبل خروجي من الجيش في حادثة غير متوقعة. وفي المناسبة، فإن أسلوب الشتائم الذي يفضله المرحوم ضيدان، نوع من أنواع المودة الخالية من الشوائب، فهو لا يشتم أعداءه إطلاقاً، كي لا يأكل لحمهم في الحياة الأخرى! بهذه الكلمات كان يصرِّح في جلساته المرحة في العمل وخارجه. ومن أخباره الطريفة أنه قام بتأليف شائعة عن الفنانة المصرية سهير رمزي كان هو بطلها، بعد عودته مباشرة من القاهرة في صيف سنة ٨٩. لقد ظلّ يكررها في ما بعد أمام جميع المستجدين، وكنت من بينهم. ادعى أنه رأى سهير رمزي تدخل إلى كباريه في شارع الهرم، ومعها شاب يصغرها بعشرين عاماً تقريباً، جلسا إلى الطاولة القريبة من طاولته، فما كان منه إلا أن غَيَّرَ اتجاه كرسيه لتصبح سهير إزاء عينيه الجائعتين إلى جمالها الذي لم تحمله امرأة من الإنس على حد تعبيره، وبعد مرور نصف ساعة على وصولها، نهض ضيدان من مكانه وقال لها: أتسمحين لي بالرقصة التالية؟ فوافقت، ويكمل القصة كما لو أنها حقيقية:

ـ وضعتْ يدها في يدي، وارتقينا خشبة الكباريه المخصصة للرقص، ضممتها من خصرها ورقصت معها لمدة عشر دقائق، ثم أخذتُ عنوان شقتي في الزمالك.

وكان زميلنا رقيب أول فهد عبد الرحمن يقاطعه في كل مرة

يصل فيها إلى هذا الجزء، قبل إتمام القصة:

ـ أعوذ بالله من إبليسك يا ضيدان. «. . . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيْهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوه. . .».

ينتفض ضيدان منفعلاً بابتسامة لم تكن تفارقه ويقول:

ـ أنا لا أغتاب غير النساء، لأنني لا أريد أن آكل لحم رجل!

كانت رتبته بالنسبة إليه أهم من صحته وبطولات قبيلته التي نافست سيرتها سيرة أبي زيد الهلالي. لقد كان يشكر الله ويحمده على الرتبة بعد كل فريضة، كأنه أمٌّ تدعو لأبنائها وتسأل الله سبحانه وتعالى أن يرعاهم ويسدد خطاهم.

أنظر إلى الأمس فأراه قريباً، وأنظر إلى اليوم فأراه حبيباً، وأنظر إلى الغد فأراه جديباً، وأنظر إلى نفسي فأرى نفسي مريباً، وحين أنظر إلى القلم، أرى سنَّ القلم حلمةً، وأرى الحبر حليباً، والأوراقَ جبالاً صخرية، وأسأل عمن يكشف عن بصري لأرى أكثر مما كنت أرى، فلا أرى لأوجاعي وتوقعاتي وأوهامي وهواجسي طبيباً!

بعد وصولي إلى يريفان، سألت عن جد وردة، آرام آرونيان، فقال لي حارس عمارتي:

ـ إن كنت تريد أن تذهب إلى الحكيم، أنصحك بأن تخرج في ساعات الصباح الأولى، لأن كهفه يقع في قلب قمة ماسيس الكبير ـ القمة الأعلى، في مكان يصعب عليك أن تصل إليه

بالسيارة. ينبغي عليك أن تقطع نصف الطريق مشياً على قدميك.

قلت له:

ـ ما الحل إذن في هذه الحالة؟

أخذني الحارس إلى غرفته القريبة من مصعد العمارة، وأخرج خريطة فرشها على الطاولة المستديرة وقال:

ـ انظر معي إلى هذه النقطة في الخريطة، حاول أن تحفظها جيداً في ذهنك.

مدّ يده وسحب قلماً كان على سريره، ثم أكمل كلامه وهو يشير بالقلم إلى النقطة المحددة في الخريطة:

هذا هو شرق الأناضول، وهذا هو جبل أرارات، وهذه هي بحيرة وان، وهذا هو نهر كورا الممتد من شمال شرق تركيا إلى جورجيا وأذربيجان حيث يصبّ في بحر قزوين، إن كانت السيارة التي ستحملك إلى هناك ستمر بهذا الشارع، فإنك لن تصل إلى الحكيم إلا بعد أربع ساعات. لأن العصابات التركية تتخذ من الشارع الثاني مقراً لها.

بمشقة وصعوبة بلغت قمة الجبل بعد أن قطعت نصف المشوار سيراً على قدميّ، كنت كلما اقتربت من القمة أسمع صوت آلة موسيقية نافخة، كأنه شلال يتدفق من الأعلى، لقد كان صوت الدودوك ـ المزمار الأرمني ـ دليلي في مغامرتي. لأنني كنت

أعلم بأن الحكيم يجيد العزف على مجموعة من آلات النفخ الخشبية والنحاسية من خلال حديث وردة عن جدها. وصلت إلى كهفه عصراً فرأيته جالساً على صخرة تطل على المدينة، وكان يرتدي ثوباً أبيض. لم يكن حليق الرأس كما كنت أتخيل صورته، كان شعره الذي غزاه الشيب ناعماً، وكانت لحيته أنيقة. كأنه بمظهره الذي رأيته فيه طاغور، شاعر الهند. كنت أقف وراءه وأنا أشكر خطاي التي أوصلتني إليه.

كنت في شوق إلى احتضانه، لقد أردت أن أحتضن فيه جدي وعمتي ونخلتي، وجميع من رحلوا. أردت أن أعانق فيه روح وردة التي ترافقني في رحلتي إلى موطن أجدادها.

حين انتهى من مقطوعته الارتجالية على مقام النهاوند بعد دقيقتين من وصولي، حيّاني من دون أن يلتفت إليّ قائلاً باللغة العربية:

ـ أهلاً يا عارف.

دنوت منه كأني كنت أعرفه من قبل، وقلت مازحاً:

ـ من منا العارف يا معلم آرام؟

مددت يدي مصافحاً، وعندما صافحني سحبني بحركة خفيفة للجلوس على الصخرة الكبيرة بجانبه. وقال:

ـ أنت تعرف شيئاً، وأنا أعرف شيئاً. أنت عارف، وأنا عارف.

سألته:

ـ من الذي أخبرك بوصولي؟

أجابني:

ـ خطواتك أخبرتني.

ـ هل لك أن توضح لي أكثر؟

ـ للخطوات لغة. حين كنت تمشي في طريقك إلى القمة كان صوت خطاك يرتطم بصخور الجبل، وكانت صخور الجبل تحمل صوت خطاك إليَّ بعد تحويل الصوت إلى صدى. أمسكت الدودوك في تلك اللحظة، ورحت أنفخ فيه من قلبي نغمات تجعلك مطمئناً في سيرك، وتمكّنك من الوصول إلى مكاني بسلام. لو أنني لم أحمل الدودوك، ولم تسمع صوته، في اللحظة التي سمعتَ فيها صوته، لكنت قد غيرت اتجاهك ووقعتَ في يد عصابة تركية مختبئة في الناحية الشرقية من الجبل.

فكّرت في كلامه قليلاً، إنه يبدو معقولاً، ولكنني فاجأته بسؤال، أو ربما ظننت أني فاجأته بسؤال، لأنه كان أذكى وأحذق من أن أتذاكى عليه:

ـ ماذا لو كنت مصاباً بالصمم؟ كيف سأصل إليك؟

ابتسم وهو في غمرة هدوئه وصفائه وقال:

ـ لا بأس إن كان الصمم يغلّف الأذنين الخارجيتين. إنّ في القلب أذنين واعيتين تسمعان ما لا تسمعه الأذنان الخارجيتان.

فإن لم تسمع أذنا الشخص الخارجيتان صوت الدودوك، ولم تسمع أذناه الداخليتان صوت قلبي، فإنه لن يكون في حاجة إلى زيارتي.

ـ وكيف عرفت بأني في حاجة إلى زيارتك؟

كان بريق عينيه واضحاً وهو يضحك قائلاً:

ـ لأنك عارف وأنا عارف، كما اتفقنا قبل قليل.

نظرت إلى عينيه وقلت كأني أخاطب جدي عارف:

ـ لقد جئتك بعد غربة طويلة... بعد سنوات من البحث عن ذاتي.

ـ وهل خرجتَ من غربتك بعد وصولك إلى هذا المكان؟

سكتُّ قليلاً، ثم أردفت:

ـ إن كان آدم وحواء قد عاشا غريبَين بعد هبوطهما من الجنة، فكيف لي وأنا ابنهما، أن أخرج من غربتي وأنا على هذه الأرض؟

مسح على لحيته بيده اليمنى وقال:

ـ لماذا رأيتَهُما غريبَين؟ وقد وردت في القرآن الكريم هذه الآية: «ولكُمْ في الأرضِ مُسْتَقَرٌّ ومتاعٌ إلى حين»؟ المستقرُّ يعني انعدام الغربة، إذ لا توجد الغربة إلا في اللامستقر.

ـ إنني في غربة أبدية ما دمتُ غير مُسْتَقِرٍّ. كيف لا أكون غريباً إن لم أجد في الأرض مُسْتَقَراً حتى الآن؟

ـ استقرارك الروحيُّ هو الأهم.

ـ وكيف أصل إلى استقراري الروحي، إذا كانت الروح/روحي «من أمر ربي»؟

وضع الدودوك الذي كان يحمله بين يديه على الصخرة، وأعدل جلسته، ثم قال بعد تفكير:

ـ حين كان العرش على الماء، كان الماء على متن الريح. سقطتْ ياءُ الريح، فحلَّتْ واو الروح مكانها. هذا من الجانب اللغوي للكلمة، أما من الجانب التطبيقي فإنني أرى أن الروح لم تُخلق كما خلق الإنسان من عدم. لأنها وجدت من قبل أن يوجد. للروح خصوصية من خصوصيات الربّ التي ينبغي لنا أن نسلّح العقل بالمعرفة قبل الخوض في النقاش حول كنهها. إنك حين تنظر من الجانبين المادي والميتافيزيفي إلى ماهية الروح سيعيدك نظرك إلى نفسك التي هي انعكاسُ روحك.

كنت أفكر في ما قاله الحكيم، وأنا أنظر إلى المدينة من قمة الجبل في وقت غروب الشمس، فأرى السيارات كذرات صغيرة في عالم كبير ضيق، يضيق ويختنق بالبشر والحيوانات البرية، ومخططات الدول السرية، وأرى نقطة الحدود الأرمينية التركية، والمسافرين، كأن كل شيء كان يتحرك في اتجاه واحد، في اتجاه يؤدي إلى فوضى الفراغ. أما الحكيم وأنا،

فقد كان كل واحد منا يبحر في سفينته وسط أمواج الحياة المادية، نحو قراءة القضايا المعنوية الكبرى.

راح يسترسل وأنا أصغي إليه:

ـ أتعرف ما معنى أن تطلق جناحيك، لِتحتسيَ مع الملائكة شيئاً من نبيذ الخلق تحت سدرة المنتهى؟ أن تقول لا، قبل أن تقول نعم. ثم تقول نعم، وأنت موقن بآلة حدسك. أتعرف ما معنى أن تشكر عينيك اللتين تبصران الأشياء من حولك، وأذنيك اللتين تسمعان الأصوات، وقدميك اللتين تحملانك في طريق الحياة، وأن تشكر لسانك في الصمت لا في الكلام؟ لأن الصمت نضج، والثرثرة مراهقة. هل مررت في يوم من أيام حياتك بطفل هنا أو هناك، ورأيتَهُ يمارس لعبة النفخ على الماء والصابون في دائرة لعبته التي يمسكها بيده؟ هل فكرت في مراقبة عينيه البريئتين وهما تلتقطان ملايين اللقطات ـ مستخدماً في عملية التصوير تلك كاميرا الذهن ـ للفقاعات المائية التي تحلق حول رأسه؟ هل رأيته يقفز؟ هل شاهدته يدور حول نفسه؟ هل حلَّلْتَ دورانه؟ هل عاينت طفولته؟ هل توصلت إلى اليقين ببراءته، ونقائه، وبياض قلبه الطيب؟ ثم إني أود ـ واعذرني ـ أن أصفعَ إنسانيتَكَ قليلاً، وأطرح عليك هذا السؤال الذي ينبض في هذا الصندوق اللحمي الذي أسميه رأسي، هل أبكتك براءة ذلك الطفل اللاهي بلعبته؟ هل ابتسمت في لجة بكائك؟

توقف عن الكلام وأمسك دودوكه، ثم راح يمرر أصابعه على ثقوب الدودوك وأكمل يقول بعد أن طلب مني مرافقته لنجلس في الكهف بعد غروب الشمس:

ـ خطواتك تؤكد أنك زرت مدناً كثيرة.

ـ وكيف استنتجت ذلك؟

ـ لقد أخبرتك بلغة الخطوات. تفضل إلى الكهف، هذا هو مُتَعَزَّلِي الأثير، والأخير.

ابتسم آرام آرونيان بعد جلوسه على صخرة أخرى في كهفه رافعاً رأسه كما رفع رأسه ذات يوم عازف البيانو الألماني فلهلم كمبف في عزفه سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن، صورة معلمي سحرتني، وسيناريو حركة رفع رأسه أعاد الى شاشة ذاكرتي مقطعاً مصوراً لذلك العازف الألماني العظيم وهو يضيف إلى سوناتا بيتهوفن من إحساسه سوناتا أخرى، سوناتا يسري صوتها في طرب خاشع إلى الباطن، إلى الداخل، إلى الأعماق، وإلى أعماق الأعماق. أرسل نظراته إلى صخور كهفه التي تحتضن ارتجاف ضوء الشموع التي أوقدها بعد دخولنا مباشرة، وراح يكمل حديثه في موضوع آخر متناسياً مشهد الطفل الذي كان يمارس لعبة النفخ على الماء والصابون، حين رواه لي قبل قليل:

ـ غريب هو أمر أولئك الوجوديين في أوروبا الغربية عندما نفوا

وجود الله، إذ كان ينبغي لهم أن يفكروا ويتفكروا أولاً في وجودهم، وأن يحاولوا إثباته قبل إثبات وجود الله. أنت لا تستطيع أن تقوم بفصل الوجود عن النور مهما حاولت، ومهما ستحاول في الزمن القادم، وهذه النقطة العميقة هي مفتاح باب الفلسفة، لأنك ستتوصل من بعدها إلى أن الله موجود في نوره، ونوره هو منبع وجوده. إن النور لهو نبض الوجود وماهيته، وفي استطاعتك أن تبصر تراكمه في هيكل الوجود. وهذا يعيدنا إلى الوصف القرآني التالي: «نور على نور» ولم يقل: «نور فوق نور»، كي لا يُقيد النور بمساحة، أو طبقية وجودية. ففي استخدام «فوق» استقرار، وفي استخدام «على» تراكم خَلْقيّ، وتكوين، وتفرد، وتجدد، وكأن المعنى الباطني للنور يقودك من حيث لا تدري إلى تشخيص حالته الظاهرية في سورة الرحمن: «كُلَّ يومٍ هو في شأن». إن معرفة الوجود تحتاج قبل اكتمالها إلى الهداية النابعة من النور لا من الطين، من النور الذي يمشي به الإنسان، لأن الإنسان في هذه الحياة يستمد الهداية من الخارج لا من الداخل، أي أن الهداية تأتي من النور المحيط بنا بحثاً عن النور الكامن في قاع ظلماتنا.

سألته:

ـ ومن أين يأتي اليقين؟

أجابني بسؤال:

ـ وما اليقين؟

نظرت إليه نظرة استنطقت الحكمة كلها في كيانه، فقال:

ـ اليقين هو نقطة البداية، وهو نهاية المطاف. نقطة بداية الحكمة، ونهاية مطاف الجهل. كنت في فترة من فترات حياتي أنظر إلى أجهزة التفتيش في المطارات وأتمنى لو أنني كنت أحمل في تلك الأيام هذه العصا التي أحملها معي دائماً لأهشّم بها الأجهزة ورؤوس المفتشين. كم كنت أمقت ذلك الجهاز الذي نمرّ من خلاله قبل دخولنا إلى الطائرة. كم كنت أكره شاشات الجمارك الصغيرة، تلك التي تكشف محتويات الحقائب. كم كنت أتمنى أن تُصنع أجهزة لكشف نيات الإنسان. ما فائدة المسدس الذي أصادره كشرطي تفتيش من أحد المسافرين، إن كان الشر يكشّر عن أنيابه في أعماق ذلك الشخص؟ وما الفائدة في دولكم من وراء مصادرة الكحول، إن كان الجهل قد أذهب العقول قبل السماح بدخول الكحول؟

اليقين دائرة من النور تحيط بالإنسان، ولا أعني من خلال تعريفي هذا أن اليقين هو الهالة. قد يكون لليقين دور كبير في إعطاء الهالة حالة من الوضوح، ولكن نور اليقين مستقل بذاته، وله في قلب صاحبه مُستقَرّ.

قدّم لي في أثناء حديثه مشروباً ساخناً كمشروب المتة، ولكنه ليس متة، البتة. كان نوعاً من الزهورات الأرمنية، ثم قال بعد أن وضع القدح إزائي على طاولة خشبية صغيرة من تصميمه:

ـ لا تترك للوقت يا ولدي أن يـمتطيَك كحصان نحو غاياته،

كن أنت من يمتطي الوقت نحو الحقيقة. إياك والتفاني في اللهو، واللغو، والأحاديث التي لا تصقل الروح، إياك والتفكير في الغد، لأن في التفكير في الغد ألماً باطنياً يُسدل على عين قلبك غشاوةً تـُحيطك بالوساوس، فلا تكن أسيرَ وساوسك. عش يومك كأنك قد ولدت فيه لأول مرة. كلُّ يوم هو يوم ميلاد لك. كل يوم هو ذرة من الذرات التي تـحـويها مادة عمرك. تأمل معي هذه الصورة يا عارف، أنْ تنهض من نومك الذي هو رحمك اليومي فجراً، وتطل من هذه الفرجة في الكهف على الشرق قبل ولادة الشمس، فهي أيضاً تُولد يومياً، راقبْ تغيُّرَ ألوان السماء، وانبعاثها من نفسها، سترى النور يخرج من رحم الظلام، كما خرجت أنت من رحم المنام. خذ نفساً عميقاً، وقل: السلام على الأشجار والطيور، السلام على الشمس التي وُلدت، والغيوم التي أراها تتكئ على أعالي الجبال البعيدة محتشدةً كأنها في لونها الأبيض المطهّم لَبَنُ السماء الرائب، السلام على السرور والأفراح والأتراح والمصائب.

انبثقَ في رأسي سؤال، فلم أتردد في طرحه:

ـ من أنت يا سيدي الفاضل. . . أخبرني كيف أصبحتَ أنت؟

وضع يديه على عصاه، وابتسامته تؤطر وجهه المنير كالقمر، ثم قال:

ـ لستُ موسى لأرميَ هذي العصا. وعلى كل حال أنا لستُ

فرعونَ. فرعونُ يقبع في فطرة الآدميين، إن لم يكن هو فرعون، فالشر فرعون، والخير موسى. وأنا لم أمرّ بجانب طُورٍ هنا أو هناك، ولا أتذكَّرُ أنيَ آنستُ ناراً. لقد كنت أعرف أن الحقيقةَ أوفى صديقة، وأقربُ من وطني رَحِماً، فلذا لمْ أُعَوِّلْ على أحد في البراريِّ، في الزمن الانتحاريِّ، لمْ أعْتَرِشْ غيرَ كهفيَ هذا، ولم أَفْتَرِشْ غيرَ هذا الحصير، اكتفيتُ بما في الطبيعة من طاقة طوّقتني بطوق النجاة، لقد كنت أعرفُ أن هناك أموراً على المرء أن يتجنبها كالخنوعِ، وما يترتب بعد الخنوعِ. وإنَّ الذي سوف أزعم أني بكل التواضع أعرفه، لست أعرفه، وهنا، لست أسرق أفكار سقراط، لا لا، فإياك أن تتسرع في الحكم، إن كنتُ قد قلتُ ما قاله في أثينا، فإن أثينا هي الشام، والشام مصر، ومصر العراق وفارس والهند والصين، والصين إفريقيا. وإفريقيا سُرَّةُ الأرض والسر فيها. ليس ثمة فرق كبير، بين موضع سقراط في الأمس تحت سماء أثينا، وموضعنا في أرارات. قد يكون الصنوبر في زمن فات من أسرة النخل، ثم تمرد شرقاً وغرباً، جنوباً، شمالاً، إلى أن تحول بعد امتزاج جزيئاته بالرياح إلى ما هو الآن. ولسوف يمارس هذا التحول بعد قرون إلى أي طائفة من طوائف هذي الطبيعة. فالنيل من نفس نسل الفرات. كما أخبرتنا الحياة. هذه الأرض واحدة، والسماء التي ظللت رأس سقراط، أو رأس من شئت في العالمين، هي نفس السماء التي نبصر الآن زرقتها الصافية. وإن الحقائق ثابتة، متحركة، ربما متحركة ثابتة.

والخلاص على يد من؟ كل ما في الوجود يثير التساؤل بعد التفاؤل، والصمتُ أبلغ من كل ما نظم الشعراء، وما نثر الناثرون. لست أبحث عن صورة كي أعلقها ـ حين أنوي الرحيل إلى نجمة ما ـ على حائط مائل، ربما سأكون جميلاً إذا اخترت أن أتعلم من رحلتي الداخلية. إني وهبت التأمل عمري، وما قلت إني وصلت إلى قمة الحكمة الآدمية، لـمَّا أَزَلْ فاتحاً للتجارب عقلي وروحي وقلبي لئلا أصاب بما يشبه النرجسية.

ـ وكيف اتخذت قرارك؟

ـ إنّ قراري نابعٌ من قرارتي، وقرارتي هي قاراتي الداخلية، ومحيطاتي، وهي امتداد الحضارات في ذاتي. وإنّ جميع القرارات، تؤدي إلى أرارات.

حمل قدحاً من الفخار وارتشف قليلاً من الماء، وجاء صوته ذو القرار المصقول:

ـ في يوم ابتلعت فيه الشمس أقراص غروبها، وهامت على وجهها خلف التلال التي تصل أطراف شرق الأناضول. في ذلك اليوم بالتحديد، أسجّى في داخلي نهرٌ لم أعرف له منبعاً ولا مصباً. تجولت في ممرات نفسي، حدقت أكثر في النهر بعد خروجي من مبنايَ، حملتُ الدودوك، فقفزتْ نحوي ضفدعة، أمسكتُها بيديّ ورحت أُنقّح نقيقَها بموسيقاي، وأرتُقُ قميصَ روحي بالتجلّي. في ذلك اليوم نعم، في ذلك اليوم،

أَمَطْتُ اللِّثام عن وجهي، كشفتُ عينيَّ، وعبّأتُ أنفي برائحة الكشف، خبأتُ رؤياي في صُوَانٍ خصصته للكتب، كأني أخبئُ فيه فتاةً خوفاً من الفضيحة المدوية بين الأهل والجيران. لا أستطيع الآن أن أشرح ما رأيته في ذلك اليوم. أراراتُ رأى، وبعدما رأى، أتى وزارني، وشوشني: تعال... تعال... تعالَ يا آرام. تردد الصوتُ وزادت حدّةُ الصدى، وغاب في الليل أرارت وراء الريح والمدى، كأنه في لُجَّةِ البركان محمومٌ، فلم تُمْدَدْ له يدٌ، لكي يمدَّ من جليده أو ناره يَداً. تعالَ يا آرام. تكرَّرَتْ، وبعدما تكرَّرَتْ، تفجَّرتْ، وأَجَّرَتْ بيتاً لها في رأسيَ المليءِ بالفراغ. كأنَّ صوت مقرئ الحارة جاء يقرأ الآية: «أَيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ يُتْرَكَ سُدى». تعانقت الأديان في داخلي. التوراة، والإنجيل، والقرآن. كل كتاب أصبح باباً، وخلف كل بابٍ مدينة. وقد كنت أرى أرارات، خلف كل باب من هذه الأبواب. كأنّ رأسي غدا حين حملته بين يديَّ بيضةً، وحين كسرته كما تُكسر البيضة، تسرَّبَ مُخِّي كأنه صَفَار البيض. وضعتُ محتويات رأسي في مقلاة على نار هادئة، هي نار الصبر، ورحت أقلّب بملعقة صغيرة هواجسي. وعندما نضجَ مُحُّ مُخِّي، هيأت مائدتي ثم خرجت بعد انتهائي من ترتيب ملفاتي إلى الجبل. وحده كان المأوى، والملاذ. بين المُخِّ والمُحِّ نقطة فاصلة، نقطة تُغَيِّرُ حالة المادة، فعند وجود النقطة الفاصلة تكون الحالة صلبة ـ «المُخّ»، وعند حذف النقطة الفاصلة تكون الحالة سائلة ـ «المُحّ». إن كنت تفكر

برجاحة، وتُؤَدَة، وحصافة، واتزان، واكتمال، وصواب، وأناة، فأنت تحمل مُخاً صلباً سليماً. وإن كنت تفكر بجهالة، وسفاهة، وحماقة، ورعونة، وتَسرُّع، وطيش، وغباء، فأنت تحمل مُخًّا سائلاً، أو مُخًّا فاسداً بعد تحوُّله إلى مُحّ. حافظْ على مخِّك، فَكُنْ مُخًّا ولا تكُنْ مُحًّا.

لو أنَّ هذا الذي في الصدرِ يهدأُ، لو. لكنَّ الـ «لو» والـ«ليتَ»، لا تقدمان ولا تؤخران شيئاً. واتخاذ قرار ما، هو جُرأة، وجسارة، وبسالة، وبأس، وعندما تزمجر الجرأة في وعي الإنسانِ رافضةً قيودها، تقوده إلى إطلاق العقل، وتصفيد الجهل. إن كنت أمرُّ الآن بأيام حياتي، كالمتجول في سوق للموتى، أو في عاصمة لضحايا الوهم، أو في بلد لطخه الفقر الروحيُّ. أنا المتجوّلُ، والمتحوّلُ، والمتسوّلُ، لم أكتب تفسيراً يشرح للآتين حكاية هذي الأرض. قد تسألني هل أعني أرمينيا، أم جمهورية أرمينيا؟ من قال بأني أعرف أرمينيا؟ من قال بأني أجهل أرمينيا؟ أو «هاياستاني هانرابيتوتيون» بلغتنا الأرمنية.

كم كان «الدودوك» يشبهني! عشقت صوته في سنوات طفولتي الأولى، حين كان أبي يعزف قبل شروق الشمس. كنت أسمعه وأنا نصف نائم، كنت أبكي في فراشي، وأحرك أصابعي أمام شفتيّ المتشققتين من شدة البرد، كأني أنا العازف النافخ في المزمار. كم كنت أغار من والدي وهو يغرق في العزف،

والنزف، في كل ما يجعل القلب يخرج من القفص الصدري كحمامة مهاجرة. كنت أصغي إلى نغمات الدودوك، فأرى كل الحكايات التي لم تحكِها جدتي. عشت بين الحنين إلى صياح الديك، ونُوَاح الدودوك. كأن البعيد يقرّب أبعاده، ويوحّد أضداده، وكأني أسمع الجبل يقول: نم قرير العين يا آرام، ولا تخف، فأنت في قلبي.

كان يحدثني آرام وكانت أذناي تصغيان إلى حديثه الشيّق، وعيناي تبصران نور وجهه الأبلج، وروحي تصعد، نحو الأبعد، نحو السرّ الأوحد. كأنَّ نغمات دودوك والده رتَقَتْ فُتُوقاً في قلبي. لم يخلُ حديثه من قصص كان هو بطلها، ومن أخبار سمعها من أصدقائه ومريديه. أقمت في كهفه شهرين، تقشّفت بشكل لم أكن أتصوره، انصرفت عن جميع الملذات واكتفيت بما هو ضروري. لم يكن يعذبني في الشهرين اللذين قضيتهما في كهف المعلم آرام آرونيان في جبل أرارات، سوى حاجتي إلى وجود امرأة. افتقدت النساء اللائي كن يرفرفن كالفراشات حولي. افتقدت سنوات الدراسة في باريس، ثم بدأت أحنّ إلى عملي في المصحة، إلى الدكتور ساموِيل بوب، ومدام كوبير، وقصائد تشيكاماتسو، وقهوة جارتي الإماراتية ليلى، بدأت أحن إلى مذاق قهوتها العربية، المذاق الذي كان يقطر في جوفي كالسم أحياناً. لقد كانت قهوتها العربية نكسة عربية حقيقية، وكنت أبالغ في المديح والمجاملة. ذكَّرتني قهوتها في إحدى الليالي بصورة جمعت المرحوم جدي بجمال

عبد الناصر. وعلى ظهر الصورة كتب جدي هذا التاريخ بخط أحمر ١١/ ١١/ ١٩٦٧، وعلق على الصورة بعبارة مبتسرة: «عارف آل عارف مع زعيم العروبة جمال عبد الناصر بعد هزيمة ٦٧». وحين كبرت تساءلت بخبث عن الصورة وأنا أحلل ابتسامة جمال عبد الناصر:

ـ كيف لجمال عبد الناصر أن يبتسم بعد هزيمة نكراء؟

صَفَعني حينها جدي رحمة الله عليه صفعةً ذات قومية عربية وَحَّدَتْ أقطارَ وجهي، وصرخ قائلاً:

ـ يا ولد، قل: الزعيم جمال. وضع يدك على رأسك قبل النطق باسمه. إنه زعيم العروبة.

قضيت في الكهف شهرين كاملين، كأنهما كانا حولين كاملين. وفي إحدى الليالي وأنا أجلس القرفصاء على صخرتي التي أصبحتْ سريري في فترة التأهيل الروحي، قال آرام بعد أن أوقد تلك الشموع التي كان يقدمها الزائرون إلى المعلم كهدايا بسيطة:

ـ تذكرتُ قصة طريفة ذات عمق فلسفي، رواها لي الدكتور حسن مراديان في إحدى زياراته ـ حيث كان يجلس على الصخرة التي تجلس عليها الآن ـ عن العدل والقضاء والقانون الوضعي في البلاد العربية وطريقة العمل في المحاكم. ومراديان هو أحد أقطاب القانون الكبار في أرمينيا وإقليم القوقاز بشكل

عام. درس القانون وأتمّ تعليمه حتى أصبح يدرس مادة القانون في جامعة السوربون، الجامعة التي احتضنت نبوغه وآمنت بعقله ورؤيته الثاقبة ورأيه السديد. يقول إنه التقى رجلين كبيرين وثقيلين في العالم الإسلامي. كان الرجل الأول يضع على رأسه عمامة أزهرية، أما الرجل الثاني فقد لفّ حول رأسه عمامة حوزوية. التقاهما في أحد المؤتمرات الإسلامية التي تنظمها سنوياً في شهر رمضان مدينة لاهور الباكستانية، لكذبة التقريب بين المذاهب، في مسجدها الشهير باد شاهي الذي يرقد في حديقته الأمامية جسد الشاعر والفيلسوف الباكستاني العلامة محمد إقبال، بجوار الزهور والأشجار، تحت سقف رخامي هو مسرح لأشعة الشمس والأطيار. طلب مراد من رئيس الوفد أن يتيح له الاجتماع بالرجلين. وجاء موعد اللقاء في جناح خاص في أحد الفنادق الضخمة في المدينة التي أكلَ أهلَهَا الجوعُ، وأهلَكَها الفقر. جلس الثلاثة حول مائدة الطعام. قال مراديان بعد أحاديث قصيرة دارت بينهم:

ـ عندي بشارة أحملها إليكما.

قال ذو العمامة الحوزوية:

ـ اللهم أنعم علينا من فضلك.

فأكمل الديباجة ذو العمامة الأزهرية:

ـ اللهم زد وبارك.

أخرج مراد من حقيبته ملف القضية ووضعه على طاولة أخرى في صالون الجناح الذي جلسوا فيه بعد انتهائهم من تناول وجبة العشاء، وقال:

ـ يقول الله في محكم كتابه الكريم، بسم الله الرحمن الرحيم: «إنَّ الله عندَهُ علمُ الساعةِ ويُنَزِّلُ الغيثَ ويعلمُ ما في الأرحامِ وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت» صدق الله العظيم.

عقّب ذو العمامة الحوزوية:

ـ لا إله إلا الله.

فأكمل ديباجة التعقيب ذو العمامة الأزهرية:

ـ سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

أخذ مراديان رشفة من قدح الشاي، ثم قال:

ـ من هذه الآية أنطلق، وأضع «ويُنَزِّلُ الغيثَ» تحت المجهر القانوني. فلو أننا تأملنا قليلاً، سنكتشف أن تنزيل الغيث مرتبط بعلم الساعة. أطلب منكما أن تدققا معي جيداً في التفسير الجوهري لمفردة «علم»، إن عمقها اللغوي لا يعني معرفة موعد قيام الساعة فحسب، بل إنه يأخذ تفسيراً آخر، فالمعنى يؤدي إلى ما يؤكد أن هناك علماً يسمى علم الساعة، لكن ذلك العلم عند الله وليس عندنا، في الوقت نفسه يُتيح المعنى ذاته للمفسر في نشوة تأويله، أن يبحث في علم الساعة ما دام الله

أقرب إليه من حبل الوريد، فعلم الساعة عند الله، والله مع الإنسان وحوله وفيه. لا علاقة لعلم الفلك والأبراج والتنجيم بالقضية التي جئت بصدد طرحها عليكما. لا شك في أنكما شاهدتما النشرات الإخبارية في الوطن العربي والدول الإسلامية، ولا شك أيضاً في أنكما استمعتما إلى نشرات الطقس في الإذاعات. مجموعة قليلة من القنوات التلفزيونية والمحطات الإذاعية التزمت في ختام فقرة حالة الطقس جملةَ «الله أعلم»، فيما خالفت القاعدةَ الفقهيةَ الفئة الأكبر. وبوصفي قانونياً، رأيت أن أتبنى هذه القضية بعد موافقتكما، لرفعها في محكمة سراييفو.

تساءل ذو العمامة الأزهرية قائلاً:

ـ لماذا اخترت سراييفو؟ ما المانع من أن نناقش القضية في بلد عربي؟

هز ذو العمامة الحوزوية رأسه مؤيداً كلام الأزهري، وأضاف إضافة جعلت الثاني يشزره بطرف عينه:

ـ أو في إيران؟

أوضح حسن مراديان:

ـ لقد بحثت طويلاً في القانون الوضعي في العالم الإسلامي، وتوصلت من بعد بحثي إلى نتيجة، وهي أنكما لن تربحا هذه القضية إلا في البوسنة، أو تركيا. ولكي تضمنا نجاحها ينبغي

لكما أن تنويا الذهاب إلى البوسنة في أقرب وقت ممكن. الملف معي، وأنتما قطبان من الأقطاب الدينية في بلادكما.

قال ذو العمامة الأزهرية:

ـ وما الذي سنجنيه من كل هذا؟

ضحك مراديان وهو يقول:

ـ ستجنيان من المال ما يكفي لإشباع سكان الهند وباكستان وأفغانستان وربما دول الاتحاد السوفييتي.

التفت ذو العمامة الحوزوية إلى صاحبه، ثم وجه سؤاله إلى حسن:

ـ ما هو المطلوب منا؟

أردف الأزهري:

ـ وهل سنعمل في السر، أم في العلن؟

حين أحسّ حسن مراديان بلذة انتصاره على العمامتين، أخذ نفساً عميقاً، وغرس فكرته بينهما.

ـ ستنفذان الخطة التي وضعتها بنفسي في هذا الملف.

قدَّم لهما نسختين من الملف، وفتح النسخة التي كانت بين يديه، ثم راح يشرح لهما ما كان قد استعصى على فهمهما في البداية. راقب مراديان بعينيه الذكيتين، وأذنيه النبيهتين، وعقله

اللماح، ما دار بين الأزهري والحوزوي من نقاش سطحي. عاين جوعهما إلى المال، قام بتشخيص جشعهما، وتمكن من فرض سيطرته عليهما منذ الجلسة الأولى، لأنه كان يدرك أن الرجل إذا سال لعابه في ذكر المال، نقصت قيمته في ميزان الرجال. بعد مرور ثمانية أشهر على اللقاء الثلاثي في باكستان، نجحت القضية في سراييفو وحكمت المحكمة بحكم كان مراديان قد توقعه، وهو أن تقوم القنوات التلفزيونية والمحطات الإذاعية من خلال وزارات الإعلام بدفع ملايين الدولارات كنوع من التعويض. حين يقصّ الدكتور مراديان على أصدقائه قصصه مع رجال الدين في العالم الإسلامي تأخذه الحماسة، وتلهبه العاطفة، فيقول:

ـ لا أعلم كيف ربحت تلك القضية في سراييفو، لقد كنت في الثامنة والثلاثين من عمري، وكان القاضي حينها قد تجاوز الثامنة والسبعين. تفصل بيننا أربعون عاماً، بكل ما فيها من التجارب، والخبرة، والفشل، والنجاح، والنقش في حجر الطموح.

ويكمل قصته مع الأزهري والحوزوي:

ـ عندما ربحنا القضية، استلمت نصيبي المادي، وأودعته في أحد البنوك السويسرية في جنيف، أما الرجلان فقد قام الأزهري، بتمويل جماعة الإخوان المسلمين وتنظيم القاعدة في المشاريع التجارية الإرهابية. وعلى الخط نفسه مشى

الحوزوي، حيث سعى في دعم مشروع تصدير الثورة الإسلامية في إيران من خلال تمويل السلطة، والأحزاب المعارضة، لخلق صراع أيديولوجي.

إن لمراديان مقولة جميلة، حيث يقول: إنك تجني من التجارة في الإرهاب، أضعاف ما تجنيه من التجارة في الدعارة.

حين أرادت الولايات المتحدة الأميركية أن تتخلص من الأزهري والحوزوي بعد انتهاء صلاحيتهما الإسلامية وقيامهما بتنفيذ جزء كبير من مخططات أميركا الإرهابية في منطقة الشرق الأوسط، وُجهت إليهما دعوة لحضور مؤتمر إسلامي في إسبانيا، ودعاهما في تلك الأثناء مندوب من وزارة الخارجية الأميركية إلى يخته في ماربيا، وطرح عليهما فكرة الترافع ضد وزارات الصحة وكليات الطب في العالم الإسلامي، بعد أن شرح لهما تتمة الآية التي تناولت علم الساعة مستعيناً بالمترجم، وطلب منهما أن يتأملا الجملة القرآنية «ويعلمُ ما في الأرحام». لقد كنت أعلم بأن هذه القضية خاسرة، لا في سراييفو فحسب، بل في جميع الدول الإسلامية، لأنها تختلف عن قضية «ويُنزِّل الغيث» تلك التي ربحناها. وكنت أشك وأصدق شكي في أن أميركا تريد أن تصادق وتطعن، فهذا ديدنها، وهذه سياستها. وهذا ما حدث بالفعل، إذ قدمت منظمة الصحة العالمية في الجلسة السادسة لمناقشة القضية في دار القضاء العالي في القاهرة ورقة تطالب فيها الرجلين اللذين

يمثلان الحزبين الإسلاميين المختلفين بالتعويض المادي والمعنوي، ونجح تنظيم منظمة الصحة العالمية بعزل العمامتين الأزهرية والحوزوية، وصدق حدسي وتخميني في مصيرهما. فأميركا هي التي صنعتهما وأجبرتهما على الإذعان لأوامرها، ثم استبدلت فردتي الحذاء بفردتين جديدتين، أو بعمامتين جديدتين، إن صح التعبير!

يُتقن آرام آرونيان من اللغات إلى جانب لغته الأم الأرمنية، اللغة العربية، والروسية، والفارسية، والهندية، والأردوية، والتركية، والفرنسية، والصينية، والألبانية المستخدمة في ألبانيا وجنوب إيطاليا. كما أنه مطلع على اللغات الأناضولية المنقرضة أو اللغات الهندو الأوروبية القديمة، كاللغة الحيثية التي كان يتحدث بها الحيثيون سكان آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام في الفترة التي سكن فيها السومريون بلاد الرافدين.

لقد كان مَنجمَ حكمة، وكنت أنهل من عطائه الثَّرِّ، وعلمه الغزير حتى الارتواء. أسأله فيجيب، وأنظر بعينيَّ الصامتتين إلى الدودوك فلا يخيّب رجائي في العزف الارتجالي. لم أرَ وجهه مُكفَهِراً عابساً، كان بشوشَ الوجه وضَّاحَ المحيّا، وإذا حَيّا بتحية، كانت تميل على كهفه الريح، والشمس تُرسل أشعتها كأنها تبارك وجوده في قمة الجبل التوراتيّ المقدس.

روت لي وردة ذات يوم عن جدها أنه حين قرر اعتزال الناس والمكوث في كهفه الأثير في جبل أرارات، لم يحمل معه

سوى «دودوكه» الذي كان يعتبره جزءاً لا يتجزأ من جسده، ولم يأخذ معه شيئاً آخر، لأنه لم يكن في حاجة إلى المال، ولا إلى البنين، فهناك كان يأكل مما تنبت الأرض، ويشرب من المنابع الأولى لنهري دجلة والفرات. تقول وردة:

ـ قبل أعوام، ذهب أبي لزيارة جدي في الجبل مصطحباً معه أمي، وعندما وصلا إلى حيث كان يقيم، ألفياه جالساً على صخرة كبيرة قريبة من كهفه وهو ينفخ في الدودوك من روحه.

تضيف وردة وهي تطل من شرفتها على الأطفال وهم يلعبون كرة السلة في ملعب المصحة:

ـ وقف أبي وأمي قرب الصخرة صامتَين وهما يصغيان إلى عزف جدي، لم يقاطعاه، ولم يشعر ـ كما كانا يظنان ـ بوجودهما. لأنه حين أنهى معزوفته المرتجلة تبين لهما أنه كان يعلم بقدومهما، فقد وضع الدودوك على الصخرة، ثم التفت وحياهما قائلاً:

ـ أهلاً بكما، اقتربا، اجلسا هنا.

وإن صعودي الأول إليه، أيقظ في ذاكرتي ما روته وردة، لقد أمسك الدودوك لكي يكون ارتداد صدى نغماته دليلاً لمن يريد أن يزوره. تكمل وردة قائلة:

وحين جلس الثلاثة على الصخرة، قال جدي:

ـ انظرا معي إلى أرمينيا، التي لولاها لما كانت لوادي الرافدين

حضارة. انظرا معي إلى أم الرافدين، إلى أرمينيا. لقد كنت أنتظر وصولكما، فحين نهضت اليوم قبل شروق الشمس، نظرت من كوة في كهفي إلى السماء في حلتها الكحلية، ثم سمعت صوت خطاكما، كأن ذرات الهواء قد حملت إليَّ رغبتكما برؤيتي وشوقكما إلى زيارتي.

تضيف وردة:

ـ لم تشعر أمي على مدى الأعوام باليأس وهي تطلب من جدي أن يعود معهما إلى المدينة، كان في كل مرة يحتضن أمي ويمسح على شعرها ويقول:

ـ لكل امرئ وقت ويأوي إلى جبل. وهذا هو وقتي يا حبيبتي.

ـ لكنك يا عمي مقيم هنا منذ أكثر من عشرة أعوام. ألا تشتاق إلينا كما نشتاق إليك؟ ألا تحنّ إلى حفيدتك وردة التي ترى في بيتنا صورتك المعلقة وما تنفك تقبلها يومياً؟ ألا تتمنى أن تؤويها كما آويتنا ولا تزال تؤوينا بتعاليمك؟

لم يكن أبي يعاتب جدي، لأنه كان يعلم بأن أباه لن يعود إلى البيت، وأن في اعتزاله راحة لا يريد أن يكون هو سبباً في إفسادها. لقد كان يكتفي بقضاء نهار كامل معه، ثم يرجع في المساء إلى المدينة. وكانت أمي في جميع زياراتها تحمل معها سلة كبيرة من الفواكه والخضروات والمواد الغذائية وتنزل بها مرة أخرى، لتكون في النهاية من نصيب الفقراء.

حدثني معلمي عن مذابح الأرمن، عن أمة ذاقت الجور والظلم، وكافحت من أجل أن تحيا حياة كريمة، عن شعب أراد أن يعمل في بناء الحضارة القادمة، مستفيداً من ميراثه الحضاري العريق. حدثني عن الإبادات الجماعية والمآسي والتهجير. وصف لي ما شاهده، وروى لي ما سمعه عن نضال الأرمن وأصالتهم. جعلني حديثه عن أرمينيا، أطلب من صديق سوريّ يعمل طبيباً في يريفان، وكان جاري في نفس العمارة التي أسكن فيها، أن يشتري لي ديوان الشاعر الأرمني الكبير باروير سيفاك الذي ترجمه إلى العربية مهران ميناسيان، والصادر عن دار نشر سورية. اطلعت في الوقت نفسه على قصائد باروير سيفاك المترجمة إلى الإنجليزية والفرنسية قبل إتقاني اللغة الأرمنية. أحببته شاعراً بحجم وطن، شاعراً رأى مصير بلاده وعاشه، شاعراً كان صادقاً مع نفسه صدقاً قاتلاً عندما قال في قصيدة ترجمها مهران ميناسيان:

«لو كنتُ أؤمن حقاً

بأنَّ قصائدي ستفيدكم،

لأغدقتُ عليكم القصائدَ كأرتال الجيوش،

ولكن ما فائدة الجلوس وكتابة القصائد؟».

يردد الشعب الأرمني في ساحات يريفان قصيدة أخرى لباروير سيفاك، ترجمها أيضاً إلى العربية مهران ميناسيان، وهي أغنية ثورية رائعة:

«رغم كل ذلك فقد استطاع أمثالنا

أن يحفظوا شرفهم طاهراً

وضميرَهم ناصعَ البياض كالملح،

لأنهم يفضلون فقدان رؤوسهم

على أن ينحنوا أمام أولئك الذين

يجدّون في سكّ دماغ الإنسان

كما تسكّ النقود،

أو طبع الأفكار مثلما يطبع القماش».

ثم يتمرّد بارويرسيفاك على نفسه، على النار والملح في آن واحد، فيقول:

«قديماً

كانوا يحرقون أمثالنا في النار. . .

أما اليوم،

فنحن الذين سنضرم النار،

سنضرم النار في أنفسنا.

وإذا كان الملح يخمد النار،

فبنارنا هذه سنُحرق الملح أيضاً».

ترك آرام آرونيان وراءه كل شيء حين اختار لنفسه العزلة

والابتعاد عن الماديات، إذ خرج في اليوم السابع عشر من الشهر السابع، واستقر هناك كما استقر فُلك نوح في التاريخ نفسه حسب رواية سفر التكوين. خرج تاركاً وراءه طوفان الدنيويات الذي يغلي في النفوس البشرية. اجتاز جميع العقبات، واجهَ المصاعب والمشقّاتِ والشدائد، ونجح في رحلته إلى اكتشاف أغوار نفسه. وبنى كهفه الصغير بيدين أرمنيتين صابرتين، وأشاح بوجهه عن الدنيا، وأدار ظهره للملذات. وحيداً عاش، وحيداً غنى، وحيداً بكى، وحيداً شكا، وحيداً شكَّ وأيقن. وحيداً أرهف سمعه إلى الحمائم، إلى الكائنات التي لا تراها عيون البشر. صَادَقَ النملَ، والنحلَ، والطينَ، والرملَ، عانقَ ضوء القمر. وحتى الثعابين كانت تمرُّ به ثم تلقاهُ على صخرته جالساً، ينشر من نغمات الدودوك بساطاً يطير ويعلو، فيحلو النشيد، ويجلو الغمامُ رؤوسَ الجبال. ويبقى يدور أنين الدودوك ويملأ صدر الهواء، فتصفو سماءٌ، وتصحو تلال. ويبقى يدور، كأن المدارَ به دارَ محورُهُ حولَ كهف الحكيم. لقد عاش آرام في داخلي، تقمصته بعدما كنت أدمنته، وإذا بي أرى وجهه حاضراً في الوجوه، وراء العيون، كأنّ لآرام روحاً أبت أن تفارقني وأنا في البلاد البعيدةِ أحمل رأسيَ في صفحات جواز السفر. ظلت روحه قريبة مني وأنا في يريفان، قبل الرحيل، وبعد الرحيل، وما بين ذاك وهذا، وجدتُ الملاذَ، ولاذَ به كل خوفي من الخوف، حتى غدا خوفي عليه أكبر من خوفي على نفسي

وعلى حفيدته. ابتعدت عن معلمي آرام لئلا أقوم بدفنه تحت التراب. كنت حين أنام على صخرتي في كهفه أتخيل موته، أتخيل جسده الميت، وأتخيلني وأنا أواري جثته الثرى. إنني لا أملك الشجاعة الكافية التي تؤهلني للقيام بدفن إنسان. قضيت شهرين في الكهف، تعلمت في كهفه ما لا يمكن أن أتعلمه في المدارس والجامعات. قضيت شهرين في التأمل والفلسفة، ثم ودعته، قائلاً:

ـ سيدي، ومعلمي، سأذهب إلى يريفان لكي أعمل، إنني أعيش صراعاً داخلياً مع نفسي، أريد أن أضع بصمتي على جبين الحياة، أريد أن أشعل ثورة أحرر فيها الإنسان من العبودية المعاصرة، أريد أن أكون درعاً لمن لا يملكون صوتاً، وسيفاً لمن نبتت أيديهم على قضبان الزنازين، أريد أن أموت بعد إيصال رسالتي إلى الناس، إنني مؤمن بنفسي إيماناً كاملاً، إيماناً جوهره الله. سيدي، ومعلمي، أُقَبِّلُ جبينك لأشكرَ بصيرتك، وأُقَبِّلُ يديك اللتين خَلَقَتا من الدودوك أكوانَ محبة وجمال لا تنطفئ جذوتها المقيمة في سُويداء القلب ومُهجته. الوداع!

هذه الدقائق الثلاثون تأبى أن تمرّ بسرعة البرق، كما مرت السنوات الثلاثون. وأنا لا أفضّل أن تشرق عليَّ شمس الغد وأنا على هذه الحالة. إن أمامي أكثر من جوعٍ أسعى إلى إشباعه قبل أن أستقل القطار المؤدي إلى المحطة الأخيرة. في هذه

المناسبة، أتذكر أنني قبل عامين تقريباً كنت أبحث عن جمع لكلمة «جوع» الجوع الواحد جوع، والمثنى جوعان، كيف سأجمع ثلاثة أصناف من الجوع؟ لا يمكن للغة العربية أن تقف مكتوفة اليدين إزاء هذه المسألة اللغوية.

لماذا أدخل في جدال مع نفسي في هذه الدقائق إن كانت عصافير بطني تزقزق في صحراء معدتي الخالية حتى بعد امتلائها بالبيتزا حيث لم يبق أمامي سوى المثلث الأخير، لا أدري أين ذهبت البيتزا وأرغفة الجبن بالثوم. إلى متى سيستمر هذا الجدال مع النفس؟ الحق أنني لا أعلم. وأبقى أتساءل: ما جمع الجوع؟ لماذا تجمع «الرغبة» على رغبات، والشهوة على شهوات ولا يجمع الجوع. سأفترض الآن أني أمر بجُوعَيْن، الأول جوع ينخر المعدة، والثاني جوع من الصنف الغريزي الذي لا يتم إشباعه إلا عن طريق المرأة، ثم داهمني جوع ثالث من الصنف الفكري الذي يتغلغل في الرأس، كيف أجمع حالات جوعي إذا كان الجوع لا يقبل الجمع؟ كيف لا يُجمع الجوع والجوع سياسة هذا العصر؟ كيف تجمع السياسة ولا يجمع الجوع؟ جوع، جُوعان، «أجواع». هذا الجمع قد يرضيني بشكل مؤقت. وأطلب من السادة اللغويين أن يشربوا الشاي بالنعناع ويناموا من دون تعليق!

لقد هبَّ قلقي ينعى على عقلي هدوءه، وينذرني بالتساؤلات التي سيؤججها في متاهات دماغي. كيف نوصي البعض بأن

يمسكوا العصا من المنتصف ونحن نبحث عن يدين تمسكاننا من المنتصف وتكسراننا كخيزران غابات تشيلي ثم ترمينا في مهب الأعاصير حتى نتفتت إلى ذرات صغيرة غير مرئية، ونتشكل في أكثر من هيئة، فيصبح هذا كلباً، وذاك قرداً، وهؤلاء يتحولون إلى نباتات شوكية كما كانوا في الحياة، ثم تعيد الطبيعة عملية التفتيت ليرجع كل من تحول إلى هيئته الأولى.

لماذا لا تحذو هذه الحيرة التي تتملكني حذو الهواء الغامض في سلوكه وتمضي غير آبهة بي؟ أُحبُّ المؤلف الموسيقي الألماني روبرت شومان، وأعشق سيمفونيته الرابعة التي تتداخل حركاتها الأربع ببعضها مؤلفة جسداً سمفونياً بديعاً. لو أنني كنت في هذه الساعة المتأخرة من اليأس المميت قادراً على استحضار الأرواح، لاستحضرت روح المايسترو النمساوي العظيم هربرت فون كريان. وطلبت منه أن يختارَني ثانيَ اثنين في العزف على آلة الأوبوا في سمفونية شومان، وسأطلب منه أيضاً أن يتيح لي عزف صولو الأوبوا في بداية الحركة الثانية من السمفونية الرابعة، ولو لمرة واحدة في حياتي، وبعد انتهائنا من عزف السمفونية، يعود هو إلى برزخه، وأمضي أنا إلى الحمّام!

تجدر الإشارة هنا إلى أن «كريان» نمساوي، ولا علاقة لنهاية اسمه «يان» بـ «يان» الأرمن. كم أحنّ في هذه الليلة إليكِ يا «يان» الأرمن، كم أحن إليكِ يا وردة آرونيان!

١٠

جوازي أزرق، وجنسيتي سوداء، وهويتي رمادية، وقلبي أبيض.

ولكن، أين أنت أيها البياض؟ أين أجدني في هذا الزحام، في البلاد التي تفكّر كيف تكفّر أبناءها المؤمنين، وتهجّر أدمغةَ المبدعين. لم أكن أتوقع تغييراً جذرياً حين فكّرت في الانتحار. لم أكن أنتظر يداً تمتدُّ إليّ، إذ كل الأيدي التي أحتاج إليها تلوّح لي من السماء، يد أمي مريم، ويد أبي خالد، ويد جدي عارف، ويد عمتي بسمة، ويد ضيدان التي كانت في يدي قبل استشهاده، ويد عائشة التي لم أقبّلها بعد انتهائها من ذلك الحفل الموسيقيّ في باريس، ويد تيمور وهي تصرخ بي: تحرّك، قل كلمتَك، خذ بثأري وثأرك من كل الخونة الذين قطّعوا لحمنا ورموه لكلاب السياسة على عتبات قصر الحاكم، ويد آرام. كل الأيدي التي تملك القوة لانتشالي مما أنا فيه، يفصلني عنها الموت. سأختصر المسافة وأدنو منه، من الموت، سأمدُّ يدي

مصافحاً، ولا أظن بأنه سيشيح بوجهه عني، لأن أخلاقه لا تسمح له بفعل ذلك. أخلاق الموت عظيمة.

رفقاً بأعصابي يا أصابع البيانو. فقد وصلت إلى المثلث الأخير من البيتزا، وها أنذا أمسكه بين يدي الآن، ورغم كل هذا، فإن تفكيري لا يزال عاجزاً عن الوصول إلى نتيجة تقنعني. الليل الأرميني يمرّ رشيقاً، يمرّ حاملاً معه سنوات عمري. لا غيم سيمطر غداً، وحدها روحي ستصعد، وستحلق فوق قمة جبل أرارات في طريقها إلى السماء. ولكن، ماذا لو خانتني روحي وعادت بي إلى الكويت؟ أتراها ستفعل ذلك؟ من لي في الكويت؟ حين سألني تيمور ذات يوم عندما كنا نتعشى في أحد مطاعم مدينة فيرونا الإيطالية:

ـ لماذا لا تريد أن تعود إلى بلدك؟

أجبته ودموعي تأكل أجفاني وتسحقني.

ـ أأعود إلى الكويت، والكويت ليست في الكويت؟!

ضحك تيمور حينها، وضحكت أنا في المطعم الصغير، وإن الإنسان ليضحك أحياناً من شدة الحزن. أما الآن، وقد اخترت أن أضع نقطة النهاية بنفسي، سأمشي في النفق حتى أبلغ ما وراءه. لقد اخترت أن أختار، وإنني في اختياري هذا، أقترب من وجودية المتنبي التي تظهر جلية في بيته الشعري الخالد: «أعطى الزمان فما قبلتُ عطاءه... وأراد لي، فأردت أن أتخيرا». سيكون موتي هو الكلمة، بعد أن كانت حياتي مجرد

حروف مبعثرة لم تجد أبجدية تظللها. لا شيء هنا يقلقني في هذا الليل الذي أسقطَ قناعه عن وجهه ووجهي، وكشف أوراقه، ومضى بي نحو ما أريد. من منا يريد؟ أنا أم الليل؟ من منا بَصَرُهُ اليوم حديد؟ أنا أم الليل؟ من منا سيطوي الصفحة؟ من منا سيجيب عن الأسئلة؟ من منا سيُسرج خيل الرحيل؟ من منا سيكفكف دمع الآخر الهتان؟ من منا بعد يوم أو يومين، شهر أو شهرين، عام أو عامين، قرن أو قرنين سيبقى حيّاً؟ أنا أم الليل؟ لو كنت ليلاً لما فكرت في أن أنتحر. يحق لي أن أختلف مع نفسي قليلاً، فلا أُسمي طريقتي في الموت انتحاراً بل أضعها تحت مسمى مبتكر. لقد جربت أصناف الليل، واكتشفت أن الليل ليس واحداً. إن هذا الليل لهو الليل الأخير الذي يختلف شكله ومضمونه عن كل ليل صاحبت فيه متاهتي. حول الليل دار حديث بيني وبين جارتي الإماراتية ليلى في حديقة عمارتنا عندما سألتني، وهي تطعم كلبها الكئيب ذا الوجه المكفهر، والنباح القبيح:

ـ ما الفرق ما بين الليل وبيني؟

قلت لها:

ـ لن أغني لك يا صديقتي «الليل يا ليلى يعاتبني»، لأن الليل ليل، وأنت ليلى، ألفك المقصورة أنثت الليل. وإن كان ليل وديع الصافي قد عاتبه حينذاك، فإن ليلي لا يعاتبني وأنا أتوسد ألفك المقصورة. تمنيت أن أحب ليلى كما أحبتني، كنت

ألاحظ غيرتها عليّ من بريجيت، لكني هربت من ليلى وبريجيت وجويس ووردة، وقبل هروبي منهن هربت من اللائي كنت قد التقيتهن في الأردن وإيطاليا وهولندا وغيرها من الدول، لم أهرب منهن بدافع الملل، بل هربت لأنني كنت ألبي نداءً خفياً يتفجر من أعماقي ويأمرني بالرحيل، ولم أهرب في هذه المرة الأخيرة، إلا لسبب واحد يجعلني أغرق في تصوراتي وهذياني، السبب هو أنني لا أريد أن أشاهد وردة تموت أمامي على سريرها الأبيض، لا أتصور نفسي أمشي في جنازتها مرتدياً ربطة عنقي السوداء، ثم أقدم العزاء لأمها وأبيها وصديقاتها اللائي كن يزرنها في الإجازات. لا أتصور نفسي أذرف الدموع في الشوارع الغريبة، تحت المطر الغريب، في الزمان الغريب. كل من أحببتهم تلخصوا في وردة، أصبحت وردة حبَّ حياتي، وحقل أحلامي، أصبحت وردة التي تصغرني بخمسة أعوام حبيبتي وأمي وعمتي، أصبحت نخلتي التي اقتلعت كجزء من الميراث، أصبحت وردة ميراثي الحقيقي، هربت من فرنسا إلى أرمينيا لأقترب من جدها، فإذا كان جبل أرارات منبع دجلة والفرات كما يردد دائماً جدها، فإن جدها هو منبعها الأساسي، منبع وردة، ذهبت إليه لأراها في عينيه، وأسمعها من خلال صوته، ما كانت وردة لتكون، لو لم تكن أمها، وما كان أبوها ليكون، لو لم يكن جدها. كيف لي أن أطوي العمر لأصبح جَدّاً، أحلم بأن أكون جَدّاً، وأرفض في الوقت نفسه أن أكون أباً! كيف لي أن أعبر من

ضفتي كأعزب إلى ضفتي الأخرى كجد؟ رحماك بي يا قلق التناقض! إنني أقدس وأجلّ مكانة الجدّ كثيراً. فذاك جدي العظيم، وهذا جد وردة نهر حكمة. والآن أقول، لقد آن أوان وضع السيناريو الأخير. أجل، لقد آن الأوان. سأكتب وصيتي في ورقة، وأعلقها على مرآة مغسلة الحمام الذي سيكون هو مكان إقلاعي إلى الآخرة، في البانيو، ولا أنكر أنني في وصيتي سأبدو متأثراً بالتسجيل الصوتي الذي تركه طليق عائشة بعد مقتلها حين روته لي جوْيس:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أنا عارف، خذوا اسمي الأول، ولا تسألوا كثيراً، ليس مهماً أن تعرفوا اسم والدي واسم جدي ولقبي، خذوني كما أنا، احملوني إنساناً وادفنوني، لا شأن لكم برقم جوازي، لا تخبروا سفارة الكويت عني، لأنني أريد أن أدفن في بلادكم. لا تدخلوني إلى حمّام المقبرة، لأنني لا أسمح لأكفكم بأن تقلبني وتفركني بالماء والكافور وأنا ممدد، راكد لا حول لي ولا قوة، لا أريد أن أبصركم بعينيْ روحي وأنتم تمارسون مهنتكم على جثتي، لست فأر تجاربكم أيها السادة، ولا تشتروا لي بما بقي لدي من مال في خزانتي كفناً، سيكون التراب كفني الفضفاض. ضعوني في التابوت الذي ستجدونه تحت سريري في حجرة النوم، التابوت الذي صممه لي النجار الكبير إيليا غرابيديان، ضعوني كما أنا ببذلتي الكحلية. أنا عارف، ولا أعرف من أين سأبدأ، طويل هو مشوار العودة نحو البداية، ولا سيما إذا كان المرء يقف على

حافة النهاية. عشت عشرين عاماً في الكويت، وعشرة أعوام خارجها. ذقت الغربة في الكويت، وهاجرت لدراسة الفن في باريس والعمل في متاحفها، ثم انتقلت إلى مدينة روان الفرنسية بعد أن أضجرتني باريس وعملت في مصحة هناك، أحببت الموسيقى، وعشقت في المدينة الشمالية امرأة تدعى وردة، هي فهرس كتاب حياتي. شاءت الأقدار أن تجعل وردة تقتطفني قبل أن أسعى إلى اقتطافها. تركتُ فرنسا بعد إقامة امتدت إلى سبعة أعوام تخللتها رحلات قصيرة إلى هولندا وبولندا وإيطاليا والسويد وإنجلترا والمغرب. لم أتمكن من الفوز بالجنسية الفرنسية التي كنت أحلم بها في العام الأول من إقامتي في باريس لأسباب سياسية يصعب شرحها وتوضيحها في وصيتي، فالأسباب قد تتغير في المستقبل، وقد نرى الإنسان الكويتي لاجئاً يبحث عن جنسية تكفل له حقوقه كإنسان، وقد نراه أيضاً على أبواب السفارات يشحذ وطناً، من يدري، كل شيء ممكن! أنا عارف، عارف الذي حمل حقائبه وطار إلى أرمينيا بحثاً عن جدّ وردة. تعلمت اللغة الأرمنية، التي كانت بالنسبة إليّ قارباً متأرجحاً في محيط العربية. لم أشربها بسهولة ويسر كما شربت الفرنسية. لا يشتد ارتباطنا بلغة ما، إلا إذا اشتد ارتباطنا بالأشخاص الناطقين بها. أقمت ثلاثة أعوام في أرمينيا، حتى هذه اللحظة، عملت مصوراً، حملت الكاميرا وصورت أفلاماً وثائقية كثيرة. مكنتني وظيفتي من استئجار هذه الشقة التي أطلّ من شرفتها على جبل أرارات الذي أستمد من طاقته

وطاقة معلمي جد وردة ـ ناسك الجبل ـ الذي توفي قبل أسبوع، طاقة روحية عالية تجعلني أرى الأصوات التي قضيت عمري أتلهف شوقاً إلى رؤيتها. أعطيت جاري فلادي، القادم من جورجيا والمقيم في الطابق العاشر، جزءاً كبيراً من ملابسي وأسطواناتي. ولا أملك الآن سوى هذه البذلة الكحلية التي أود أن أدفن بها. البذلة والتابوت ومجموعة من الأوراق والدفاتر والكتب وجهاز الكومبيوتر والمسجل والكاميرا والتلفزيون، هذا كل ما ستجدونه عندي، لكم أن تأخذوا الكتب وتبيعوا بقية الأغراض. وأطلب منكم أن ترسلوا أوراقي ودفاتري إلى عنوان وردة في مدينة روان. لا بد من أن أخبركم عن المسدس الذي اشتريته قبل شهرين من أحد تجار السلاح في يريفان لهذه المهمة، لكني بعد تفكير طويل، قدمته هديةً إلى فلادي في عيد ميلاده الأخير، الجار الذي حدثتكم عنه في الطابق العاشر، لقد قررت أن أتناول مقدار «١٠ مل» من سائل سمّ السيانيد ـ Cyanide، الذي يطلق عليه البعض اسم سمّ الملوك بصفته أقدم وأفخر السموم المتداولة بين الناس، لئلا أزعج جيراني في العمارة حين أطلق الرصاصة الأخيرة. أرجوكم، ابتعدوا عن جاري الطيب فلادي ولا تتهموه بقتلي، ولا تحققوا مع صاحب المصبغة التركي في الشارع المقابل حول قضيتي، لا أريد أن أرى يديه مكبلتين لأنه من أصول تركية! أعلم بأنكم ستحاولون أن تبحثوا عن وافد من تركيا لكي تلبسوه التهمة. لقد عاشرتكم وعرفت كيف تفكرون. أرجوكم، لا تحشروا أحداثكم

ومسائلكم السياسية في قصتي. لقد سئمتكم وسئمت الأتراك، كما سئمت الناس والعيش في بلدي، ثم سئمت الناس والعيش خارجه. ستجدون على المكتب قسيمة القبر الذي اشتريته قبل يومين، فإذا كنتم تريدون أن تخالفوا وصيتي وأن تدفنوا جسدي في مكان آخر، فإنني أفضل أن يكون على قمة جبل أرارات قرب قبر المعلم الكبير، سأسمح لكم بأن تمزقوا قسيمة القبر إن كنتم ستحملون نعشي إلى أرارات، المهم هو أن تستعجلوا في إغلاق ملف القضية، فالأمر عادي، ولا يستحق منكم كل هذا التحقيق الطويل، أرجوكم، دعوني أرقد بسلام. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

سأدون في هامش الصفحة الثانية من الوصية هذه الجملة:

* «إلى من يهمهم الأمر، أنا عربي حرّ، فلا تتهموني بخيانة بلدي لأنني بلا بلد. وأنا مسلم حرّ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله. وأحترم جميع الأديان، فلا تكفروني. إن اليهود والنصارى والصابئين ومن ينتمون إلى الملل والمذاهب الفكرية والطوائف الأخرى إخوتي في الإنسانية. فابتعدوا عن تأليف القصص والأخبار حول قضيتي. ولكم جزيل الشكر».

التوقيع والبصمة والتاريخ:

عارف. في ١٠/٩/٢٠٠١

هذا هو الصمغ الذي سأستعمله في إلصاق الصفحتين على مرآة مغسلة الحمام. وهذه هي قنينة سم السيانيد. كل شيء جاهز إذن. وإنها الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. لقد انتصف الليل في قدح المدينة، وفاضت الروح من قدح الجسد. سأحضر حفلة شروق شمس الغد في مسرح البرزخ، وسأجلس في الصف الأمامي مع بقية المستجدين من الأموات. لا أدري لماذا تمرّ ببالي صورة مبنى لا سكالا/ دار الأوبرا في ميلانو الإيطالية كلما تخيلت صورة للبرزخ. ستكون عائلتي الكونية ـ المكونة من أمي مريم وأبي خالد وجدي عارف وعمتي بسمة وصديقي ضيدان فلاح وصديقتي عائشة وصديقي تيمور والمعلم آرام آرونيان ـ جالسة في البلكونة الملكية في دار البرزخ. لا أدري إن كان الملكان سيوجهان إليّ أسئلتهما في هذا المكان، أم في مكان آخر. ما دام الملكان سيأتيان إلى قبري بعد دفني، فإني أفكر في أن أطلع عائلتي الكونية على قصتي قبل مجيئهما، وإن كانت مراسيم دفني ستقام عصراً فسوف أحاول في هذه الساعات القادمة أن أشرح لجدي أو عمتي الأسباب التي دفعتني إلى احتساء السيانيد للعبور إلى السماء، سأطلب من أحدهما أن يطلع الملكين اللذين سيهبطان إليّ على موضوعي، لئلا تتضخم وحشتي في القبر. لقد أشبعت أكثر من جوع في هذه الساعات الأخيرة، طلبت البيتزا لأسدّ وأسدّد فاتورة جوع بطني، ووضعت سيمفونية موتسارت الخامسة والعشرين بقيادة المايسترو كارل بوم لأسدّ وأسدّد

فاتورة جوع أذني، وتأملت ألبوم صور العائلة لأسدّ وأسدّد جوع عيني، ورتلت سورة القيامة على مقام الصّبا لأسدّ وأسدّد جوع نفسي وعقلي، ثم طبعت قبلة على صورة وردة لأسدّ وأسدّد جوع قلبي. أما جوعي الأخير فإنه سيسبق احتساء السيانيد بدقائق قليلة، إنني جائع إلى تدخين السيجارة الأخيرة وأنا أستلقي على ظهري في البانيو، سأطفئ السيجارة في المنفضة القريبة مني، ثم أنطق بالشهادتين، وأتناول السمّ. ها هي علبة تبغي، وها هي الوصية على المرآة، وها هو السمّ.

ولكن ما بال الولاعة لا تعمل؟

اللعنة... لقد نفد غازها!

ينبغي لي الآن أن أنزل إلى محمود التركي صاحب كشك السجائر والمجلات في نهاية الشارع قبل أن يعود إلى بيته لأشتري ولاعة أو علبة ثقاب كي أشعل سيجارتي الأخيرة. إن أنبوبة الغاز في مطبخي فارغة هي الأخرى من الغاز، ليتني أستطيع إشعال لفافتي، مستخدماً الغازات التي تعتمل في معدتي!

عذب هواء يريفان، وليلها أليف. دفعت ثمن الولاعة وتمنيت لمحمود ليلة سعيدة، ثم أشعلت سيجارتي، وحين كنت عائداً في طريقي إلى عمارتي، تعثرت بغتة وسقطت عن الرصيف على سيارة صغيرة صدمتني صدمة خفيفة قرب إشارة المرور الضوئية عند منعطف الشارع، جعلتني أسقط على الأسفلت.

كان خوفي أكبر من الحادث، لأن سائق السيارة لم يتجاوز سرعة «عشرين كيلومتراً» عندما وقعت. رأيت المرأة تنزل من سيارتها مذعورة، نظرت إليها ثم ألقيت رأسي على دعامة سيارتها الأمامية بعد أن شعرتُ بالطمأنينة، إنها وردة، وها هي تحتضنني بين ذراعيها وتمسح جبيني:

ـ حبيبي عارف، هل أنت على ما يرام يا نور عيني؟

كنت أفتح عيني كأعمى يرى النور لأول مرة، أنظر إلى السماء والبنايات وأعمدة الإنارة من حولي في الشارع، أنظر إلى وجه وردة البهي، وشعرها الطويل الذي يدثرني، أتأمل رموشها والبريق في عينيها، لم أقل شيئاً، ولم تقل هي شيئاً حين رأتني أتنفسها بمقلتي، ضمتني إلى صدرها وقالت:

ـ حياتي عارف، قل أي شيء، تكلم.

ثم حركت يدها اليمنى إزاء عينيّ المفتوحتين وراحت تسألني:

ـ ماذا ترى؟

قلت:

ـ أرى عينيكِ بعد غياب يا حبيبتي. أرى أرارات.

قربتني من صدرها كأني طفلها الرضيع، وكأنها أمي، ثم همست في أذني:

ـ أحبك.

أمسكت يدي وحملتني إلى سيارتها. قلت لها حين أغلقت الباب وأدارت المقود:

ـ إن بيتي قريب يا روح قلبي. اركني سيارتك إن شئت قرب هذه المصبغة، أو خلف تلك الشاحنة.

ركنت سيارتها وسألتني إن كنت في حاجة إلى طبيب فقلت:

ـ إنني أشعر بدوار خفيف، كأنه دوار البحر، لا تقلقي أبداً، ولا ترهقي أعصابك. فمنذ يومين لم أنم يا وردة، وإني أحتاج أن أنام قليلاً. خذيني إلى المستشفى صباحاً إذا ساءت حالتي. وعلى كل حال، فإن جاري في الطابق الثامن طبيب.

ارتديت بمساعدة وردة بيجامة أخرجتها من خزانة ملابسي في حجرة النوم، ثم استلقينا على السرير جنباً إلى جنب، كان صدرها وسادتي، وكنت أشعر بالدفء والبرد في آن واحد. تقلبت كثيراً، تعرق جسدي، ثم ارتجفت من البرد، لا أدري كم ساعة نمت، ولا أدري من أين جاءت وردة بالماء الساخن لتضع الكمادات على جبيني، فلا يوجد عندي غاز لتسخين الماء. لم تستنجد بجاري الطبيب، ولم تهرع إلى صيدلية مجاورة لجلب دواء. كأنها أدركت منذ اللحظة الأولى أن وجودها دوائي، وقبلاتها شفائي. أحسست بألم بسيط في الجهة اليمنى من رقبتي، وعندما فتحت عيني، نظرت إلى المنبه على الكومدينة، وقرأت عقارب الساعة التي كانت تشير إلى العاشرة والنصف صباحاً. لم أتوقع أن يحدث ما حدث، من سيصدق أن السيجارة التي خرجتُ من أجل إشعالها بعد منتصف الليل هي التي أرجأت موتي؟ كانت يد وردة اليمنى

على خدي الأيسر، وكنت لا أزال نائماً على صدرها. قبلت يدها، ففتحت عينيها وقبلتْ جبيني قائلة:

ـ صباح الخير حبيب قلبي.

تحركت وردة قليلاً كي ترفع رأسها وتسند ظهرها على لوح السرير الخشبي الأبيض، فلامست شفتاي مطلع نهديها، وتمتمت قائلاً:

ـ صباح النور يا كل عمري.

ثم سألتها وأنا أشمّ حنانها:

ـ منذ متى وأنتِ في أرمينيا يا وردتي؟

أجابت وهي تسحب نفسها إلى الأعلى:

ـ قبل أسبوع وصلت مع بابا. وزرنا قبر جدي. دخلنا كهفه الصغير، وحملنا أغراضه معنا إلى البيت، الدودوك والعصا، والصندوق الذي جمع فيه أوراقه ورسائل مريديه، ولولا ذلك الصندوق لما وصلت إليك.

ـ أخبريني كيف؟

ـ في الصندوق وجدت هذه البطاقة.

فتحت وردة حقيبتها وأخرجت منها بطاقتي التي أعطيتها جدها في لقائنا الأول، وفيها اسمي الكامل ورقم هاتفي النقال في أرمينيا، ورقم هاتف ستوديو عملي، وعنوان بريدي الإلكتروني

وعنوان سكني. لكن البطاقة قديمة، فقد أصدرت قبل ستة أشهر تقريباً بطاقة أخرى بعد أن غيرت سكني وانتقلت إلى هذه الشقة، وألغيت رقم هاتفي القديم بعد شراء خط جديد. حاولت وردة ـ بعد عثورها في صندوق جدها على البطاقة ـ الاتصال بي من دون فائدة، لأن الخط مفصول عن الخدمة. أخبرتني أنها أرسلت ثلاث رسائل إلى عنوان بريدي الإلكتروني، لكنني لم أفتح جهاز الكومبيوتر منذ أسابيع، وفي النهاية فكرتْ أن تفاجئني وتزورني في ستوديو عملي، وحين وصلت إلى هناك، أعطاها زميلي في العمل مهندس الصوت عنوان سكني الحالي، وقال لها إنني حزين على فراق المعلم، وأقضي معظم الوقت في عزلة تامة داخل بيتي.

ـ هيا حبيبي، انهض واستحم، لعل الماء الدافئ يزيح عنك تعب البارحة، ريثما أهيئ لك مائدة الإفطار. سأنزل لأشتري ما ينقصنا، وأستلم بذلتك الكحلية التي حملتها قبل ساعتين إلى المصبغة التركية.

خرجت وردة من حجرة النوم، وتوجهت إلى الحمام، كنت أتمطى في الفراش وأفرك أجفاني لأطرد النوم. استويت واقفاً قرب سريري وحملت روب السباحة، كانت وردة قد خرجت من الحمام، وأخذت معها حقيبتها والتفتت إليّ قبل أن تفتح باب الشقة وقالت:

ـ لن أتأخر، سأعود إليك.

ثم ركضت نحوي واحتضنتني كأنها كانت تكتم في داخلها براكين دموع، قبلت شفتيّ وكانت عيناها مغمضتين وهي تقول في ختام القبلة:

ـ انتظرني حبيبي.

بعد خروجها بثوانٍ معدودة، انتبهت إلى أن الوصية لا تزال معلقة على مرآة الحمام، ولا بد أن تكون وردة قد قرأتها حينما دخلت قبلي. تذكرت ما قالت قبل نزولها، «لن أتأخر. . . سأعود إليك. . . انتظرني حبيبي». راح صوتها يتفجر كالرعد في جمجمتي، أسرعت إلى الحمام، فوجدت الوصية في مكانها على المرآة، خرجت من الحمام إلى الصالة، ثم إلى حجرة النوم، كنت أبحث عن الولاعة التي اشتريتها، لأُحرق بنارها وصيتي. وجدت الولاعة على سطح التسريحة، عدت مسرعاً إلى الحمام وأحرقت الوصية، ثم رميتها في سلة المهملات القريبة من المغسلة. نظرت إلى انعكاس صورتي في المرآة، فلم أستطع أن أحلل وجهي، رأيت وجهين في المرآة، كان الوجه الأول وجهي، أما الوجه الثاني فقد ظهر لي ضبابياً بلا ملامح. سألت الأول عن الثاني إن كان يعرفه، إن كان شاهده قبلي وحاوره، لكنه لم يجبني، لم يضع نقطة ولا فاصلة، تمنيت أن ينطق ذلك الوجه، أن يقول شيئاً، أن يشتمني إن أراد، أن يصفعني إن لم يعجبه كلامي، ولكن لم يحدث شيء مما تمنيت أن يحدث. وقفت في البانيو تحت

الماء المتدفق من الدوش، أنظر إلى شفاط الهواء وهو يقوم بامتصاص الهواء من الداخل وطرده إلى خارج الحمام. كنت أراه يدور وهو يُخرج من الحمام رائحة الوصية المحترقة، ورائحة انتحاري. كان من المفترض أن تكون جثتي ممددة حيث أقف الآن، لو لم أنزل في تلك الساعة بعد منتصف الليل إلى كشك محمود التركي. لو لم أنزل لشراء ولاعة، لكنت دخنت السيجارة وشربت السيانيد، ولكن ما الذي سيأتي بعد ذلك؟ سأموت، وسوف تصل وردة بعد تغلغل السم في عروقي، وستطرق الباب الذي لن يفتحه أحد، ثم تسأل الجيران عني، سترى جثتي، وتبكي، وربما كانت ستموت من هولِ المنظر. كيف سيتعامل الموت معي لو أنه جاءني قبل وصول وردة؟ هل كان سيحتويني بعطفه كما فعلت عندما كانت تضع الكمادات على جبيني حين كنت أرتجف من شدة البرد واضطراب الهرمونات؟ هل كان سيأخذ بذلتي إلى المصبغة، ويرتب خزانة ملابسي، ويهيئ لي مائدة الإفطار؟

أقف تحت الماء المتدفق وفي قلبي رغبة عنيفة لمعانقة الحياة، كأني أمارس تطهير نفسي في الاغتسال من الموت، كأني أريد أن أولد من جديد. وهذه هي ولادتي الثانية، آن أوان ولادتي وأنا في الثلاثين من عمري. ستقودني فطرتي إلى صدر وردة. وسأحتفي بوجودها ووجودي. وأعانقها حين تعود كأني أعانق فيها الحياة، حياتي/ حياتنا القادمة.

فتحت الباب ودخلتْ، رأتني جالساً على الأريكة، ركضت إليّ بعدما وضعتِ الأكياس على الطاولة كطفلة وعانقتني، كانت تحمل معها بذلتي، قالت لي وهي تتوسد ذراعي:

ـ حبيبي، اذهب وارتدِ بذلتك. سأحتفل بك اليوم، كما لم يحتفل حبيب بحبيبه من قبل، سأكحل عينيّ لك، وألبس لك فستاناً أحمر يليق ببريق عينيك، سأنثر شعري الطويل بين يديك لتصفف لي ضفيرتينِ كما كنت تفعل عندما كنا في فرنسا. سأكون طفلتك المشاكسة، سنرقص ونغني ونستلقي على العشب. سأهرب منك لتصطادني، وسأنتقم من غيابك عني بامتزاجي بك. لن أتركك تغيب عن عيني يا ضوء عيني بعد اليوم، سأكون كظلك في الليل والنهار، سأتنفس الهواء كله وأحبسه في رئتيَّ وأقدمه لك كي تعيش لي، لي وحدي يا سيد الناس.

قطعتْ كلامها على حين غرّة، ونظرتْ إليّ قائلة:

ـ عاهِدْني حبيبي.

قبَّلتُ جبينها وأدنيتها من صدري، فرفعت رأسها مرة أخرى ونظرت إلي مكررة طلبها:

ـ عاهدني أن تبقى لي، أن يظل صدري وسادتك، وصدرك وسادتي، وأن أعدَّ قهوتك الصباحية بنفسي، وأن أتولى جميع مهام بيتك، من طبخ وغسيل وتنظيف، وأن أشاركك وتشاركني

كل صغيرة وكبيرة، كل شاردة وواردة.

قلت وأنا أمرر أصابعي على وجهها:

ـ أعاهدك يا وردة، أن أقفل باب قلبي عليك.

ثم اعتدلت في جلستي وقلت:

ـ هل ستصدقين ما سأقوله لك الآن؟ قد أذهب إلى بلدي بعد غياب دامَ عشرة أعوام وستة أشهر لأرميَ مفتاح قلبي هناك، وأعود إليك.

ابتسمت وقالت بنبرة يخامرها الغنج:

ـ لا يا نور عيني، سترميه هنا.

وأشارت بإبهامها إلى الخط الفاصل بين نهديها، وأكملتْ:

ـ لن أسمح لك بأن تسافر وحيداً، ثم قل لي، لماذا تريد أن ترمي المفتاح في بلدك؟

تنهدت قائلاً:

ـ بلدي حفرة كبيرة، كل شيء يضيع فيها، فلا يُرى له أثر بعد ذلك، حفرة كبيرة حتى وإن كانت مساحتها الجغرافية صغيرة، حفرة يضيع فيها الإنسان قبل ضياع حقوقه، فما بالك بالمفتاح. حفرة ابتلعت البشر وتفجرت بعد ابتلاع البشر بالنفط. رحمة الله على بلدي!

لا أدري لماذا تذكرت بلدي في الوقت الذي كانت فيه وردة بين يدي، ولا أدري لماذا قلت لها ما قلته في حديثي عن الحفرة التي خرجتُ منها. يبدو أن المشاعر والأحاسيس والانفعالات قد اصطدمت ببعضها رغم أنفي في خلاطِ وجداني، فلم أستطع كبح جماح الحسرة والألم!

وضعت رأسَها على حجري، وأمسكت يدي وهي تقبل أصابعي وتقول:

ـ عندما تركتني وسافرت، كدت أفقد صوابي، بل كدت أموت. لكنني حين عرفت السبب الحقيقي الذي دفعك إلى السفر بعد أن شرح لي الدكتور ساموئيل بوب كل شيء، أدركت كم كنت تحبني وتخشى عليّ من المجهول المتربص بي، حاولت أن أستمد القوة من إيماني العميق بحبك لأهزم مرضي، ونجحت، أرأيت حبيبي مفعول حبك؟ لقد استأصل حبك ورم اليأس الذي كاد يفتك بي.

وبينما نحن كذلك، إذ امتدت يدي إلى «ريموت» التلفزيون، ورحت أتصفح القنوات بحثاً عن قناة تحتوي قلبينا، عن أغنية أرمنية أو عربية، عن فيلم رومانسي، أو حفل موسيقيّ، وكنت أتمنى أن تدور أغنية «يا طول عذابي» لأم كلثوم ونحن على الأريكة. لكن قناة BBC العربية بثت خبراً أخرسنا بغتةً، كأن طائرة فجّرت الشقة التي جمعتنا ـ وردة وأنا ـ في الطابق السادس.

جاء صوت مذيع النشرة:

ـ «... نتابع وإياكم سلسلة التفجيرات التي حدثت صباح اليوم في مناطق عدة في الولايات المتحدة الأميركية، ونقرأ عليكم آخر الأخبار:

أبلغتْ شرطة نيويورك المراسلين عند مركز التجارة العالمي بأنها بدأت عملية محمومة لإخلاء المنطقة المحيطة بمركز التجارة في مانهاتن.. ومعي من واشنطن المحلل السياسي الدكتور...»

عانقتني وردة.

صوت المذيع:

ـ «ما هي الأجواء عندكم في الولايات المتحدة الأميركية؟"

قَبّلتُ خدَّها الأيمن.

صوت المحلل السياسي:

ـ «صدمة كبيرة...»

أدركت أن الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، يوم ليس كسائر الأيام التي عشتها.

صوت المذيع:

ـ «دكتور، كيف ترى الـ..؟»

إنه المخاض الذي عشته ثلاثين عاماً، إنه الصداع والضياع، الدوار والقرار، الحنين والأنين، واللايقين واليقين.

أمسكتْ وردة مسند الأريكة اللينن وخبأت وجهها بدلال لئلا أقُبِّلَ خدَّها الأيسر.

صوت المحلل السياسي:

ـ «آلاف الضحايا».

وردة... تضحك.

صوت المذيع:

ـ «هل يعطينا هذا الوضع شكلاً من أشكال سلبية العولمة؟»

أنا... أضحك.

صوت المحلل السياسي:

ـ «هناك الكثير من التكهنات...»

أهجم عليها...

صوت المحلل السياسي:

ـ «ما حدث في الولايات المتحدة قد شلَّ كلَّ البورصات في العالم...»

أسهمي كلها في ارتفاع.

صوت المذيع:

ـ «إيقاف كل الرحلات، والـ...»

وردة، تركض في الشقة.

صوت المحلل السياسي:

ـ «أما بالنسبة إلى الجبهة الديمقراطية. . . »

وردة، تقبّل جبهتي وتهرب.

إنها وردة، إنها البستان كله. الوردة التي طارت وفجّرت بُرجَين في كياني، برج العقل، وبرج القلب، فجَّرَتْهُمَا لتُعيد بناءهما بعبقها. إنها وردة التي وَحَّدَتْ جميعَ وِلاياتي تحت علم واحد يحمل صورتها.

بعد وفاة آرام آرونيان، كنت أفتح نافذتي فلا أرى أرارات.

أما اليوم فإني أرى أرارات وأسمع صوته.

إني أسمع صوته.

إني أسمع.

إني.

«بعد تنهيدة طويلة على صدر وردة»:

ـ إني عارف.

أكتوبر ٢٠١٤





المؤلف

سامي القريني شاعر كويتي، مواليد ١٩٨٦، صدر له:

كأني أرى شيئاً (شعر) ٢٠٠٧.

شواطئ الكريستال (شعر) ٢٠٠٨.

عندما لا أحد (شعر) ٢٠٠٩.

المنسيون (مسرحية شعرية) ٢٠١٠.

عرايا بلا مفردات (شعر) ٢٠١٠.

شارك في العديد من المهرجانات الشعرية والملتقيات الثقافية في العالم العربي وأوروبا.





سامي القريني

أرى أرارات

آهٍ يا رأسي آه ..

الجملةُ تُوَلِّدُ جُملةً أخرى، العبارات تتشابك،

فتنجبُ أفكاراً، الأفكارُ تتسع،

الاتساعُ يضيق، ولاداتٌ مستمرة،

كم تشبه مستشفى الولادة يا رأسي !

كأني تحولت إلى درنفيس. أتكئ على نحولي،

وأحاول فتح البراغي من خلال الدوران حول نفسي

لتبديل بطارية الأمل !

من الرواية




ISBN 978-9953-21-607-2